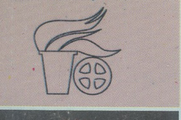
الثقافة الجديدة

فكر علمي ثقافة تقدمية



310

2003





فكـــر علمـــي-ثقـــافـــة تقـــدميـــة

تأسست عام ١٩٥٣

رئيس التحرير

رائـــد فهمـــي

المـــواد المنشـــورة تعـــبر عن آراء أصحابها

310

أُغلق تحرير العدد أواسط أيلول ٢٠٠٣

السـعر : خمسـة عشـر دينـاراً

الاشتراك السنوي: 50 دولار أو ما يعادلها – 100 دولار للمؤسسات
يحول المبلغ مقدما إلى حساب رقم: 42-467127
ANY HAMED AYOUB
BANQUE LIBANO-FRANCAISE
Bar Elias, LEBANON
أو إلى حساب رقم: 27-307020
COMMERCIAL BANK OF SYRIA
Branch 16 Damascus, Mr. FARES FARES
المراسلة باسم رئيس التحرير، فاكس رقم: 00331-64262562
E-MAIL: thakafajadida@hotmail.com
HYPERLINK "http://www.althakafaaljadeda.com
ترسل مواد (أدب وفن) باسم: مهدي محمد علي
يرجى المراسلة بشأن توزيع المجلة وماليتها على العنوان:
سورية، دمشق، ص.ب: ٧١٢٢ أو ٢٦٢٢، تليفاكس: ٤٤٤٩٧٢٤

ترجو هيئة التحرير الأخوة المساهمين في المجلة مراعاة ما يلي في ما يرسلون للنشر

- أن تكون المقالة مستوفية لشروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
- يفضل أن تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الإلكتروني. أما المكتوبة باليد فنرجو إرسال نسختها الأصلية.
- ألا يتجاوز حجم المادة ٤٠٠٠ كلمة.
- لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
- بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
- للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.

محتويـــات العـــدد

أدب وفن

- صورة الغلاف الأول: حريق المكتبة الوطنية في متحف بغداد، نيسان ٢٠٠٣
- لوحة الغلاف الأخير (إلى أمي) للفنان علي عساف

كلمة العدد

مهمات أمام المثقف

لن ينسى العراقيون ذلك المشهد الذي أنهى ٣٥ عاماً من القمع والقهر، مشهد سقوط تمثال الطاغية من على منصته العالية على الأرض في لحظة بدا فيها المحال يتحقق تحت شمس ساطعة. كان هذا المشهد برمزيته وواقعيته بداية عهد عراقي جديد بحلاوته ومراراته.

لكن سقوط التمثال لا يعني بالضرورة زوال الآثار الروحية والثقافية لذلك العهد الذي شهد ثلاثة حروب خارجية وحرباً على الداخل كانت الأساس والدافع لحروب الخارج.

خلال ١٢ عاماً من الحصار تحولت الطبقة الوسطى صاحبة مشاريع التحديث في العراق إلى مستوى من الفقر بدت فيه الحاجات الروحية والفكرية بطرا زائدا إزاء الحاجة إلى لقمة الغد.

ونتيجة لغياب أية ثقافة عقلانية بديلة ولدت ونشأت أجيال من العراقيين وقد أغلقت عليها مسارب حرية الفكر والرؤية تحت هيمنة ثقافة الحزب الواحد والقائد الواحد.

من المستحيل والسذاجة القول بأن ثقافة ٣٥ عاماً زالت من داخل العراقيين بمجرد سقوط تمثال وغياب طاغية. واحد من تجليات هذا الخراب الروحي نشوء قطاعات هامشية عريضة أفقرت وهُمّشت لدرجة أنها راحت تنهب مؤسسات الدولة، بما في ذلك المؤسسات التي تمثل إرث البلد الحضاري. فقد تهيأ لها أن ثروة البلد لا تمتّ لها بصلة، إنما لطغمة حكمت البلاد بالدم، حكماً من تجلياته تحول العنف إلى تعبير عن الحرية حيث نشأت الأجيال الجديدة بين الخندق والخندق، وتوسّعت أجهزة العنف بشكل يندر أن تجد له مثيلاً.

من هنا تبدأ معركة التغيير، وهي معركة ثقافية أكثر مما هي سياسية رغم صعوبات الفصل بين الجانبين. ومن هنا يبدأ دور المثقف العراقي.

ليست مهمة المثقف كخالق قيم جدية، مهمة آنية أملاها سقوط طاغية. فمنذ ثورة العشرين لم يفارق المثقف العراقي الشعور بأنه حامل رسالة اجتماعية للناس. وهذه الرسالة تجمعه مع السياسي ضمن مشروع واحد في بلد شهد انخراط أوسع عدد من المثقفين في العمل السياسي

والحزبي. وشكّل السجن والتعذيب جزءاً لازماً من سيرة ونتاج هذا المثقف الذي رأى الأهوال. هذه المهمة تدخل في صلب العمل الثقافي لأن أية معرفة عندما تصل الناس تثير أسئلة، وتحرّض على التفكير، وتؤثر في علاقات الفرد بالجماعة فتغدو ممارسة اجتماعية. فالمعرفة تتحول إلى سلطة حين تدخل حيز التطبيق.

وفي عراق ما بعد صدام حسين يجري جدل حاد عن طبيعة هذا الدور. ففي تجمعاتهم ولقاءاتهم يسأل المثقفون عما يمكن أن يفعلوه وسط الخراب الشامل الذي خلفه الاستبداد والحرب، وإزاء مستقبل يبدو، على المدى القريب، غامضاً ومجهولاً. عن ذلك المستقبل يدور الحديث في الغرف المغلقة للسياسيين الذين مازالوا يعتقدون أن الثقافة موضوعة ثانوية ولاحقة لتقسيم السلطة الفوقية، وإن دور المثقف ما زال مقتصراً على خدمة السياسي دون مجادلته.

لقد تبدّد الكثير من الوقت والنضال خارج فضاء الديمقراطية ودفع المثقف والسياسي الثمن غالياً. طريق الديمقراطية غدا معقّداً اليوم أكثر من أي وقت مضى، لأنه يتطلب النضال على عدة جبهات مفترقة ومتداخلة:

ـ نضال داخل الخندق وخارجه، من أجل أن يكون للمثقف وللثقافة دور أساسي في بحث صورة عراق المستقبل. فبدون هذا الدور ستبقى الصورة قاصرة، وتظلّ مشاغل السياسة آنية تدور في كيفية توزيع كعكة السلطة، وتُترك الأمور الجوهرية مؤجلة بلا جدول ولا أفق.

ـ نضال ضد الاحتلال يستند على إرث البلد الثقافي والسياسي لإشاعة روح وطنية عراقية تعلو على الطوائف والقبائل، وتوظّف كل طاقات البلد لكي يأخذ العراقيون المبادرة والتحكم من سلطات الاحتلال، ويثبتوا قدرتهم على إدارة بلادهم وإقامة ثقافة حوار يتجه نحو الديمقراطية والبناء.

ـ نضال ضد ثقافة الاستبداد والعنف التي خلفتها ٣٥ عاماً من حكم الحزب الواحد والفرد الواحد. مهمة المثقف أن يضع يديه على قاعدة الاستبداد الاجتماعية ويساهم في خلق ثقافة عقلانية لدى أوسع قطاعات الناس بحيث تصبح سدّاً أمام صعود حزب بعث باسم آخر، أو صعود (صدام) مُحسّن، أي صعود تيار يرفض الديمقراطية بكل مكوناتها. وهذا يتطلب النضال داخل الخندق، أي مع وضد القوى السياسية التي كانت في المعارضة والتي اكتسبت خلال الصراع، وهو علاقة جدل، بعض صفات جلادها. على المثقف أن يكون داخل الحركة وخارجها، بنّاءً وناقداً.

ـ لا يواجه المثقف سلطة الاستبداد وحدها، إنما أيضا تيارات نابعة من مجتمع منهوك القوى، مفكّك الكيان، مدين لدول إقليمية ودولية ستفرض شروطها في شكل الحكم، تيارات مندفعة من قاع مجتمع مسدود الأفق ستقاوم حرية المثقف بشروط سلفية...

إنها معركة ملتبسة وصعبة، ومع ذلك لا خيار للمثقف المؤمن بالديمقراطية، إلا النضال من أجل الديمقراطية، وسيلةً للحكم ونظاماً للمجتمع وطريقةً للحياة. التزام الكاتب بالديمقراطية هو الالتزام بعينه، وبعدها ليختلف المختلفون ؟

نظرة إلى:

«مجلس الحكم»

من أجل ١٨ تموز أفضل

جوزف سماحة

«مجلس الحكم» العراقي امتداد للاحتلال الأميركي. شبيه بحكم ذاتي سيعود إلى بول بريمر المحتفظ بحق النقض. تركّب بطريقة تعكس اللحظة الراهنة من ارتباك واشنطن بعد فشل جاي غارنر واكتشاف خلفه عجزه عن تمرير مشروع الانفراد الكامل. لا يتمتع المجلس المذكور بصلاحيات سيادية وسينصرف إلى مساعدة «التحالف» على تحمّل الأعباء. لن تتوانى الإدارة الأميركية عن استخدامه في وجه الأسئلة المحرجة المرفوعة ضدها في الولايات المتحدة. وسيفيدها في تجنّب إحراجات مع هيئات دولية ودول تتردد في المشاركة لأنها عارضت الحرب. يضم المجلس في من يضم عملاء لواشنطن بالمعنى الحرفي للكلمة، وأصدقاء لعتاة أعداء العرب والموالين لإسرائيل. لا بل هناك من لا يخفي صلته بتل أبيب ويعتبر أن مخاصمتها من الأضرار التي ألحقتها العروبة بالعراق.

ويمكن أن نستطرد. ويمكن أن نطيل لائحة الاتهام. ويمكن أن نسخر من قوم جيء بهم إلى المواقع الأمامية في بلد عربي مركزي فاشتبكوا مع... الفضائيات. ويمكن أن نتوقف عند الاستقبال الشعبي الفاتر. ويمكن أن نستهجن القرار باعتبار يوم سقوط بغداد عيداً وطنياً. ويمكن...

غير أن ذلك كله يبقى ناقص المعنى من دون التوقف عند تحديات يرميها الحدث العراقي في وجه كل عربي يبحث عن سبيل لوقف التردي المتمادي.

أولاً لابد من القول، وأمس ١٧ تموز، إن عالمنا العربي لم يشهد أي تداول للسلطة إلا بالعنف والانقلاب. والمرة الأخيرة التي بدا فيها أن الانتخابات يمكنها أن تغيّر شيئاً (نحو الأسوأ أو نحو الأحسن) تدخل الجيش للمنع. كان ذلك في الجزائر. ما فعله الأميركيون في العراق هو تداول جذري للسلطة بواسطة قوة عسكرية أجنبية. وتدل تركيبة المجلس على أن البلد مقبل على توازنات لا عهد له بها في تاريخه لجهة مواقع الجماعات من السلطة. ربما نكون أمام سابقة لجهة إعطاء الأرجحية لأكثرية ضئيلة في بلد هي، في الواقع، أقلية دينية مؤكدة.

ثانياً إذا استعرضنا أحوال معظم الدول العربية فإننا سنعيش مثل صفعة الفكرة القائلة بأن «مجلس الحكم»، ضعيف الصلاحيات، قد يكون من أكثر «الحكومات» تمتعاً بتمثيلية شعبية. يضم تيارات دينية شيعية وسنية، ويجمع اليسار واليمين، ولا يستبعد الأعراق والإثنيات، ويجد صيغة

لحضور المرأة...

ثالثاً يعيد «المجلس» تذكيرنا بأننا، منذ الاستقلالات، لم نتطور كثيرا لنتحول إلى شعوب. ارتددنا، في الواقع، وأكثر ممّا كنا، إلى ما دون الوطنية. ولقد حصل ذلك سواء باعتماد «النموذج اللبناني» القائم على الاعتراف بالتعددية، أو باعتماد «نموذج انصهاري»، محافظ أو راديكالي، ينطلق من رفض مطلق لرؤية أي انقسام. انفجر النموذج الأول غير مرة وهو لا يعيش اليوم أحسن أيامه. واختزن النموذج الثاني عناصر الانفجار بحيث باتت بلدان عديدة تعيش حروباً أهلية باردة.

إن المطلوب إخضاع العراق لمراقبة دقيقة. فهناك يحصل انتقال شديد السرعة من مركزية سلطوية متعسفة ذات ركيزة شديدة الضيق إلى شكل فدرالي طوائفي وعرقي. إن سرعة الانتقال محفوفة بمخاطر عدم القدرة على إيقاف التذرر عند عتبة التقسيم الواقعي. لا بل إننا نشهد بدايات تُقسيم في التباينات شديدة الوضوح حيال الاحتلال واستطرادا حيال الحصص المحتملة في عراق الغد.

تدل تجارب السنوات الأخيرة، في العالم، على استحالة الانتقال من أنظمة «مضبوطة» إلى أنظمة فدرالية. انتهت تشيكوسلوفاكيا بدولتين. وتشظّت يوغسلافيا. واستقلت دول عن الاتحاد الروسي في انتظار مصير الأزمة الشيشانية. وحتى في دول ديموقراطية تشتد نزعة الانطواء (كندا، المكسيك، بلجيكا، إلخ...) لتقضم الدولة الوطنية «من تحت» في وقت تقضمها العولمة «من فوق».

رابعاً ثمة قوى تحارب الولايات المتحدة مثيلاتها في العالم كله ولكنها لا تتورّع عن المشاركة في مجلس حكم تقيمه الولايات المتحدة في بلد محتل. إنه حدث استثنائي أن «يعود» الشيوعيون إلى الواجهة في العراق اليوم. وليس بسيطا أن أحزابا رعتها إيران لا تمانع في أن تكون، ولو بصورة غير مباشرة، عونا لواشنطن على طهران. يسهل التشكيك بهذه الأطراف وإيجاد «مبرّرات» لاندفاع الأحزاب الكردية نحو أقصى التعاون مع قوات الاحتلال. ولكن، في الأحوال كلها، لا مهرب من التساؤل عن درجة السوء التي كان فيها الوضع السابق إلى حد جعل الموقف الحالي واردا. هناك من يشارك في «المجلس» بعد أن عارض الحرب. وهناك، ربما، من انتظر إشارة انفتاح من النظام السابق كان يمكن لها، لو حصلت، أن تعزز المقاومة. لم يحصل شيء من هذا القبيل. فضّل النظام الانفراد حتى في لحظة السقوط وربما يفضل مناصروه، الآن، ألا يشاركهم عراقي واحد شرف المقاومة.

هذه التحديات، وغيرها، لا يفيد التهرّب من مواجهتها. من دونها يصعب، أصلاً، وضع المقاومة العراقية في إطار صحيح والانتقال، بالتالي، من تمجيد البندقية إلى التبصّر في شروط توليد إجماعات عراقية، مدعومة عربياً، وذات منحى استقلالي.

لقد وجّه الرئيس صدام حسين كلمة بمناسبة ١٧ تموز. لا أثر فيها لنبرة شخص نادم على خطأ واحد ارتكبه في حين أن أكثرية عراقية ساحقة تقاتل فكرة أن يرسم لها ١٧ تموز ٦٨ مستقبلها بعد تجربة امتدت ٣٥ عاماً. إن تخيير العراقيين بين النظام السابق و«مجلس حكم» الاحتلال قد

يستدعي جوابا مرعبا.

يجب الاعتراف بأننا لم نحسن تداول السلطة ولا استخدامها. يجب الاعتراف بأن الإنجازات قليلة والكلفة باهظة. يجب الاعتراف بأن أنظمتنا لم تقترب من صيغ تمثيلية حقيقية. يجب الاعتراف بأن جهداً لم يبذل كفاية لتغليب المشترك الوطني الذي هو شرط للبحث في المشترك القومي. ومن دون هذه الاعترافات، وبالجذرية الكافية، لن يكون الدرب المنطلق من ١٨ تموز ٢٠٠٣ أفضل من الدرب الذي سلكناه في ١٨ تموز ١٩٦٨.

السفير اللبنانية، ١٨ يوليو ٢٠٠٣

الآن ثمة «خبر سعيد» من بغداد

صلاح النصراوي

مهما تكن الانتقادات او الملاحظات التي توجه الى مجلس الحكم الانتقالي الذي اعلن عن تشكيله في العراق فإن من المؤكد انه يبقى اسعد خبر سمعه العراقيون منذ سقوط نظام الطاغية صدام حسين في التاسع من شهر نيسان (ابريل) الماضي. هذا الاستنتاج لا علاقة له بوجهات نظر عاطفية او شخصية تجاه المجلس او اعضائه او شروط انبثاقه، وانما له علاقة بالحقيقة التي هي في اللحظة الراهنة من تاريخ العراق وضمن العملية السياسية الجارية لا تعريف لها سوى انها كل ما يتفق ومصلحة الشعب العراقي وضمان مستقبل بلاده.

ولنبدأ بالملاحظات اولاً. هناك جملة ملاحظات موجهة الى الطرف الاميركي باعتباره قوة احتلال تمتلك السلطة الفعلية في ادارة العراق المحتل، بشأن الطريقة التي تم بها تشكيل مجلس الحكم الانتقالي، اذ يصعب تصور عدم وجود أجندة أميركية هي التي بلورت ظروف اطلاق مجلس الحكم الانتقالي وصيغته وتشكيلته. الواضح ان الادارة الاميركية استغلت حالة الفراغ السياسي التي نشأت عن انهيار الدولة ومؤسساتها وغياب بديل جذاب اضافة الى الوضع النفسي السيئ وحالة اليأس التي نتجت عن الاوضاع المتردية التي رافقت الاسابيع الاولى من الاحتلال لكي تقدم للعراقيين هذا المجلس بصيغته وبتركيبته بعدما كانت امتنعت في البداية ثم ماطلت في تسليم السلطة او حتى القبول بمشاركة اطراف عراقية حليفة فيها مفضلة الانفراد بذلك من خلال الادارة المباشرة للاحتلال والاستعانة بعراقيين كمستشارين. وما يزيد من الشكوك في النيات الأميركية هو غياب أي وثيقة تفصح عن علاقات تعاقدية بين قوة الاحتلال والمجلس ـــ الذي يعمل كـــ«ممثل للبلد الموجود تحت الاحتلال» ـــ تحدد واجبات ومسؤوليات كل طرف وفقاً للقانون الدولي وللمصالح العليا للشعب العراقي، أو تضع جدولاً زمنياً لإنهاء الاحتلال واستعادة السيادة العراقية كاملة. طريقة اختيار المجلس من دون المرور بأي شكل من اشكال الانتخاب

او الاختيار العام اضافة الى غياب رؤية أميركية معلنة يلقي ظلالاً من الشك على الاهداف الأميركية سواء ما يتعلق بالنموذج الديموقراطي المنشود او بدرجة الاستقلالية المطلوبة لعراق المستقبل.

الملاحظات المتعلقة بالطرف أو الاطراف العراقية كثيرة بدورها، عبّرت عنها قوى عراقية مختلفة وتمثل نقاط نقد جديرة بالاشارة. في المقدمة هناك تأكيد من جانب الاطراف والشخصيات التي تشكل منهم المجلس وهم عبروا عنه فور الاعلان عن المجلس، بأنهم يمثلون كل مكونات الطيف العراقي الاثني والديني والمذهبي والسياسي، وهذا تأكيد تراه يمنحها الشرعية والصلاحية اللازمتين لممارسة دورها. غير ان الواقع، في هذه الحال، ليس سوى واقع افتراضي. فمثل هذا الادعاء يحتاج الى أدلة يصعب توفرها من غير احتكام الى صناديق الاقتراع.

الأمر الآخر هو صعوبة الاعتماد، عملياً، وفي هذه المرحلة تحديداً، على صيغة لتوزيع الحصص على اساس الانقسام الافقي والعمودي بين عناصر المجتمع العراقي ومكوناته، من جهة، وتركيبته السياسية المتداخلة، من جهة ثانية، على رغم ان اي تجربة للحكم في العراق المستقبلي تحتم ضرورة تحقيق العدالة في التمثيل النسبي. ان ما يؤكد تجريدية صورة مجلس الحكم هو تمثيل رجال دين ورجال اعمال ليبراليين وبعثيين سابقين الى جانب سكرتير عام للحزب الشيوعي للشيعة، بينما يجمع التمثيل السني بين ممثلين للعشائر واسلاميين وليبراليين، وهو الامر الذي يثير تساؤلات حول وحدة القياس في النشاط السياسي الذي يزمع المجلس القيام به في ظل هذه التشكيلة المتشابكة والمتداخلة اجتماعياً وسياسياً. هناك ملاحظة اخرى، أو تساؤل يتعلق بالرؤية أو المنظور السياسي والفكري المشترك الذي يجمع بين الاطراف المكونة للمجلس بشأن المشكلات والقضايا التي يواجهها الواقع العراقي السياسي والاجتماعي والثقافي المعقد والمتشابك وهل أنها متفقة على برنامج حد ادنى لمعالجة المخلفات التي أورثها النظام البائد وهل يجمعها اتفاق معين حول وسائل التغيير السياسي وآلياته؟ هذه المجموعة من التنظيمات والشخصيات، على رغم اتفاق بعضها على مواقف مشتركة عبرت عنها في مؤتمر لندن للمعارضة السابقة، إلا أنها بالتأكيد ليست حركة تحرر وطني او حتى ائتلاف مؤطر بميثاق او برنامج موحد، ما يثير تساؤلات حول قدرتها ودرجة استعدادها للوصول الى حلول وسط وتقديم تنازلات واستنباط رؤى مشتركة لمواجهة تحديات المرحلة الحالية واستحقاقات المرحلة اللاحقة خصوصاً أنها تنطوي على خلافات وتناقضات عديدة بعضها قابل للحل عبر التسويات وبعضها الآخر قد يكون سبباً لاندلاع الصراعات.

ملاحظة اخرى، هي ان هناك طابعاً شديد الرمزية في اختيار الفصائل والشخصيات التي شكّل منها المجلس بخاصة تلك التي خاضت من الخارج بمستويات مختلفة نضالاً مثابراً لاسقاط النظام الصدامي إلا أن الحقيقة التي يجب ان تظل سائدة هي ان اسقاط ذلك النظام كان مهمة تاريخية لم تكن لتنجز من دون اضطلاع فئات الشعب العراقي كافة في الداخل والخارج بها، ما يعني ان الفرصة الاكبر يجب ان تمنح لاسباب عملية واخلاقية لاولئك الرجال والنساء الذين قارعوا نظام صدام فعلاً وبإمكانهم الآن ان يقدموا طاقاتهم وتجاربهم لمهمة انجاز التغيير والعبور. اعلان المجلس بهذه التشكيلة لهُ خصوصية وظروف المرحلة الانتقالية لكن ينبغي ان لا تؤسس منذ الآن

قواعد قسرية لاقتسام الحكم او الثروة او الامتيازات، قائمة على رصيد رمزي او قواعد او سلوكيات تغمط حق الآخرين خصوصا وفي المقام الاول الدور الذي يجب ان تلعبه الفئات الطليعية في المجتمع ذات القدرة على الابداع والابتكار والنخب الثقافية والفكرية التي ستحمل على عاتقها عبء المهمة التاريخية لاعادة البناء المادي والنفسي للعراق والعراقيين.

هذه الملاحظات لن تقلل من حقيقة ان الاعلان عن تشكيل مجلس الحكم كان فعلاً خبراً ساراً لجميع العراقيين ولكل القوى التي تحب لهم الخير ولكل المتطلعين في هذا العالم لنجاح التجربة العراقية، وسيكون حدثا تاريخيا عندما يستطيع المجلس انجاز مهماته الاساسية وعلى رأسها استعادة استقلال وسيادة العراق بأسرع وقت ممكن. ان اهمية الاعلان عن تشكيل مجلس الحكم نابع من الادراك المبكر للعراقيين للمخاطر والشرور التي بدأت تحيق ببلادهم وبمستقبلهم من جراء انعكاسات الحرب وواقع الاحتلال والمشاكل الجمة التي انشأها خصوصاً الفراغ السياسي الذي خلفه.

هذا الفراغ خلق الفرصة لبقايا وشراذم النظام البائد لكي يستخدموا اساليب العنف والتدمير التي تمرّسوا عليها للخروج من حال النزع الاخير التي ادخلتهم هزيمتهم فيها، كما خلق الارضية المناسبة لاولئك الذين يكرهون ثقافة التفاوض ولم يألفوها بعد لكي يلجأوا الى الارهاب لتحقيق غايات غير مشروعة ويملوا مطالبهم على الآخرين. هناك ايضاً فئات متضررة من التغيير الذي حصل واطاح امتيازاتها غير المشروعة، لذا فهي تستفيد من هذا الفراغ في تأجيج العلل والمشاكل او تضخيمها اضافة الى بث الاحابيل والاكاذيب بهدف افشال مشروع التحول والبناء واستعادة مكاسبها او للعبث والابتزاز. الفراغ خلق ايضاً حالة من اليأس بسبب المصاعب التي ولدها عدم القدرة على مواجهة مشاكل الفوضى وانفلات الامن وانعدام الخدمات الاساسية والانهيار شبه التام للنشاط الاقتصادي الضروري لإدامة الحياة.

الآن يمكن القول إن ثمة أملاً، مهما كان رفيعاً، بأن يكون الاعلان عن تشكيل المجلس بداية لنهاية الفوضى وانعدام الامن وللمعاناة الانسانية ولحالة الاحباط التي رافقت الاسابيع التي تلت الحرب والتي رسمت صورة كالحة لامكان ان يقدر العراقيون على انجاز التغيير المنشود كما هي ايضاً بداية للشروع في بناء التجربة العراقية التي طال انتظارها للقطيعة مع ماضي النظام الصدامي البغيض بكل ما يمثله من ظلم وظلام وخراب مادي وروحي. هي خطوة اولى ربما، متواضعة وملتبسة ومحفوفة بالشكوك مثلما هي محفوفة بالمخاطر والصعاب، لكنها غنية بالفرص وبالآفاق التي يمكن ان تفتح السبل امامها في المستقبل.

إن اللحظة التي يمر بها العراق هي لحظة تاريخية بكل المقاييس تتطلب وعياً تاريخياً وادراكاً واقعياً للحاضر بروح المسؤولية الوطنية اضافة الى احساس عال بمتطلبات المستقبل ومهماته. لكننا كعراقيين يجب ان ندرك ايضاً أن ليس بالأمل والتفاؤل وحدهما يمكن ان نبني بلادنا التي دمرها الطغيان والاستبداد الذي مارسته عصابة منحطة ارتكبت بحقنا وبحق اجيال مقبلة من العراقيين ابشع الجرائم. بل لا بد من البدء سريعاً بعمل خارق يرتقي الى نبل تضحياتنا وتطلعاتنا، عمل يعيد الثقة الى انفسنا ويعيدنا الى دورنا الحقيقي كأحفاد لبناة اولى الحضارات الانسانية التي قدمت للبشرية اروع انتاجاتها المادية والفكرية. بالمعنى العملي هذا يتطلب الاسراع بإتمام مهمات

المرحلة الانتقالية ووضع لبنات المرحلة الدائمة من دستور وقوانين وانظمة ديموقراطية تتجاوب مع تطلعات الاغلبية التي ستقرها في استفتاء عام كما يتطلب انجاز المهمات العاجلة والمباشرة من استتباب الامن وتوفير الخدمات الضرورية واعادة تشغيل عجلة الاقتصاد. هذا يضع على اعضاء مجلس الحكم الانتقالي امام مهمات جسيمة لكن عليهم ان يعوا أن ليست هناك شيكات على بياض تقدم اليهم، وان الهم الوطني والاحساس بالواجب هو الدافع لتقديم الدعم والعون لهم وان مسؤوليتهم هي العمل لتلبية تلك المطالب الوطنية.

كما يضع على كل الفئات الاجتماعية والقوى السياسية والنخب الفكرية والثقافية امام واجب ومسؤولية أن تنحّي جانبا انانيتها ورؤيتها الضيقة الى مصالحها وخلافاتها، وان تضع أيديها بأيدي بعضها بعضا للشروع منذ الآن بمبادرة نهوض وطنية شاملة. انه قدر العراقيين والسؤال الذي يواجههم منذ الآن هو ان يكونوا أو لا يكونوا ابداً. بل انه قدرهم في ان يقدموا للمنطقة التي هم قلب نطاقها الجغرافي والسياسي والتي يسودها العجز والشلل والمهددة بالانهيار نموذجا انسانيا فريداً قدمته من قبل وعلى مر اكثر من سبعة آلاف سنة سومر وأكاد وبابل والكوفة وبغداد. هذه الحقيقة تضع على نخب المنطقة العربية ايضاً واجب الدفاع عن التجربة العراقية الوليدة ودفعها حتى لو حفلت بالاخطاء والعثرات لأن في نجاحها سيكون لهم ما يمنون به انفسهم ويتطلعون اليه ويطالبون به انظمتهم. أما الفشل، لا سمح الله، فإنه لا يعني غير عزف سيمفونية الوداع لكل الآمال والتطلعات والبقاء في مستنقع الشمولية والتخلف والبؤس والخضوع.

الحياة ٢٠٠٣/٧/٢٥

العراق: «مجلس الحكم» بالاحتلال.. أو على الاحتلال؟

طلال سلمان

دار الفلك بالعراق وأهله دورات عنيفة ما بين ١٤ تموز ١٩٥٨ و١٣ تموز ٢٠٠٣، زلزلت كيانه السياسي ودمرت أو هي كادت تدمر وحدة شعبه الذي نصفه شهداء ونصفه شعراء ومجموعه يتمزق بين الرقة حتى الموت بكاء والقسوة حتى إدمان التفجع على الخطيئة الأصلية!

قبل خمس وأربعين سنة تماماً، أسقط الجيش، بانقلاب اعتبر سابقة بدمويته، الحكم الملكي الذي كان متهماً في وطنيته، وها هو الحاكم باسم الاحتلال الأميركي يقيم اليوم «مجلس حكم انتقالي» يضم مجاميع من ضحايا العهود المتعاقبة التي أخذتها المغامرات العسكرية والنزعة إلى التفرد بالسلطة إلى كوارث متلاحقة، وذهبت بثروات «أرض السواد» الهائلة فأفقرت شعبها وجعلته يخضع مرة أخرى لاحتلال جديد، وهذه المرة من أسف بلا مقاومة.

ذهب «العيد» الذي جاء مع «سحل» الملكية ورموز التبعية للأجنبي وإعلان «جمهورية الحرية والتقدم والعدالة» التي سرعان ما أكلها «أبناؤها»، شرعيين وغير شرعيين، مما أخلى المساحة أمام الاحتلال الجديد ليقيم «مجلس الحكم الانتقالي» من ضحايا العهود جميعاً، لا سيما الأخير منها والفريد من نوعه والذي أفرغ أرض الرافدين من أهل الفكر والرأي وأصحاب التاريخ النضالي الطويل، كما أفرغها من المستعدين للدفاع عنها وحمايتها وبناء نهضتها، فإذا بها تسقط بغير قتال، وإذا هي لا تقدر على رفض «الأميركي» الذي جاءها بلبوس «المحرر»، بينما اكتفى البريطاني بمكانه في مؤخرة الصورة،... أما الأمم المتحدة فتحاول تجاوز دورها كشاهد صامت إلى «مستشار» يفترض أن دوره سيصبح أكثر جدية كلما واجه الاحتلال المزيد من المصاعب في سعيه لتوطيد سيطرته.

في ظروف عادية كان يمكن اعتبار العديد من أعضاء «مجلس الحكم الانتقالي» «ممثلين شرعيين» للعراقيين بمجموعهم ومن دون التوغل في انتماءاتهم العرقية أو الطائفية أو المذهبية. حتى مع التدقيق في هوياتهم السياسية فثمة من يجيء من تجربة حزبية طويلة، سواء في قلب الحركة الوطنية التقليدية الديموقراطية على النموذج البريطاني، أو في الحركات الدينية التي صارت أحزاباً وبعضها امتشق السلاح لنشر دعوته، أو في الحركات اليسارية، الشيوعية تحديداً، والتي وصلت في بعض حالاتها إلى القول بالكفاح المسلح...

لكن الظروف غير عادية بالمطلق، والمتحدر من ديموقراطية العهد الملكي ليس كمثل المتحدر من بعثية عتيقة جبّتها طبعات جديدة من «البعثية» آخرها لا تعترف بأن صدام حسين له من قبله أو له من بعده، فضلاً عن أن لا شبيه له ولا مثيل، متجاوزة بذلك أحد الشعارات التي أودت ببطل ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ «ماكو زعيم إلا كريم»!

كذلك فإن المتحدرين من صلب «الإسلام السياسي» كثرة، وهم يختلفون في ما بينهم أكثر من اختلافهم مجتمعين مع «العلمانيين».

ثم إن كثيراً من أعضاء هذا «المجلس» يعودون من البعيد البعيد: البعض من البنتاغون، والبعض من لندن ذات الأثر الذي يصعب محوه عن وجه العراق السياسي، والبعض من إيران الدولة التي أنجبتها الثورة الإسلامية لكن لها الآن أجهزتها ومصالحها، والبعض الأخير من أحضان العشائر التي أعاد صدام حسين إلى بعضها من الاعتبار ما جعلها عشائر حاكمة، وأغدق على بعض آخر منها ما جعلها عشائر غانمة، والتي جاء الاحتلال الآن ليعتمد على آخر «إنجازات» صدام حسين في هذا المجال.

من حول طاولة «الحكم بالوكالة» عن الحاكم بالاحتلال: أُعيد العراق إلى مكوّناته الأولية: أدياناً وأعراقاً وطوائف ومذاهب وعشائر. أجلس العراق مشطّراً.. كل شطر إلى جانب الشطر الآخر. لم تكوّن الأشطار وحدة. لم تكوّن العراق... ولكنها قدمت صورة تشبه العراق. كان الكل عراقيين (وعراقيات). لكنهم لم يكونوا وحدة، هم لم يكونوا كلهم من الماضي، لكن من الصعب تخيّلهم صورة للمستقبل.

كان شبح المحتل الأميركي، ولو بلباس مدني، بين كل عراقي والآخر. وكان ظله يفيض عن

القاعة التي اجتمعوا فيها، ويمتد إلى الجامعة العربية التي لم يعرف أمينها العام (المعاقب على تزايد اجتهاداته) هل يعلن قبول هذا المجلس الجديد ممثلاً للعراق فيرفضه أصحاب الشأن، أم يرفضه فيتلقى «تأنيب» الدول التي كانت تتعجل ولادته لترتاح من «غضب» شعوبها عليها لتسليمها بالاحتلال «كضرورة» بل وترحيبها به باعتباره طوق النجاة الأخير لشعب العراق من طاغيته الدموي؟!

أبأس ما في هذا الوضع أن الدول العربية، بعمومها، لا تستطيع رفضه، لأنها لا تملك أن تحدد بديلاً منه، ثم إنها لا تستطيع التسليم بشرعيته المستمدة من «الاحتلال» الذي وإن كان قد حظي بختم الشرعية الدولية ممثلة بمجلس الأمن، إلا أنه كان بمثابة «العرض الذي لا يمكن رفضه».. مع إدراك صعوبة قبوله!

في ظروف عادية كان يمكن أن يكون الكثير ممن اختارهم الاحتلال أعضاء في «مجلس الحكم الانتقالي» وزراء طبيعيين، بل وربما كان بإمكان بعضهم أن يتطلع إلى أعلى من الوزارة.

لكن الظروف غير طبيعية، وكذلك مهمة هؤلاء الذين حشدوا في هذا المجلس، والذين قد يتحولون إلى مجرد «واجهة» تموّه الاحتلال وتبرّره وتشرعن وجوده، بل وقد تمد في عمر المرحلة الانتقالية، أو قد تدمغ وطنية العديد منهم ووعيهم خطورة المهمة التي انتدبوا لانجازها، والتي يحتاج الاحتلال الى تبنيها حتى لا يستفز وطنية العراقيين بعد ان يفيقوا من ليل صدام حسين الطويل فتكون عندها المقاومة الوطنية فعلا، والتي يملك شعب العراق فيها سجلا حافلا يعرفه «البريطانيون» كل المعرفة.

ان «مجلس الحكم الانتقالي» امام امتحان جدي ليس لكفاءته فحسب بل لوطنيته اساساً، فإن هو نجح في ممارسة سلطات تنفيذيه حقيقية، سواء بتعيين الوزراء او البعثات الدبلوماسية الجديدة، او بتقرير الموازنة الخ فلسوف يغض العراقيون نظرهم عن «التعاون مع الاحتلال» مفترضين ان نجاحه انما يقصّر في عمر فترة الاحتلال.

لن يمنح احد هذا المجلس ثقة غير مشروطة، ولن يرحب به الا من رحب بالاحتلال معتبراً ان اي بديل سيكون اقل سوءاً من حكم صدام حسين.

ان هذا المجلس لن يكتسب شرعيته الا بنجاحه في تقصير امد الاحتلال، وفي فرض رقابة عراقية على طريقة تصرف الاحتلال بثروات العراق الوطنية، وفي توفير الامن والغذاء وسائر الخدمات الاساسية للشعب العراقي. المهم ان يصدّق اعضاؤه انهم في موقع «مجلس الحكم» وأنهم اصحاب الرأي الاول في القرار بكيف يساس شعبهم، وإن هم لم يصدقوا ان لهم الصفة التمثيلية التي تجعل الاحتلال بحاجة الى تغطيتهم وإنهم ان سحبوها كشفوه فسرّعوا في اخراجه، فإنهم بذلك يتحولون الى مجرد واجهة لتمويه الاحتلال وتزيين «منجزاته» بالمقارنة الدائمة مع ما كان عليه الوضع في الظل الاسود لصدام حسين.

تبقى بعض المفارقات التي لا بد من تسجيلها:

الاولى ان هذا المجلس قد التأم عقده في مقر وزارة التصنيع الحربي، قرب القصر

الجمهوري... وهذا المقر هو، بحسب الاميركيين، المركز الاستراتيجي لانتاج اسلحة الدمار الشامل، وهي الذريعة التي استخدمت لتبرير الحرب على العراق، ثم لتشريع احتلاله... وهي هي كرة النار التي يتقاذفها الآن الاميركيون والبريطانيون بعدما ثبت ان المخابرات المركزية الاميركية قد «مررت» كذبة طوني بلير على جورج بوش، بالتعاون مع عصابة البنتاغون وسائر «المحافظين الجدد» من «المسيحيين الصهاينة» في الادارة الاميركية.

الثانية ان اسرع المرحبين بهذا الانجاز الاميركي كانت الخارجية الفرنسية التي تبدى وزيرها الشاعر في مجلس الامن وكأنه محامي الشعوب المقهورة والمدافع الفذ عن الشرعية الدولية.

ثالثة هذه المفارقات ان بعض اعضاء هذا المجلس قد «احرقوا» اطلالته الاولى عندما اصر «الناطق باسم الاحتلال» والعائد بدباباته على شكر بوش والكونغرس والشعب الاميركي وبريمر، وعلى توصيف قوات الاحتلال بأنها «قوات تحرير».

رابعة هذه المفارقات ان ممثل الامم المتحدة الذي شهد ولادة المجلس حاول ان ينسب هذه المؤسسة الوليدة الى القرار ١٤٨٣، ولكنه تحفظ اذ اعتبر ان العراق «يجد نفسه اليوم في موقع فريد من نوعه وصعب وأمام مآس عديدة ومن دون ان يتمتع حالياً بكامل سيادته».

خامسة هذه المفارقات وأبشعها ان يبدأ هذا المجلس «عهده» الميمون باعتبار يوم التاسع من نيسان، اي يوم احتلال بغداد وإعلان سقوط صدام حسين ونهاية عهده، «عيداً وطنياً» كأنه لم يكن للعراق قبله عيد وطني، وكأن تاريخ العراق الحديث انما يبدأ مع الاحتلال... الاميركي.

هل ان عراقا جديدا يولد فعلا؟

من الصعب ان ننسب هذا المجلس الى الوطنية العراقية بالمطلق، ولكن من الضروري التعامل معه كبعض نتائج الاحتلال، وعليه ان يستخرج بعمله شهادة بوطنيته... فهو، وبغض النظر عن التفاصيل والتحفظات، من نُسب اليه شرف تمثيل شعب العراق المحتل؛ ومعيار وطنيته كم يعجّل في انهاء هذا الاحتلال، وإلا كان صاحب فضل في التعجيل في ولادة المقاومة الشعبية الحتمية للاحتلال ولواجهاته المحلية.

السفير اللبنانية ١٤ يوليو ٢٠٠٣

تأمل في الأسئلة والإجابات العراقية

عبد الحسن الأمين

العرب ما يزالون بالنسبة إلى العراق عربين: عرباً رحبوا بمجلس الحكم ونددوا بما تتعرض

له قوات الاحتلال من هجمات، وعرباً نددوا بمجلس الحكم ورحبوا بتلك الهجمات. والغريب أن المرحبين بمجلس الحكم رأوا فيه خطوة في الاتجاه الصحيح لانهاء الاحتلال. وأن بعض المنددين يرون فيه الوسيلة لانجاز المهمة نفسها: اخراج القوات الأميركية.

فهل نحن أمام حالة انقسام على الوسيلة واتفاق على الهدف؟

هنا نحصل على جوابين: الأول يقول ان الخلاف اعمق من ذلك وأن من قبلوا بالمجلس مذعنون لارادة المحتل ولا يمثلون ارادة الشعب العراقي، وأن الهجمات العسكرية هي التي تعلي من شأن هذه الارادة. والثاني أن من قبلوا عضوية المجلس أو أيدوه هم الذين يمثلون ما يريده الشعب في هذه المرحلة. وأن اعادة بناء مؤسسات الدولة العراقية أقرب الطرق لمطالبة القوات الأميركية بالخروج من العراق، وأن الفعل «المقاوم» واحد من طرفين: أ- بقايا النظام من الذين يريدون فرض أنفسهم على المحتل في مشاريعه لبناء النظام الجديد، كي يتفاوض معهم ويعيد إليهم أهلية تمثيل ما تطال، على الأقل، مناطق عراقية بعينها. ب- منظمات ترفع لواء اطلاق النار على الأميركيين حيث وجدوا، داخل العراق وخارجه. وقد لقيت فرصتها في الفراغ الحاصل بعد انهيار النظام.

ويضيف أصحاب الجواب الثاني: مثل هذه الأعمال قد تؤدي الى عكس ما هو مطلوب: اطالة امد الاحتلال من جهة، وفتح ابواب الصراع العراقي ـ العراقي التي أمكن حتى الآن اقفالها.

وفي الجوابين يتمحور الخلاف حول أهلية تمثيل الشعب العراقي. وهنا نحن أمام جوابين جديدين:

الأول، أن المقاومة تبدأ بها القلة وتتسع لتشمل الكثرة. وهذا يتحصل في موازاة تحقيقها الانجازات ونجاحها في اثبات نفسها في الميدان. وبالتالي، ليس مهماً أن نكون ذات لون طائفي محدد اذ من الطبيعي ان تنمو بدايةً في بيئة تشدها أواصر ووشائج تمنع اختراقها. وأصحاب هذا الجواب يستشهدون بالمقاومة في جنوب لبنان والمراحل التي مرت بها والبيئات التي رعتها. والواضح ان الخطاب المقاوم ما انفك يتمثل بتجربة لبنان، سواء في الطريقة التي اخرجت فيها القوات الاميركية عام ١٩٨٣، او بكيفية فرض الانسحاب على القوات الاسرائيلية في العام ٢٠٠٠.

أما الجواب الثاني فيؤكد ان العمليات التي ادت الى اخراج الاسرائيليين والاميركيين من لبنان كانت في مرحلة مختلفة دوليا ومحليا واسلاميا. وأن الدعم الخارجي الذي حظيت به تلك المقاومة في لبنان لا يمكن ان يحصل مثله للمقاومة في العراق، ليس فقط تبعاً للتغيرات الكبرى التي حصلت دوليا بين المرحلتين، بل لأن الأولوية مختلفة عند الشعب العراقي نفسه: فالعراقيون، رغم انهم لم يستقبلوا بالورود القوات الاميركية، يدركون ان خلاصهم من أسر النظام السابق وممارساته الفائقة في قسوتها، ما كان ليتم بوسيلة أخرى غير التدخل الخارجي.

ثم ان القوى التي تشكل منها مجلس الحكم العراقي لها تاريخها السياسي الطويل، وهي معروفة في دول الجوار والخارج، وبعض رموزها كان يُستقبل على مستوى القيادات العليا في

تلك الدول: فهناك القيادات التاريخية للوسطين الكردي والشيعي، كما هناك تمثيل لتيارات تاريخية فكرية لعبت دورها في العراق والمنطقة: من التيار الشيوعي الى الاسلامي والوطني والقومي، عدا الوجوه الليبرالية والمعتدلة كالباجهجي وبحر العلوم. ومثل هذه القوى غير مشكوك في سعيها لانهاء الاحتلال من دون إنكار انه حقق الفقرة الأهم في برنامجها ألا وهو: الخلاص من النظام، وهو يعدها بالمساعدة في انجاز الوجه الثاني للبرنامج، أي اقامة نظام تعددي في العراق يقوم على آلية الاقتراع الحر والمساواة بين ابناء المناطق والمذاهب والطوائف والاعراق. وهذه القوى على قناعة بان البرنامج في وجهيه ليس صدقة اميركية على الشعب العراقي، إذ النجاح في تحقيقه هو السبيل الوحيد لمصداقية الادارة الاميركية امام الرأي العام عندها، كما انه السبيل الاقصر لحفظ مصالح واشنطن في المنطقة دون اضطرارها الدائم إلى تجييش وبناء القواعد، وهو ما حصل مرتين خلال عقد ونيف.

إذاً، عراقياً، من المفترض ان هناك اتفاقاً على الهدف: انهاء الاحتلال وبناء النظام التعددي. وان الخلاف على الوسيلة لا يمنع من اتاحة الفرصة لأدوات العمل السلمي. لأن المجتمع القادر أن يخوض موحداً كفاح المقاومة المسلحة سيكون اقدر على خوض المعركة السلمية.

وهنا تبرز مجموعة من الخلافات اهمها: ان دعم مجلس الحكم عربياً ودولياً سيعطيه قدرة أكبر على المناورة في حواره مع الأميركيين، ويوسع هامش استقلاله كلما عمّق وحدته الداخلية وتوطدت علاقاته الخارجية. ثم ان الاعمال المسلحة تتم خارج أي برنامج سياسي لاعادة بناء العراق، وقد تطيل أمد الاحتلال فيما تبدو أقرب إلى الأعمال الفردية أو الصادرة عن مجموعات صغيرة يسهل عزلها من داخل البيئات التي تحتضنها. بيد ان ذلك لا يعني نجاعة الحل الأمني في التصدي لظاهرة العمليات، إذ لا بد من حل عراقي ــ عراقي يقوم على تعزيز الحوار بين حساسيات البلد المختلفة، خصوصا تلك التي تُحسب، صوابا او خطأ، على انها قريبة من النظام السابق.

إنها بعض أسئلة العراق اليوم، وبعض إجاباته.

الحياة ٢٠/٠٧/٢٠٠٣

إقامة «مجلس شورى المقيم العام» بالعراق إتيان للبيوت من ظهورها

عبد الهادي بوطالب

يردد الكثيرون مقولة «لا اسهل من الهدم ولا اصعب من البناء» ويُحكّمونها كقاعدة مطردة

في كل سياق. ولعل تقويض نظام صدام حسين من لدن قوات الاحتلال بالسهولة التي تم بها، وما يعترض الحكم الاميريكي المباشر للعراق من صعوبات ومشاكل وتعقيدات ومقاومة مسلحة يؤكدان صدق هذه القاعدة بشقيها.

بداية يجب ان نعترف بأن حكم شعب العراق سواء من لدن ابنائه او غُزاته لم يكن قط ـــ طوال التاريخ ـــ سهلا ميسورا حتى ليمكن القول ان العراق يُعد من بين الشعوب التي لا تسلس قيادها بسهولة لحاكمها سواء كان وطنيا او اجنبيا. وقد ادى شعب العراق الثمن غاليا للخضوع بالاكراه والقوة والطغيان لحاكم العزاق السابق الذي اطاحت قوات التحالف به يوم تاسع ابريل /نيسان المنصرم بعد حرب لم تزد على ثلاثة اسابيع ولم تقاتل فيها قوات العراق، وتحقق هذا الانجاز الضخم على هذه الوتيرة المتسارعة لان شعب العراق كان يرفض النظام البعثي المفروض عليه.

انخدع البيت الابيض بهذا الانتصار السريع الساحق وتم الاعلان عنه امام العالم في مشهد احتفالي لم يتقدم له مثيل، حيث جاء الرئيس «بوش» بوصفه القائد الاعلى للقوات المسلحة المنتصرة ممتطيا متن حاملة الطائرات الكبرى ومرتديا لباس القيادة العسكرية ليعلن في فاتح مايو/ايار المنصرم نهاية حرب العراق والانتصار الشامل امام عدسات الفضائيات العالمية.

لكن الرئيس الاميريكي في يوم الخميس عاشر يوليوز/تموز الجاري كان مضطرا الى التصريح بقوله: «اننا نعاني بالعراق مشكلة امن بكل تأكيد». واعقب هذا التصريح اعتراف اخر صدر عن وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» جاء فيه: «ان الجيش الاميريكي بالعراق يواجه بعض الصعوبات من خلال الهجمات التي يتعرض لها كل يوم» وهو يشير بذلك الى ارتفاع عدد الضحايا الاميريكيين من قتلى وجرحى يقال انهم يعدون بالعشرات. وامام لجنة مجلس الشيوخ التي ساءلته يوم ١٠ يوليوز/تموز الجاري اضاف الوزير ان التكاليف المالية التي تحملتها وزارته بعد نهاية حرب العراق كان غلافها المالي اكبر مما كان يتوقع، اذ تجاوزت التكاليف ٣ مليارات دولار كل شهر.

ويعيب اعضاء مجلس الشيوخ الديمقراطيون على الرئيس «بوش» ان الحرب التي اعلنها على العراق بتسرع (وبعضهم يقول بدون موجب) كلفت اميريكا اكثر مما يجب، مما شكل عبئا ماليا مبالغا فيه وضاعف حجم عجز الميزانية الذي بلغ ٤٥٥ مليار دولار هذه السنة، وهو ما لم يبلغه حجم العجز المالي قط في تاريخ الولايات المتحدة. وللتذكير فان الميزانية الاميريكية تتحمل كل شهر خمسة مليارات دولار تصرف على العمليات العسكرية بكل من افغانستان والعراق. كما يذكر ان وزارة الدفاع الاميريكي تقدمت الى الكونغريس بطلب الموافقة على غلاف مالي قدره ٣٦٩ مليار دولار لتغطية نفقاتها العسكرية خلال السنة الجبائية المقبلة. وهكذا يرتفع حجم المبالغ المالية المرصودة سنة بعد اخرى وحجم العجز المالي تبعا لذلك.

اما الجنرال «جون ابي زيد» القائد الجديد للقوات الوسطى (اللبناني الاصل) فقد اعترف بدوره ان الجيش الاميريكي يواجه بالعراق حرب عصابات منظمة ورد على وزيره في الدفاع (رامسفيلد) الذي سبق له ان نفى ذلك.

وقد اصبحت ازمة الولايات المتحدة في العراق حديث الساعة الذي يتردد ذكره على الالسنة والاقلام، وتختلف اسماؤه واوصافه من تسميته بالازمة، والمأزق الى تسميته بالمستنقع العراقي، او وكر الزنابير، بل يُبعد البعض النجعة في المقارنة ليسميه فيتنام الاخر او الجديد.

واذا اختلفت الاسماء فان الاتفاق منعقد على ان الازمة ستطول، وانه لا يمكن التنبؤ بمفاجآتها، وعلى ذلك جاء في بعض تصريحات كبار البيت الابيض ان الوجود الاميريكي المسلح بالعراق قد يستمر اكثر من عشر سنوات. وقيل عنه انه قد يمتد ربع قرن.

وقال الجنرال «جون ابي زيد» ايضا ان افراد الجيش الاميريكي البالغ عددهم اليوم ١٤٠,٠٠٠ لن يُسرَّحوا ويعودوا الى الولايات المتحدة، وانما سيعود بعضهم بداية من شهر ايلول ويعوضهم نفس العدد. وهكذا يستمر الحضور الاميريكي المسلح بالعراق بنفس الكثافة، ولكن بالتناوب، لان الاوضاع القائمة بالعراق ـ يقول الجنرال ـ لا تسمح بالتخفيض من حجم الجيش.

وتعززت اخطاء سوء التقدير بتأسيس «بول بريمر» «مجلس الحكم الانتقالي» المؤلف من ٢٥ عضوا اختارهم بانتقائية خاطئة بدلا من اعتماد معايير موضوعية للاختيار.

ويعاب على المجلس اولا انه ليست له سلطة تقريرية، وان الحاكم المدني الاميريكي هو صاحب القرار الذي يستشير اعضاء المجلس فيما يشاء ومتى يشاء ودون ان يتقيد بمشورتهم ورأيهم.

انه مجلس يضاهي المجالس الاهلية التي كانت تقام من لدن سلطات الامبراطوريات الاستعمارية الاوروبية ويشكلها المندوب السامي الاجنبي او المقيم العام الغريب. وقد كان لنا في المغرب ـ ولي شخصيا ـ ذكريات مع هذا النوع من المجالس التي اقامها بعاصمة المغرب (الرباط) مقيمون عامون اشتهر من بينهم الجنرال «جوان» و«كيوم». وكنا ـ نحن الوطنيين المقاومين للاستعمار الفرنسي ـ نندد بها ونسخر منها ونطلق عليها على صفحات جريدة الرأي العام اسم «مجلس شورى المقيم العام».

لقد قام التركيب الفسيفسائي للمجلس المقام ببغداد على معايير تجزئة العراق الى طوائف دينية وعرقية وقبلية، وتمثلت فيه بعض الاحزاب دون البعض، واعطي فيه للتمثيل الشعبي نصيب الاسد: ١٤ مقعدا من بين ٢٥، وناب اهل السنة فيه خمسة مقاعد فقط، واعطي الاكراد خمسة مقاعد، والمسيحيون ثلاثة، والتركمان مقعدا واحدا. وقيل في تبرير ذلك ان الشيعة بالعراق يمثلون ٦٠ في المائة، وان السنة اعطيت اكثر مما تستحقه لكن روعي في «الوزيعة» اعتبارها التاريخي، وان ما اعطي للمسيحيين يتناسب ونسبة ٣ في المائة من السكان التي يؤلفونها، وان التركمان يمثلون واحدا في المائة، لذلك اعطي لهم مقعد واحد. ولم يقل الحاكم المدني الاميريكي على اي احصاء رسمي قد اعتمد في اختياره.

ان اقامة مجلس شورى المقيم العام اتيان للبيوت من ظهورها. وما اقيم على فاسد فهو فاسد.

لقد كان منطقيا وشرعيا ان ترحل قوات الاحتلال اثر سقوط النظام، وتحل محلها قوات دولية تابعة للامم المتحدة هي التي تجمع لجنة قانونية تقنية من ابناء العراق لوضع دستور جديد

يعرض للاستفتاء الشعبي، وان تسهر على اجراء انتخابات تشريعية ينبثق من صناديق اقتراعها برلمان يعطي الثقة لحكومة وطنية. ولم يكن ضروريا مطلقا ان ينشئ «بول بريمر» بجانبه مجلس شورى معينا بدون اختصاص. ولن يُعترف لهذا المجلس بالشرعية. ولن تقبل الامم المتحدة ولا الجامعة العربية ان تعطيا مقعد العراق لمن ينتدبه. فالمنظمتان دوليتان، تقبلان في عضويتهما من تعتمدهم الدول المستقلة لتمثيلها، وليس من ينتدبه حاكم اجنبي محتل باسم مجلس يستشار فقط ولا يحكم.

جريدة «الشرق الأوسط»

ينبغي عدم الحكم على «مجلس الحكم» منذ الآن

عبدالوهاب بدرخان

أسوأ ما يمكن أن يواجه به «مجلس الحكم» الانتقالي في العراق هو الرفض والنبذ والقطيعة، خصوصاً من الجانب العربي. فإذا كان الاحتلال الأميركي مقبولاً كأمر واقع لا يستطيع أحد ازاحته، فمن الأولى ان يُقبل هذا المجلس أو أي صيغة مشابهة كأمر واقع داخلي. وكما ان الاحتلال «مقبول» شرط أن يهيئ ظروف رحيله، كذلك المجلس مطالب بأن ينتقل سريعاً من صفته الموقتة الى صيغة حكم ثابتة.

يجب الاعتراف بأن النظام السابق وقوة الاحتلال التقيا، من دون اتفاق، على تسهيل انهيار الدولة ومؤسساتها، كل لحساباته الخاصة. النظام شاء ارباك المحتلين ومفاقمة التعقيدات أمامهم، والأميركيون وجدوا في الانهيار فرصتهم لإعادة تأسيس العراق من نقطة الصفر تقريباً، بما في ذلك الوسط السياسي المؤهل لتسيير البلد وحكمه. وفي غياب أي تنظيمات بديلة جاهزة للقيام بالأدوار المطلوبة، لم يكن هناك مفر من التعامل مع القوى الموجودة. ولو كانت الأمم المتحدة هي المولجة بالمهمة، أو الجامعة العربية مثلاً، أو أي هيئة أخرى، لكان الواقع الفوضوي فرض نفسه عليها كما فرض نفسه على سلطة الاحتلال.

طبعاً، كانت مقاربة المشكلة ستختلف مع الأمم المتحدة التي تعمل بحكم تكوينها وميثاقها وتقاليدها وفقاً للأصول. وكان يفترض في أي خيار تعتمده الأمم المتحدة ان يكون منزهاً عن الغايات والأغراض، فهي منظمة دولية تبقى على مسافة متساوية من جميع الأطراف ولا تنحاز الى هذا أو ذاك. أما سلطة الاحتلال فلها أهداف، بعضها معروف وبعضها الآخر مضمر، وهي تبقى معنية بشؤونها قبل أن تعنى بشؤون العراق والعراقيين. والفارق هنا جوهري، مثلما أنه فارق عملي يتمثل تحديداً في أن ما تستطيع سلطة الاحتلال ان تفرضه وتدافع عنه لا تملك الأمم المتحدة سوى تحقيقه بالتفاوض والاقناع والتوافق.

ينبغي أن لا يخدع أعضاء «مجلس الحكم» أنفسهم في شأن نظرة العالم والعرب اليهم. وسواء كانوا يبالون بهذه النظرة أم لا، فهذا لا يغير شيئا. العالم يحترم من سيحمل تمثيلاً وفقا للأصول المعروفة. والعالم كان يعادي هذه الحرب من دون أن يتعاطف مع صدام حسين ويؤيد بقاءه في الحكم، وهذه قضية معقدة لا ترمي الى معاداة الشعب العراقي وانما ترفض أن يتحمل العالم تبعات سياسة أميركية خاصة جعلت من نظام صدام مطية لأهدافها. وانطلاقاً من ذلك لا بد أن ينظر الى «مجلس الحكم» على انه صنيعة سلطة الاحتلال ونتاجٌ لها طالما انه لم يأت بالانتخاب. لا شك أن في هذه النظرة ظلماً للعديد من أعضاء المجلس، لكن ثمة أعضاء آخرين فيه أكدوا مراراً انهم غير معنيين بالشأن الوطني مقدار ما تعنيهم مصالحهم الخاصة، بل مقدار ما يعنيهم أن يبقى الاحتلال لأنهم يمثلونه ولا شرعية لهم من دونه.

النظرة الأخرى الى هذا «المجلس» انه كرس فشل القوى العراقية كافة، خصوصاً الشيعة والأكراد والسنة، في اقامة لُحمة وطنية، وهي القوى التي يفترض أنها متحاورة ومتحدة ومتوافقة على اسقاط النظام السابق، فإذا بها متفقة ضمناً على وجود كيانات طائفية متمايزة. وحتى لو كان هذا هو الواقع، الذي كان يجب أن يظهر الى العلن بعد زمن طويل من الطمس والتلاعب، إلا أن العالم والعرب كانوا يتوقعون من العراقيين ما هو أفضل من مجرد تقاسم تركة صدام أو بالأحرى تركة «الدولة العراقية» السابقة. فبين من لا يتطلع إلا الى حصة، ومن لا يهمه سوى كيانه المستقل، ومن يكافح للحد من خسائره، ليس هناك عمليا من يبدو مهتماً بالعراق كبلد ووطن للجميع. وهذا هو الوضع الذي يريح الاحتلال، فحيث تكون الانقسامات هي السائدة ليس للمحتل ان يقلق بل ان يلعب على التناقضات.

مع ذلك، ينبغي عدم الحكم على «مجلس الحكم» منذ الآن. لذا كان الترحيب عاماً وحذراً. والمجلس وحده يستطيع إزالة الحذر الخارجي، كيف؟ بأن يعمل بسرعة لاثبات انه لا يمثل سلطة الاحتلال، وبأن تكون له أجندة وطنية، وبأن ينجز الدستور ولوائح الناخبين في زمن قياسي لتقريب موعد الانتخابات، وبأن يخوض حواراً وطنياً شيعيا ــ سنياً ــ كردياً لبلورة ائتلاف توليلورة ائتلاف تولحكم المقبل. فلا أحد يطالبهم بحمل السلاح لمقاتلة الأميركيين، ولا أحد يلومهم على امتنانهم للأميركيين الذين خلصوهم من نظام صدام، لكن الجميع سيلومهم اذا لم يعرفوا كيف يأخذون المهمة التاريخية على عاتقهم.

الحياة ١٧/٠٧/٢٠٠٣

واقعية موحلة

عزمي بشارة

ليس من السهل مناقشة البنى السياسية العراقية التي يتفتق عنها ذهن الاحتلال الاميركي من بلدية بغداد «المنتخبة» ـ المعينة بواسطة لجان أحياء والتي عقدت جلستها الاولى يوم ٧ تموز (يوليو)، الى مجلس الحكم المعين المنعقد بعد ذلك بأسبوع. فما زالت البنية تراوح كما يبدو بين التجربة والخطأ في أفضل الحالات، وبين المؤامرة في أسوئها. وفي أي حال، لا الفوضى الاجتماعية والسياسية التي تلت انهيار النظام طرحت ما يناقش، ولا افق واضح المعالم تكشفه العمليات المسلحة ضد قوات الاحتلال. ونحن لا ندري هل هذه العمليات محكومة بقانون الاستمرارية والقصور الذاتي الرجعي والعفوي في آن، أم انها نقيض الاحتلال الذي يفتح أفقاً جديداً لا نعرف له برنامجاً ديموقراطياً او غير ديموقراطي. وقد تحكم المقاومة المسلحة قوانين التوزيع الطائفي نفسها التي تحكم نقيضها الذي تجسده البنى السياسية التجريبية المتولدة لتوها.

ومع ولادة هذه البنى السياسية طرح النقاش حتى قبل أن تتضح كل النيات، وقبل ان يمسح العقل السليم عن حذائه بقايا غبار أثارته بهلوانيات مناقشة الموضوع في الامم المتحدة وزواج المتعة القصير المدى مع أخلاقيات تتنفض ضد الجمع بين نظام دموي أجوف يدار بانحرافات سادية وبين أسلحة الدمار الشامل. لقد اخلص صدام حسين في احترامه لإرادة الإدارة الاميركية منذ ان رغب بخلافة الشاه المخلوع، ولم يستخدم اسلحة الدمار الشامل إلا(!!) ضد شعبه. وكذبوا عندما صمّوا آذانهم وعصبوا أعينهم عن رؤية اضطهاده لشعبه طالما كان ذلك في مصلحتهم. لقد صدق عندما قال عشية الحرب انه لا يملك اسلحة دمار شامل. وكذبوا. وكان من الأجدى لو وفروا علينا جلافة رامسفيلد وجنتلمانية بليكس والبرادعي اللذين توهم الناس بسذاجة انهما قد يلعبان دوراً مهماً. كان الهدف اسقاط النظام لأسباب استراتيجية اميركية اختلف الناس وأطالوا في الاختلاف على تعدادها وترتيبها حسب الأهمية. ولكن البديل الديموقراطي لنظام صدام حسين لم يكن هدفاً استراتيجياً إلا بنظر الاصوليين الديموقراطيين الاميركيين المبشرين بالديموقراطية بأسلوب عبّأ الرجل الابيض الاستعماري القديم. وحتى هؤلاء اعتاشوا على اسطورة الدور الاميركي في اليابان وألمانيا، والدولتان صناعيتان متطورتان متناسقتان قومياً بشكل لا مثيل له لا في اوروبا ولا في آسيا. وكما نجح الالمان واليابان في اقامة انظمة حكم شمولية ايديولوجية تنظم صناعة «الجينوسايد» وتقاوم حتى اللحظة الاخيرة، ويفضل بعض قادتها على الاقل الانتحار على الاستسلام، فقد وجدوا ايضاً مقومات الانعطاف نحو الديموقراطية، وجه الحداثة الآخر. اما نظام صدام حسين فلم ينجح حتى في اقامة نظام شمولي وراوح في المساحة بين الدولة السلطانية او المملوكية والديكتاتورية العسكرية الى ان وصلت به «البهدلة» حد شراء ولاءات العشائر بالمال عداً ونقداً.

وفي اي حال فقد وقعت الواقعة وطُرحت أفكار دستورية الطابع بشأن تنظيم دولة عربية، وهنالك الآن ما يناقش. ولا تستطيع القوى الديموقراطية العربية، سواء كانت قومية او غير قومية في فهمها للعرب والانتماء العربي، ان تتجاهل ما يجري في العراق وألا تساهم في مناقشته افراداً ومؤسسات.

ولا يحتاج الانسان الى رؤية ثاقبة ليلاحظ مؤشرات خطيرة يبثها بكل الاتجاهات الفضائية نموذج ما يطرح حالياً في العراق. ويتبين ذلك من النقاش الدائر حول التركيبة الطائفية، وربما اخذت في الاعتبار في المرحلة الاولى بحثاً عن «التوازن» ولنزع فتيل معارضة طائفية او تثبيتاً لتوجه فكري دستوري ينم عن نزعة قائمة لدى الولايات المتحدة وحلفائها لتوليف الفيدرالية مع الطائفية، تركيباً للحداثة على نقيضها. قد يتساءل قائل: وهل حكم الغالبية الطائفية هو طائفية أما حكم الأقلية الطائفية فليس طائفية؟ ويجيب الديموقراطي قائلاً كلاهما حكم طائفي. والغالبية الديموقراطية ليست هي الغالبية الطائفية، ولا الأقلية الديموقراطية هي الاقلية الطائفية. والحقيقة أنه لا الأقلية الطائفية حكمت في الماضي ولا الأكثرية تحكم عبر غالبية طائفية تصور كأنها غالبية ديموقراطية، بل حكمت دولة سلطانية مستندة الى تحالفات بتركيبات مختلفة وتعتمد الى حد بعيد على ولاءات عشائرية وطائفية ولكن دائما مدفوعة بالخوف او المصلحة او بكليهما، يضاف اليهما هامش الفساد والافساد.

صحيح ان الطوائف واقع قائم، ولكن بناء دولة حديثة على وحل هذا الواقع هو نقيض الديموقراطية. فالأخيرة تبنى على اسس تساهم هي في تحويلها الى واقع، مثل سيادة القانون، وحقوق المواطنة، والفصل بين الحيز العام والخاص وغيرها. واذا وضع حجر الأساس للنظام على رسوخ الطوائف كذوات قانونية فسينعكس الاساس في جملة البنيان ويصعب تغييره من دون تهديمه. لأن كل الاسئلة ستصاغ بعد ذلك بلغة طائفية. وكما ان التركيب الطائفي الدستوري للحكم في لبنان يكرس النقاش الطائفي ويعيد انتاجه في كل ملاحظة سياسية عليه حتى لو كانت معادية للطائفية، كذلك سيصعب على اي نظام قام على اساس طائفي ان ينظم العلاقة بين المواطن والسلطة إلا عبر الطائفة التي ولد فيها، متديناً كان ام لا، مؤمناً ام غير مؤمن. ولا يستطيع النظام ان يتجاوز النظام الطائفي الاستبدادي الذي يهمش الاحزاب التي تطرح برامج لمصلحة المجتمع ككل في دولة لجميع مواطنيها، إلا الى ما يشبه ديموقراطية توافقية غير ليبرالية تعتمد تمثيل الطوائف لا الناس، وينتهي الأمر الى تمثيل نخب الطوائف الاقتصادية والسياسية والثقافية القادرة على انتاج رموز الهوية وتمثيل الهوية بعد ان تصنعها وتعيد صناعتها على صورتها ومثالها. ديموقراطية لبنان التوافقية المحدودة افضل بلا شك من الدولة السلطانية او الديكتاتورية، ولكن فقط عندما لا تكون في حالة حرب اهلية.

ولماذا تصح الفيدرالية في الديموقراطية ولا تصح الفيدرالية بين الطوائف؟ اولاً، تبقى المواطنة هي الوحدة المكونة الاصغر في حالة الفيدرالية بين الولايات والاقاليم. ولا توجد فيدرالية لا يعتمد فيها على علاقتين متوازيتين للمواطن، واحدة مباشرة مع مركز الحكم واخرى في الولاية وعبرها. وثانياً لأن الديموقراطية تفترض ان الاقليم او الولاية تتشكل من مواطنين افراد احرار، ولا يمكن حتى ان يفترض ان الطائفة تتشكل منهم. وقد تؤطر الاقليمية كمفهوم عصبوي غير ديموقراطي لهوية مناقضة للديموقراطية، او ذات نزعة انفصالية تسعى في افضل الحالات الى ديموقراطية في اطارها السيادي المنفصل. اما في الاطار الديموقراطي فهي لا تضع حجر عثرة أمام ممارسة ديموقراطية بحجم عثرة الهوية الطائفية التي قد تتحول بسهولة الى

مواقف دينية. وفي إمكان الحزب السياسي القطري الطابع ان يقيم فروعاً في الاقاليم كافة وان يسعى الى تمثيلها جميعاً. ولكن ما هذا التظاهر بالسذاجة؟ الاقليم مسكون بأرواح وأشباح وأساطير عديدة وليس بالمواطنين فقط، والا فمن اين العصبيات الاقليمية لأوطان صغيرة بأساطيرها؟ هذا صحيح، ولكن المفهوم الدستوري: ولاية، كـ«قالب للتفكير» وكإطار للتفكير الدستوري هو غير مفهوم الطائفة ويفتح افقاً للتطور الديموقراطي عبر العلاقة بين الفرد ومؤسسات الولاية تغلقه الطائفة.

ويبقى هدف التفكير الديموقراطي هو ان تنظم المواطنة، حقوقها وواجباتها، العلاقة مباشرة بين الفرد والسلطة، وان تستخدم الدولة لبناء أمة المواطنين المدنية. ولا مجال لعلاقة مباشرة بين الفرد والدولة لا يسحق فيها الفرد إلا بوجود حقوق المواطنة بحيزيها الخاص والعام. اما البنى التي تعوض عن غياب المواطنة فتخنق الفرد في انتماءاته العضوية العائلية الممتدة او الطائفية كثمن لدفاعها عنه وحمايته ككائن حي، وليس كفرد، أمام اعتباطية الدولة.

وهنالك فرق بين اعتماد اللغة او الثقافة او القومية اساساً للتوزيع الاقليمي الفيدرالي، كما في سويسرا او بلجيكا او كندا او غيرها، وبين اعتماد الطائفة الدينية أساساً لعلاقة توافقية دستورية بين ذوات قانونية معترف بها اضافة الى المواطنة. التعددية الطائفية الدينية كتعددية سياسية لا تنتج حتى ديموقراطية توافقية، وهي لا تمكّن من فصل «اللاهوت» أو «الفقه» الدستوري عن اللاهوت أو الفقه الديني حتى في فكر النخب السياسية الممثلة للطوائف. ان «افضل» من يمثل الطائفة في النهاية هو الحزب الطائفي او حتى الديني، وهذا ما ينتجه النظام الطائفي في النهاية.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل تصلح المواطنة وحدها لتشكل اساساً عضوياً للانتماء الى الأمة وللتماثل مع الوحدة الذي يجعل التعددية في اطارها ممكنة من دون ان ينحل عقدها الى حرب اهلية. هل يتعصب الناس الى مواطنتهم؟ هل تدفع المواطنة وحدها الى الشعور الوطني؟ لا تكفي وحدها. ولكن في الامكان التثقيف على المواطنة كأسلوب حياة وكنهج في التعامل بين الأفراد وفي تعامل السلطة مع المواطنين، خصوصاً في حالة المواطنة الديموقراطية. وإذا كان هنالك تطابق بين المواطنة والقومية كما في فرنسا مثلاً فليست هنالك مشكلة من هذا النوع، بل تنشأ مشكلة اخرى وعصبية من نوع آخر، لا يتسع المجال هنا للخوض فيها. أما إذا نشأت تاريخياً تعددية قومية فهذا لا يعني الانتقاص من أهمية المواطنة او القومية.

هوية غالبية سكان العراق هوية عربية، تاريخياً وحضارياً وثقافياً. وكل من يدعو الى إضعاف هذا الانتماء كمؤسسة معترف بها من قبل الدولة انما يمهد لمأسسة الطائفية السياسية الشيعية والسنية والمسيحية في الدولة. لا يجوز الاستغناء عن الهوية العربية رسمياً. أما القومية الأخرى الكردية فيجب الاعتراف بها رسمياً ايضاً كقومية وكلغة وكثقافة. ولكن هنالك فرقاً بين بلد يأخذ دستوره الديموقراطي في الاعتبار وجود قومية غالبية عربية وقومية اقلية كردية بحيث تجمعهما المواطنة العراقية، وبين تقسيم الدولة بعد البلد الى طوائف وعشائر وحمائل لا تنتهي الا بغياب المواطن سوياً مع ضياع الانتماءات الثقافية الحداثية الطابع. الامة المدنية والمواطنة وجهان للعملة نفسها، وتشكل القومية مضمون صلتهما الحضاري والثقافي والسياسي.

وكما لا يمكن تصور عراق حديث من دون هوية قومية عربية متحررة من العشيرة والطائفة متعايشة مع هوية قومية كردية، كذلك لا يتدبر الاردن العلاقة الفلسطينية الاردنية من دون هويته العربية، وكذلك حال لبنان وسورية وغيرها. وعلى رغم وجود توتر بين البعدين، القومية والمواطنة التي من المفترض ان تتخلص من منشئها التاريخي لتصبح محايدة قومياً، في دولة لجميع مواطنيها، إلا ان جدلية العلاقة بين القومية والمواطنة في النظام الديموقراطي هي جدلية أرقى بعصور من الجدلية بين الطوائف والعشائر والدولة والأفراد. قد ينحرف نظام حكم بالقومية الى ايديولوجية عنصرية وفاشية الطابع والادوات، وقد تشكل القومية اطاراً للتعددية الديموقراطية في تفاعل مثرٍ مع مواطنة محايدة قومياً.

إن مجرد نشر أسماء أعضاء مجلس الحكم في العراق تحت عناوين من نوع: خمسة عشر من الطائفة الفلانية واربعة من الطائفة الفلانية، يضمر سوءاً ولا يبشر بالخير. لم يجد الاميركان سلاح دمار شامل في العراق ولكنهم قد يخترعون سلاح دمار اجتماعي شامل ألا وهو سلاح التقسيم السياسي الطائفي للمجتمعات العربية خصوصاً في المشرق العربي.

الحياة ١٧/٠٧/٢٠٠٣

سباق أميركي مع الزمن في العراق

غراهام فولر(*)

تأليف مجلس الحكم العراقي يشكل اول خطوة سياسية حكيمة تقدم عليها السلطات الاميركية منذ توليها امر العراق، وهي مؤشر ايجابي بعد شهور من التوجه السلبي. وبالرغم من الـتأخر في تشكيله، فان المجلس يعزز الآمال بأن السلطات في العراق سوف تعود في النهاية الى الشعب العراقي لاول مرة منذ ٤٠ عاماً. ومن الواضح ان كثيرين من المتشككين في السياسة الاميركية باشروا الان التركيز على متابعة التجربة باهتمام اوضح.

ولكن، من الجلي ان مجلس الحكم ليس الجواب النهائي. فالكثير من العراقيين لا يزالون يشتكون من ان المجلس، ومهما أخذ من السلطات، يبقى جهازا معينا من قبل رئيس الادارة المدنية في العراق باول بريمر، وانه ليس جهازاً منتخباً من الشعب. بيد ان هذا لا يلغي حقيقة ان المجلس يمثل قطاعات واسعة من الشعب العراقي، من المتدينين والايديولوجيين، ومن منطلق طائفي هناك شيعة وسنة، وعرب واكراد، ومن منطلق ايديولوجي هناك اسلاميون وعلمانيون، وهناك ليبراليون وشيوعيون، أي ان التوازن جيد، ولكن للاسف فإن المجلس لا يكتسب شرعية الانتخاب.

عموماً، هذه الخطوة السياسية لم تتخذ في الفراغ بل على خلفية زيادة المقاومة المسلحة للقوات

الاميركية. ولا شك في ان ادارة بوش تسابق الزمن الان، إذ على واشنطن ان تحقق اقناعا سريعا للعراقيين بأن المجلس شرعي. بيد ان واشنطن تواجه مشاكل رئيسية في هذا الصدد.

اولاً، هل سيبقى المجلس مكتفيا بالصلاحيات المحدودة المعطاة له والعمل ضمن حدودها، ام انه سيطالب واشنطن بالمزيد من الصلاحيات الاكبر؟

ثانياً، هل سيعتبر العراقيون المجلس قاطرة للامال العراقية، ام سينظر اليه كلعبة مبرمجة لخدمة المصالح الاميركية؟

ثالثاً، هل ستطغى عمليات المقاومة ضد القوات الاميركية على الساحة السياسية وتجر الولايات المتحدة الى المزيد من التورط العسكري وتحويل كل فكرة المجلس الى نكته هزيلة؟

لا شك ان نمو المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الاميركي ظاهرة مقلقة، وربما تكون قد بدأت في تغيير الحقائق على الارض. وبالرغم من ادعاءات البنتاغون بأن المقاومة تعبر عن تصرفات يأس اخيرة من جانب أنصار صدام حسين، فإنها تبدو الان متشعبة ومتوسعة على الدوام وليست محصورة في مناطق مركزية. وقد لا تعبر المقاومة عن اغلبية العراقيين الآن، ولكن عندما تبدأ حروب العصابات فإنها نادراً ما تعبر عن اغلبية السكان.

الهدف الاساسي للمقاومة هو تعقيد عملية الحكم امام قوات الاحتلال الاميركي، وفرز الجبهات ومن ثم اجبار حتى المعتدلين على دعم حركة المقاومة الوطنية. وحتى الآن امتنعت القيادات الدينية من الشيعة والسنة عن دعم المقاومة المسلحة ضد الاحتلال، ولكن الى متى سيستمر موقفهم هذا؟ الواقع انه لن يمكنهم الظهور كمؤيدين للولايات المتحدة بينما حركة المقاومة الوطنية تحارب ضد الاحتلال.

الى ذلك من المحتمل ان تتحول المقاومة ايضاً الى حركة وطنية موسعة اذا لم يتمكن مجلس الحكم من اخذ سلطات مستقلة عن الولايات المتحدة، وبالتالي سوف يخسر هيبته امام اغلبية العراقيين. وعلى النقيض من ذلك، اذا تعززت آمال الناس مع تشكيل المجلس وافعاله، فقد تخسر المقاومة المسلحة الدعم الشعبي، وبالتالي تتعاون السلطات العراقية مع القوات الاميركية على انهاء العنف.

الحقيقة الاهم الآن بالنسبة للولايات المتحدة هي ان جندياً أميركيا يقتل بمعدل يومي. والاحتمال الأغلب هو ان صبر الشعب الاميركي على تحمل هذه الخسارة الناتجة عن الاحتلال سيكون محدوداً. أما الأهم فهو اننا على بعد خمسة عشر شهرا من الانتخابات الرئاسية. وبعد شهور من الآن هناك احتمال ان يتولى كارل روفيه عملياً شأن السياسة الخارجية، كونه المستشار السياسي الرئيسي للرئيس بوش، وسيكون عليه دراسة آثار السياسة الخارجية بصدد العراق على الحملة الانتخابية. من هنا يمكن القول انه اذا لم تبدأ الامور تتجه ايجابيا في العراق في القريب، فمن الممكن التخمين ان الولايات المتحدة سوف «تعلن النصر وتعود للوطن» في الصيف المقبل، تاركة خلفها بعض الإشكال التنظيمية لحكم ذاتي في العراق وستكون مهمة القائمين على تلك الاشكال الدفاع عنها.

اذا حدث ذلك، سيكون بوسع بوش الاستفادة من حقيقة انه قضى على نظام صدام حسين

العنيف. لكن ذلك سيبدو اقل بكثير مما اشيع عن آمال وخطط جيوسياسية طموحة اعلن عنها المحافظون الجدد قبل الحرب. فعلى عكس خططهم وآمالهم لن يصبح العراق حليفا اساسيا للولايات المتحدة في الشرق الاوسط، ولن تتمكن واشنطن من دفع النظام الجديد في بغداد لاقامة علاقات دبلوماسية مع اسرائيل (على الاقل حتى يتم التوصل لحل سياسي حقيقي في فلسطين المحتلة). واضافة لذلك فإن الحديث عن اقامة خط نفط بين العراق واسرائيل لن يتحقق.

اخيراً، يبقى ان الولايات المتحدة لن تتمكن، كما تمنت، من اقامة اربع قواعد عسكرية رئيسية في العراق كان يراد منها تحويل البلاد الى نقطة انطلاق وعصب مركزي للمصالح الاميركية في الشرق الاوسط. من دون شك سيكون العراق في وضع افضل عن السابق، ولكن من منظور توقعات ومصالح ادارة بوش فإن النتيجة ستكون بالفعل مخيبة للآمال.

(*) شغل منصب نائب رئيس مجلس الاستخبارات الوطنية في وكالة الاستخبارات المركزية، ومؤلف كتاب «مستقبل الاسلام السياسي».

جريدة «الشرق الاوسط»

مفاعل على ضفاف دجلة

غسان شربل

راود بعض مهندسي الحرب على العراق حلم جميل خادع وهو جعل اطاحة صدام حسين البوابة الذهبية لانقلاب كبير في الشرق الأوسط. منذ هجمات ١١ ايلول (سبتمبر) ترسخت لدى هؤلاء قناعة مفادها ان بيئة الشرق الأوسط حاضنة للارهاب بسبب غياب الديموقراطية والفشل الاقتصادي والفساد واليأس ومناهج التعليم. لهذا نظروا الى اقتلاع صدام حسين بوصفه محطة أولى مهمة في جراحة واسعة. ولم يروا حاجة الى الاعتقاد ان الفصول التالية يجب ان تكون ساخنة. توقعوا ان يكون لسقوط نظام صدام اثر شبيه بانهيار جدار برلين. كشف دول المنطقة أمام رياح جديدة وحقائق جديدة لا خيار غير التكيف معها أو السقوط. وبين هؤلاء من راهن على العدوى. اعتبروا ان اقامة نظام ديموقراطي في العراق ستؤدي الى تسرّب اشعاعات من النموذج الجديد الى دول المنطقة. ومنهم من رأى ان استكمال الانقلاب الكبير يستلزم ايضاً استدعاء طرفي النزاع الفلسطيني ـــ الاسرائيلي لإنهائه بعد «انضاج» موقف الجانب الفلسطيني بتغيير الوجوه والأساليب.

راهن بعض مهندسي الحرب على نصب مفاعل الديموقراطية على ضفاف دجلة. صناديق

اقتراع وحريات وانتخابات وتداول للسلطة وفصل بين السلطات وشفافية ومحاسبة وتعددية انتماءات في ظل القانون.

وبعد شهور على سقوط نظام صدام يمكن القول ان هذا الحلم تبخر أو هو في الطريق الى هذا المصير. البيئة العراقية ليست جاهزة لاعتناق تصوّر من هذا النوع ولا هي مستعدة. لا مجلس الحكم يعد بقيام هذا النموذج ولا البيانات المنددة به. كان الحلم جميلاً ودجالاً.

من حق المتابع لشؤون العراق وشجونه ان يخشى ان يكون الوضع العراقي الجديد مدخلاً لاضطراب كبير في المنطقة. كأن ينصب على ضفاف دجلة مفاعل لا يرسل اشعاعات الديموقراطية والتعددية والتعايش، بل اشعاعات الطلاق والتناحر وخطوط التماس الدامية على الحدود المفخخة للاعراق والمذاهب.

نفهم ان تنتقد جهات عراقية مجلس الحكم الانتقالي لأنه ولد في ظل الاحتلال وفي غياب أي دور عراقي على ساحة ما بعد صدام حسين. لكن ان ينتقد المجلس بسبب نسبة الأكراد فيه، فهذا يعد بأيام غير سارة. وان ينتقد لارتفاع نسبة الشيعة فهذا ينذر بما هو أدهى. وان يعلن مقتدى الصدر، أمام من يلبسون أكفانهم، انشاء «جيش المهدي» للدفاع عن الحوزة مطالباً بأن تكون مرجع العراقيين فلا بد من الالتفات الى المخاوف. وان يتم التذكير بالنسب السكانية والمذهبية تحت الاحتلال، فإن الأمر مدعاة للقلق.

لا شيء يوحي بأن المفاعل الذي حلم الاميركيون بزرعه لانتاج الديموقراطيات قابل للقيام أو العيش. والخوف هو ان لا ترحم القوى العراقية العراق فتتسبب في زرع مفاعل التشرذم ورفض الآخر ومحاولة تحصين «الجزر العراقية». لا بد من الانتظار فما يجري على ضفاف دجلة يفتح الباب لكل أنواع المخاوف.

الحياة ٢٠٠٣/٧/٢٠

العـراق محـتلاً

محاولة للفهم .. مسعى للتحرر

سليم عبد الأمير حمدان

ما يزال البعض لا يصدق، أو يدعي أنه لا يصدق، أن ما جرى في العراق منذ ٩ نيسان الماضي هو عملية احتلال، رغم تعمد الـ«المحررين» الأنكلو أميركان ــ وإن شئنا الدقة الأنكلو ساكسون، حيث أن مع ما يسمى بقوات التحالف عدداً من الأستراليين أيضاً ــ عدم محاربة أعمال الفوضى والتخريب والسلب والنهب في العراق مع ابتداء «التحرير». ومع اتضاح دور قوات التحالف في إثارة وترسيخ الشقاقات بين القوى السياسية العراقية المختلفة وما نشأ، وينشأ عنه، من تأخير قيام حكومة مؤقتة تأخذ على عاتقها الدعوة لانتخاب مجلس تأسيسي أو مؤتمر وطني لإحداث التغييرات اللازمة في العراق، تحرص تلك القوات على حراسة النفط ومنشآته لتأمين ضخه سريعاً، في حين أعلن حاكم العراق المدني ــ بريمر ــ حل الجيش العراقي!

إنه احتلال، بأبسط التعابير وبأدقها في الوقت نفسه.

وقد استند هذا البعض في رفضه التصديق، أو في تشكيكه على الأقل، إلى مسألتين، كلتيهما صحيحة، إلى حد ــ وهو حد كبير فعلاً:

١ ــ لقد أتيحت للولايات المتحدة فرصة احتلال العراق بعد انتهاء حرب النفط الثانية (أو الخليج الثانية، أو تحرير الكويت) ، ولكنها لم تفعل.

٢ ــ إن النفط ــ والاستحواذ عليه مبرر الاحتلال عند من يرون ما جرى احتلالاً واضحاً صريحاً ــ سلعة تباع وتشترى في الأسواق، فهي بالتالي لا تحتاج إلى تجييش الجيوش وإنفاق مليارات الدولارات(*) من أجل الحصول عليها.

وعلى هذا، فلابد من توضيح هاتين المسألتين قبل الانتقال إلى ما نريد بعدهما من حديث.

بوش الأب ــ صدام

صار من نافل القول إن الإدارة الأمريكية في زمن بوش الأب خشيت احتمال نظام «إسلامي» زعماً، أو شعبي حقاً، في العراق سنة ١٩٩١، ولذلك لم تسمح بـ«ذهابي إلى القصر الجمهوري لأخذ توقيع صدام حسين على استقالته» ــ حسب تعبير جنرال حملة تلك الأيام: نورمان شوارتزكوف، وإنما قامت بعكس ذلك الضبط: سمحت لطاغية العراق بسحق انتفاضة شعبية قائمة

(*) حوالي ٣٠٠ ألف عسكري، ما يقرب من ١٠٠ مليار دولار.

كانت ستحقق «تحرير» العراق من الطاغية! إيماناً منها بأن الطاغية هو الكفيل بإبعاد مخاطر تلك الانتفاضة، التي هي أكثر تنفيراً للولايات المتحدة وحلفائها في المنطقة من الطاغية ونظامه. (وتقتضينا الموضوعية أن نعترف بأن الانتفاضة العفوية الباسلة أسيء استخدامها بشكل سوّغ للإدارة الأمريكية ــ بعد التضخيم طبعاً ــ ذلك التصور، ومن ثم الموقف الذي اتخذ بناء على ذلك التصور، فالسلوك الناشئ عنه. ولكن إساءة الاستخدام تلك لم تكن السبب الوحيد في تلك التداعيات).

ومثلما هو صحيح أن النفط سلعة تباع وتشترى، ويمكن لكل من يدفع ثمنها أن يحصل عليها، فالصحيح أيضاً أن اكثر من ٤٥% من صادرات النفط العراقي قبل حرب النفط الثانية وأثناءها كان يصدر إلى الولايات المتحدة، رغم الشعارات الثورانية وفوق الثورانية والقومانية، وفوق القومانية، التي كانت تطلقها الدكتاتورية... فما الذي كان سيدفع الولايات المتحدة إلى مواصلة الحرب على نظام كهذا ــ بل إسقاطه ــ وهو يوفر تدفق النفط الرخيص بهذه الانسيابية الوافرة إليها؟

الذي جرى بعد ذلك هو قلب هذه الصورة، مع أنه يمكن تفسيره بأن نظام العصابة التي كانت متسلطة على العراق كان مضطراً إلى ذلك للتخلص من مصاعب الحصار الذي فرض على العراق (لا النظام، وهذه واحدة من مفارقات قرار الحصار وتطبيقه).

أضف إلى ذلك أن الإدارة الأمريكية قد تخطئ، شأنها شأن أية إدارة وأي بشر آخرين، وقد أخطأت ــ كما وجدت في حسابات لاحقة ــ في عدم احتلالها العراق آنذاك، وهاهي تقوم بتصحيح ذلك الخطأ الآن.

ولا ينبغي، بأي حال من الأحوال، أن نربأ بالولايات المتحدة عن خطأ الحسابات أو نبرئها منه، فقد رأينا أغلاطها الجمة في الاحتلال الراهن، مع أنها ظلت تطبخه على نار هادئة منذ أكثر من عشر سنوات، وفي احتلالات أخرى (ولعل امرأً يقول: إن غلطها الأول هو الاحتلال ذاته، ووفق حساباتها هي بالذات).

كما يجب ألا ننسى اختلاف المصالح والرؤى داخل الإدارة الأمريكية، والتوجه اليميني للتيار الذي تغلّب في الإدارة الأمريكية الراهنة، والذي يريد تنفيذ رؤيته عن الخريطة الجديدة للمنطقة العربية.

مخالفات العراق

ارتكب نظام العصابة كثيراً من المخالفات التي استفزت الإدارة الأمريكية، وحسمت رأيها في إسقاطه(*)، وكان أهم تلك المخالفات هو ما جرى في مجال النفط بالذات:

* فقد باع العراق نفطه إلى دول «مارقة» لا تحبذ الولايات المتحدة البيع لها، وأهدى نفطاً إلى دول «ترعى الإرهاب».

* باع العراق ٤٤ مليار برميل من النفط إلى شركات غير أمريكية وغير بريطانية.

* وقع العراق عقوداً مع شركات عالمية، ليست أمريكية ولا بريطانية، لتطوير استخراج النفط

(*) دون أن يعني ذلك وطنيته أو قوميته، بل مناورة منه في ما تصوره هامشاً متروكاً له، ومحاولة ــ في الوقت نفسه ــ للحصول على حصة أكبر مما كانت تسمح له به الإدارة الأميركية من عائدات النفط.

العراقي، كانت أهمها عقوده مع شركة توتال الفرنسية لتنمية حقول نفط جزيرة مجنون ونهر عمر، والتي تضم ما يقدر بـــ١٨ مليار برميل، ومع شركة لوك الروسية، لتنمية حقول القرنة، التي يقدر موجودها بـــ١٥ مليار برميل، عدا عن عقوده مع شركتي الصين الوطنية وأيني الإيطالية، التي تعتبر «فكّة» أمام العقدين المذكورين أعلاه.

أسباب أمريكية

وفي هذه الأسباب، نجد النفط في القلب مرة أخرى:

* في الشرق الأوسط ٧٠% من احتياطي النفط العالمي.

* تشكل حصة بلدان أوبك ٥١% من الإنتاج النفطي العالمي.

ودور العراق في الاثنتين: المنطقة والمنظمة، يكاد لا يحتاج إلى بيان. ويكفي أن نقول إن احتياطي النفط العراقي أكبر احتياطي في العالم، رغم توقف الاستكشاف منذ سنة ١٩٩٠.

ومع بقاء النفط مصدر الطاقة الرئيس في العالم(*)، فقد ارتفع الطلب عليه من سنة ١٩٨٥ إلى سنة ٢٠٠٠ بمقدار ٣,١ مليون برميل يومياً، أي بنسبة ١٧%، ويعتقد الخبراء أن الزيادة قفزت بين سنتي ٢٠٠٠ و ٢٠٠١ إلى ٢٠ مليون برميل يومياً!

ولكن الأهم من ذلك كله أن الولايات المتحدة ــ التي تعتبر النفط والطرق المؤدية إليه وطرق تصديره حداً من حدود الأمن القومي الأمريكي ــ تسعى من وراء تأمين النفط لنفسها احتكاره لتحقيق أهداف ستراتيجية عدا الأهداف الاقتصادية المجردة ــ على ضخامة هذه الأهداف. ولعل أوضح هذه الأهداف الستراتيجية:

* إضعاف موقف اليابان وأستراليا وكندا، وكل الدول الأوربية التي لا تمتلك نفطاً فهي تستورده حالياً، أو التي سينضب نفطها عن قريب وستستورده مستقبلاً، وتقليص استقلالية قرارها.

* وتشديد الضغط على روسيا، عن طريق التلاعب بأسعار النفط الخام، وفرض السياسات الأمريكية عليها عن طريق تهديدها بالإفقار عن طريق خفض أسعار النفط العالمية.

* وأخيراً، وإن لم يكن آخراً، إحكام القبضة الأمريكية على مقدرات الدول الأعضاء في أوبك، إضافة إلى أوبك ذاتها بالطبع، لضمان سيرها في الخط الأمريكي المطلوب.

أمور داخلية

ولكن قبل هذا وذاك ــ وربما فوق هذه الأسباب جميعاً ــ جاء الاحتلال الأمريكي في زمن يتميز فيه الواقع الأمريكي بما يلي:

(*) للولايات المتحدة دورها في هذا الأمر أيضاً، ولكن ذلك يستحق بحثاً مستقلاً.

* ٤١ مليون مواطن بلا ضمان صحي.
* ٣٣ مليون مواطن عند خط الفقر أو دونه.
* ١٣ مليون طفل يعانون من نقص التغذية أو سوئها.
* ٣ مليون مواطن بلا مأوى.
* ١٣٣ مليون مواطن يتعرضون لتلوث الهواء في مناطق سكناهم.
* ١٥٩ مليار دولار عجز في الميزانية.

وهكذا، وجد شعار «من ليس معنا فهو ضدنا»، الذي يعتبره المفكر المصري سيد يس فاتحة عهد تقنين الهيمنة، أو البيان الإمبراطوري الجديد، لا أرضية صالحة تبرر إطلاقه فقط، وإنما مبررات وضعه موضع التطبيق أيضاً. بهذا صار ما أطلقه الرئيس بوش الابن، وما فسرته مستشارته للأمن القومي بعد إطلاقه إياه بوقت قصير، سياسة تجرب وممارسة تُفرض.

وعلى كل حال، فقد حسمت الولايات المتحدة بنفسها المسألة، حين تقدمت إلى مجلس الأمن بمشروع القرار الذي استحصلت ختمه عليه، ليصير القرار ١٤٨٣ معلناً أن العراق واقع تحت الاحتلال.

بين احتلالين

أجرى بعض المحللين والكتاب مقارنات بين الاحتلال البريطاني في أوائل القرن العشرين والاحتلال الأمريكي الراهن مع مطلع القرن الحادي والعشرين، للعراق. وكان أهم ما لفت أنظارهم هو أن طبخة الاحتلال البريطاني بقيت سرية في مراحل تحضيرها وحتى في تطبيقها الأول، ولم تكشف إلا بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا، بينما كان الاحتلال الأمريكي للعراق موضوع بحث عمومي في وسائل الإعلام المختلفة طوال سنين بحيث استفادت الإدارة الأمريكية من المناقشات التي جرت بشأنه لإجراء التعديلات الضرورية على التنفيذ!

كما لاحظوا أيضاً أن الاحتلال السابق كان معنياً بالنهب الآني، المباشر، فقط، بينما يريد الاحتلال الأمريكي الراهن أن تمتد جذوره بعيداً في الأعماق، ولذلك فمن بين «الإصلاحات» التي يريد إدخالها في العراق ــ والمنطقة طبعاً ــ إجراء تغييرات في الواقع الثقافي والعملية التربوية، غير مستثن من ذلك الدين نفسه!

ولعلي أضيف فارقاً آخر هو أن احتلال القرن العشرين، الذي نجم عن سقوط الإمبراطورية العثمانية أدى إلى نشوء دول قومية صغيرة في أوروبا، بينما فتح احتلال القرن الحادي والعشرين شهية دول هامشية وصغيرة لتعبر عن مطامعها، في العراق وثرواته بشكل خاص. فقد رأينا بريطانيا واستراليا تشاركان في الحرب عملياً، بينما فتحت تركيا سجلاتها القديمة لتبحث «أحقيتها» القانونية في المطالبة بضم كركوك والموصل! (فقط يا ترى؟!)، وعندما لم تجد استجابة امتنعت عن التعاون المطلق في المجهود الحربي.

كوة للأمل

لقد مر العراق منذ تاريخه القديم بفترات احتلال و/أو تسلط متعددة، استوعبها وتغلب عليها جميعاً. وقد سجل الدكتور عبد الوهاب حميد رشيد، في كتاب جديد له لم يصدر بعد، احتلال الفرس

الأخمينيين والسلوقيين المقدونيين ثم الفرس الساسانيين فالترك "العثمانيين والإنكليز من بعدهم، وذلك منذ سنة ٥٣٩ قبل الميلاد، إلا أن ذلك كله إزاحه الشعب العراقي وقضى عليه. ولا ننسى أن العراق وقع ــ إضافة إلى ما تقدم ــ تحت النفوذ التركي فالبويهي ــ الفارسي ثم السلجوقي ــ التركي على نحو متصل منذ سنة ٨٦٢ لغاية ١١٥٥ ميلادية، ولكن ذلك لم يمنعه من الخروج من التجربة أكثر عزماً وتصميماً على الحفاظ على استقلاله.

ولعل ما يلفت النظر في هذه التجارب الطويلة أن الحكم البريطاني المباشر لم يدم أكثر من خمس عشرة سنة في منطقة من العالم لم يكن سكانها يُعتون شعباً وإنما مجموعات قبلية ــ عشائرية، يسود التناحر بينها أكثر مما ينتشر التفاهم. فكم سيدوم الاحتلال الأنكلو سكسوني يا ترى؟!

لنجعلها بوابة

سيبقى هذا الماضي المجرد مبعث فخر، شأنه شأن الكثير مما نفخر به، عراقيون وعرب، من أمجاد الماضي، ذلك الفخر الذي يزيد في كوارثنا، إذا لم نسعَ إلى تعزيزه بتحرير جديد.

والتحرير الجديد في هذه المرحلة لا يعني قط خروج قوات الاحتلال فوراً، فذلك يخدم طغمة حفاري القبور الجماعية الساقطة أكثر مما يخدم العراق، وإنما بناء أسس العراق الجديد الذي تصر تلك الطغمة على هدمها، لتحقق وعد رأسها الهارب المهزوم الذي أطلقه منذ نحو ربع قرن!

وما يعرقل العمل على بناء هذه الأسس ليس ما تفعله فلول تلك الطغمة فقط ــ وهي تأمل في استرجاع تسلطها القمعي، وإن فشلت فليكن الخسران للجميع ــ وإنما الموقف غير المبالي والمجرد من الشعور بالمسؤولية، الذي وقفته وتقفه بعض الأحزاب والقوى السياسية العراقية، أيضاً، وهو موقف لا يقتصر على الأحزاب حديثة التكوين قليلة الخبرة، مع الأسف.

لقد غدا واضحاً إخفاق هذه الأحزاب والقوى حتى الأمس القريب في اتخاذ موقف موحد وصارم من عقد مؤتمر وطني عراقي يقرر استراتيجية العمل في مرحلة الاحتلال ويضع آفاق المرحلة التالية لها، ويهيئ لانتخابات حقيقية تنبثق عنها حكومة مؤقتة تدير أمور البلاد اليومية حتى انتهاء سلطة الاحتلال، ويعدّ مسودة دستور عراقي يجري الاستفتاء عليها، ثم إجراء انتخابات وفقاً له تقوم نتيجة لها حكومة تشكر قوات التحالف على إزاحتها الحكم الدكتاتوري وتطالبها بمغادرة البلاد، كي يرى العراق ــ لأول مرة في تاريخه ــ حكماً «أهلياً» حقيقياً، وديمقراطياً حقاً.

إن سلطة الاحتلال لن تخرج راغبة متطوعة، مادام الاحتلال يحقق لها أهدافها الاستراتيجية ، بل لابد من إقناعها بضرورة الخروج، ومن يكون أكثر إقناعاً من صف موحد وراء برنامج موحد، يستبعد، ولو آنياً فقط، أحلام التسيّد والاستئثار؟ ?

العـــــراق:
اللاإندماج والسياسة

محمد سيد رصاص

دفع شيعة العراق ثمنا كبيرا عندما أقصتهم إنكلترا عن مركز النفوذ في الدولة العراقية الحديثة المقامة عام ١٩٢١ نتيجة لقيادة علماء النجف ثورة ١٩٢٠، ولم يكن تفضيل لندن سنّة العراق آتيا فقط من أسباب عراقية، وإنما أمتد الأمر إلى نوع من الارتباط مع سجل اصطدام بريطانيا بالمرجعيات الشيعية الإيرانية اثناء فتوى مقاطعة التنباك في فارس بعد احتكار شركة إنكليزية له (١٨٩٠) ومع تعارضهما في الثورة الدستورية (١٩٠٦ ـ ١٩١١)، وذلك في وقت كان الفاصل بين انقلاب رضا بهلوي في طهران (شباط ١٩٢١)، "المعادي للمرجعيات الدينية والموالي لبريطانيا، وتنصيب الملك فيصل على عرش بغداد لا يتجاوز الستة أشهر.

كان ذلك لعباً إنكليزيا بين المكونين الرئيسيين لمجتمع كان «اللاإندماج المجتمعي» هو عنصره الرئيسي، قبل أن يطل العامل الكردي برأسه عام ١٩٦١، حيث لعبت عوامل الحسابات البريطانية، حيال أتاتورك في الشمال والفرنسيين في الغرب وابن سعود في الجنوب، الدور الرئيسي في تكوين تلك الدولة الممتدة من زاخو إلى الفاو، وليس الاندماج الذاتي للمكونات الداخلية لتلك الرقعة الجغرافية.

كان هذا ظاهراً من تبوّؤ السنّة للمراكز الرئيسية في الإدارة العثمانية، وما انعكس من ذلك في الاجتماع حيث كانت العائلات الأبرز في الاقتصاد والمجتمع داخل بغداد سنيّة مع استثناءات شيعية قليلة كانت موجودة في ضاحية الكاظمية أتت ثروتها من إدارتها مقام الإمام الكاظم ومن الحجيج الإيراني للمنطقة وما استتبعه من تجارة، بينما كان المالكون في لواء البصرة من السنّة فيما المزارعون من الأكثرية الشيعية، الأمر الذي ينطبق على منطقتي الناصرية والحلة، وهو ما كان بدوره يأخذ شكلاً طبقياً ـ دينياً في لواء الموصل بين الملاكين المسلمين ومزارعيهم المسيحيين، فيما كان في أربيل موزعاً بين التركمان الأثرياء والأكراد الفقراء، وفي كركوك بين التركمان ومزارعيهم ورعاتهم العرب.

كانت سيطرة السنّة على المراكز الرئيسية في العراق الملكي حصيلة سياسية لتلك اللوحة الموروثة عن العثمانيين والتي أتى الميل البريطاني ليعطي سفينتها الرياح المطلوبة، وقد تعزز ذلك مع حقيقة أن المعاونين الرئيسيين للملك فيصل كانوا من الضباط العثمانيين الملتحقين بالهاشميين (نوري السعيد، جميل المدفعي، علي جودت الأيوبي، ياسين الهاشمي، طه الهاشمي)، الذين أتوا من سنّة العراق العرب، وهم جميعاً تولوا منصب رئيس الوزراء، اضافة إلى من أتى من سنّة بغداد من عائلات(السويدي، الكيلاني، الباجچي)، وسنّة الموصل (العمري) والبصرة (السعدون)، ممن يمكن عبر أسمائهم تأريخ حقبة العهد الملكي، والذي مثل سقوطه عام ١٩٥٨ بداية صعود الريف والبلدات الصغرى بالعراق على حساب العاصمة والمدن الكبرى ووجهائها واغنيائها، وهو ما يدخل ضمن موجة عمّت المنطقة الممتدة بين الجزائر وطهران، ابتدأت مع عبد الناصر وانتهت بالخميني، وهو تطور لا يمكن عزله عن فشل السلطات السابقة في حل المسألة الزراعية على امتداد تلك المنطقة.

أتت المحاولة الأولى لتوحيد هذا الركام المجتمعي من جانب شيعي بغدادي، هو (جعفر أبو التمّن)، عبر تأسيس (الحزب الوطني العراقي) عام ١٩٢٢، من خلال برنامج رافض للانتداب ومطالب بالاستقلال، وقد كان لافتاً للنظر أن السياسيين اللذين شرعا بالتباعد عن الأسرة المالكة والاقتراب من العروبيين بعد معاهدة ١٩٣٠، أي ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني، كانا على علاقة وثيقة مع هذا الحزب قبل أن يشكلا «حزب الإخاء الوطني» في الثلاثينات، فيما أتى زعيما «حزب الاستقلال»، الذي تشكل كحزب عروبي عام ١٩٤٦ بعد فشل «حركة عالي الكيلاني» عام ١٩٤١، أي محمد مهدي كبّة وفائق السامرائي، من حزب أبي التمن، وهما شيعيان مثله.

وما يلفت النظر أن هذين الحزبين، اللذين حاولا تقديم جامع وطني للعراق ضد بريطانيا، قد فشلا في أن يكونا رافعة سياسية في العشرينات والثلاثينات على التوالي، بخلاف «حزب الوفد» المصري و«الكتلة الوطنية» السورية، فيما لم تستطع حركة الكيلاني، التي استقطبت تأييداً شيعياً مرموقاً إضافة إلى السنّة، أن تنجح لتتكسر على الحائط البريطاني بعد مراهنتها على الألمان، فيما كان حزب الاستقلال وريثاً لحركة عروبية مهزومة أمام البريطانيين والهاشميين. على هذه الخلفية أتت «جماعة الأهالي» عام ١٩٣١، لتحوي داخلها جنيناً لاتجاه شيوعي قوي، أتى زخمه من فقدان الاجتماع القوي للاتجاه الوطني مع الليبرالية، كما في مصر مع «الوفد» أو في سوريا مع «الكتلة» وبعدها في «حزب الشعب»، وهزيمة التيار العروبي بالعراق عام ١٩٤١، وكذلك من فشل كامل الجادرجي وحزبه «الوطني الديموقراطي» في تشكيل اتجاه اشتراكي ديموقراطي مع ملامح ليبرالية، وهو الآتي بالأصل من «جماعة الأهالي»، وذلك في مجتمع لم تكتمل فيه معالم التحديث والتصنيع.

كان نمو الحزب الشيوعي العراقي، الذي أخذ أبعاداً قوية بين ١٩٤٢ ــ ١٩٤٨، مبنياً على قاعدة عمالية ظهرت مع بدايات الصناعة ومنشآت النفط ومصلحة السكك الحديد، إلا أنه اعتمد أساساً على الفئات الوسطى في المدن التي وجدت نفسها في حالة من فراغ القوة مع فقدان

وجود الاتجاه الوطني الجامع العريض، ومع هزيمة القوميين في ١٩٤١، ثم ليأتي رافد قوي لنموه مع انضمام غالبية حزب «رزكاري كرْد ـ التحرير الكردي» إلى الحزب الشيوعي في عام ١٩٤٦، وهو ما ترافق مع انهيار جمهورية مهاباد الكردية بإيران ولجوء الملاّ البارزاني إلى موسكو: رغم ذلك وإضافة إلى ما مثّله الشيوعيون من أول محاولة حزبية جامعة لألوان العراق الطائفية والقومية وحتى الدينية مع المسيحيين واليهود، فإن النمو الفعلي للحزب في الخمسينات، الأمر الذي أخذ أبعاده الكبرى في فترة الصعود بين عامي ١٩٥٩ ــ ١٩٦١، قد بيّن رجحاناً عددياً كبيراً للشيعة والأكراد في الجسم الشيوعي وضعفاً للحزب في المدن السنية العربية (الموصل، الرمادي، تكريت) وكذلك في أحياء بغداد السنيّة، ليأتي يوم ٨ شباط ١٩٦٣ ليبين مدى انقسام الشيوعيين والبعثيين الجغرافي بين الكاظمية والأعظمية من مناطق بغداد، رغم الصورة المعاكسة في قيادة الحزبين، للسنّة والشيعة، مما لم يكن يعكسه جسمهما التنظيمي وقاعدتهما الاجتماعية.

يؤكد ذلك واقع أن بداية العد النزولي لقوة الشيوعيين بعد ذروة ١٩٥٩ قد ترافقت مع استعادة التيار القومي قوته مع البعث منذ ذلك التاريخ، ومع نشوء حزب الدعوة عبر مؤتمره التأسيسي عام ١٩٥٩ (لم يكن صدفة أن كتابي مؤسس الحزب، السيد محمد باقر الصدر، أي «فلسفتنا» و«اقتصادنا»، قد كانا محاولتين سجاليتين ضد الماركسية، أساساً)، ومع التمرد الأول للملاّ البرزاني ضد عبد الكريم قاسم في أيلول ١٩٦١ وبداية استقطابه غالبية الجسم الكردي، وهو شيء لم يكن «البارتي» قادراً على ادعائه قبل هذا التاريخ حيال الشيوعيين. صحيح أن الحزب الشيوعي قد استطاع لملمة جراحه بعد المجزرة التي حصلت له في ٨ شباط واستعادة شيء من قوته معتمداً على جذوره الاجتماعية، إلا أن مفاعيل قوة البدائل الثلاثة (البعث، الدعوة، البارتي) هي التي تفسر ضعف الشيوعيين في السبعينات والثمانينات، بعدما أخذت الأمور أبعادها، الأمر الذي يمكن أن تلخصه حقيقة تحول حي الثورة في بغداد، وهو الذي أنشأه قاسم لاستيعاب الآتين من الجنوب، من قاعدة للشيوعيين إلى معقل لحزب الدعوة في أواخر السبعينات.

قدمت حرب ٢٠٠٣ صورة قوية عن تذرر المجتمع العراقي، عندما وقف هذا الأخير في موقف أقرب إلى الحياد ــ وعند بعض مكوناته راوح الموقف من الحياد الإيجابي إلى الترحيب ــ حيال الغزو الأميركي للبلد، وهو ما يتناقض مع مقاومة العراقيين وممانعتهم حيال الغزو الإنكليزي في فترة ١٩١٤ ــ ١٩١٧، الأمر الذي لا يمكن عزوه فقط إلى ما فعله الديكتاتور بالعراق. فيما توحي صورة ما بعد الحرب بثبات ذلك الثالوث كإطار رئيسي للوحة السياسية العراقية، ولو مع اختفاء السلطة ليحل محلها التنظيم الإخواني، أي «الحزب الإسلامي العراقي»، في مركز القوة بالموصل وأحياء بغداد السنيّة (وما أظهرته حادثة مدينة الفلوجة)، فيما انقسم نفوذ (البارتي) القديم بين البارزاني والطالباني، فيما تتوزع الشيعة ثلاثة قوى دينية: «التيار الصدري» كوريث لقوة الصدر الأول (السيد محمد باقر: أعدم في نيسان ١٩٨٠)

والثاني السيد محمد صادق الصدر (اغتيل في شباط ١٩٩٩) ولحزب الدعوة في مواجهة «الحوزة» بالنجف، وضد «المجلس الأعلى» الذي يقترب زعيمه كثيرا من إيران وإن كان يجد نفسه أمام قوة «الصدريين» مضطرا للاحتماء تحت عباءة «الحوزة» التي نأت بنفسها كثيراً عن «ولاية الفقيه» والخميني.

لا يناقض ذلك ما جرى في أربعينية الحسين، وإنما يؤكده من حيث كونه استعراضاً فئوياً للقوة، ولو من طائفة عانت الغبن والتمييز طوال اثنين وثمانين عاماً من عمر العراق الحديث، حتى وهو يقول بـ«الوحدة الإسلامية»، التي من الواضح أن شيعة العراق المعاصرين لن يقبلوا بأقل من عربة الدرجة الأولى في قطارها، وإن كان من الواضح أن الأمور لن تصل عندهم إلى درجة احتكار السنّة للسلطة في القرن العشرين.

من غير المحتمل أن يقود ذلك إلى تكرار سيناريو طهران ١٩٧٩، نظراً إلى العوامل الدولية والإقليمية، وكذلك بسبب التركيبة المجتمعية العراقية، وربما كان المرجح هو الاتجاه إلى «طائف عراقي» في ظل رعاية دولية وإقليمية، خصوصاً إذا استمرت، وهذا ما توحي به المؤشرات، اللوحة السياسية العراقية بالتوزع بحسب هذه المجاري الثلاثة للمكونات، من دون أن تقدم مؤشرات على تجاوز ذلك في اتجاه فرز اتجاهات وطنية جامعة تملك القوة على الهيمنة داخل هذه اللوحة، سواء أكانت ليبرالية أحمد الجلبي وكنعان مكية أو عدنان الباججي، أو يسارية الشيوعيين، أو قومية عربية فشلت في تجاربها. ?

محمد سيد رصاص: كاتب سوري

لعبة سياسية جديدة في العراق المحتل

دافيد باران (*) David BARAN

وفقا للإدارة الأميركية التي تحب الإعلانات الطنانة فإن عودة النظام إلى العراق قد بدأت ولن يتأخر تشكيل حكومة انتقالية، كما استعاد إنتاج الكهرباء معدلات ما قبل الحرب وواصل رجال الشرطة وغالبية الموظفين أعمالهم كما أعادت الجامعات والمدارس فتح أبوابها وأعيد تشكيل منتخب كرة القدم العراقي. لم يبق سوى تنظيم بطولة بكرة المضرب في بغداد وهذا ما لم يتردد نادي العلوية الراقي القائم بجانب فندق فلسطين في تنظيمه تحت أنظار الصحافيين الأجانب.

من العراق يتبين أن هذه صورة مخادعة. فانفلات الأمن هو السائد أكثر من أي إدارة جديدة، والنهب متواصل في العاصمة، في وزارة الإعلام مثلا أي على بعد 200 متر فقط من مركز قيادة القوات الأميركية. آلاف عناصر الشرطة الذين استأنفوا أعمالهم حتى اليوم غير ظاهرين للعيان تقريبا فيما يتناقل الشارع أخبارا مثيرة للقلق: اغتيالات وسط الطريق، اغتصاب داخل المنازل واختطاف أولاد. كلفة الحياة ترتفع والأجور لا تدفع فيما تستنفد المؤونة من المواد الغذائية المخزنة قبل الحرب في بعض الأحياء، والوقود نادر وكذلك الغاز المنزلي الضروري لأعمال الطبخ.

ما هي اذاً الاستراتيجيا الأميركية في هذا البلد الذي انهار اقتصاده ومؤسساته تماماً بعد الاجتياح وبعدما كان نظام صدام حسين قد عبث بها وحولها عن أهدافها؟ بعد مرور شهرين على سقوط بغداد يبقى السؤال بلا جواب، والعراقيون مضطرون لتخمين هذه الاستراتيجيا من دون أن يوضحها أحد لهم. والالتباس قائم بين سكان يعتبرون أنفسهم واقعين تحت الوصاية الأميركية وقوة

الاحتلال التي تعتقد أنها نفذت الجزء الأساسي من مهمتها.

واقع الحال أن الاستراتيجيا الأميركية تراهن على تشكيل حكومة انتقالية تضطلع بمهمة تلبية حاجات المواطنين وإيجاد الحلول للعديد من المشكلات التقنية على أن يقتصر الوجود الأميركي على الاحتلال العسكري من جهة والإشراف على المفاوضات الآيلة إلى تشكيل الحكومة الجديدة من جهة أخرى. يتحول هذا الوجود العسكري والسياسي في وقت لاحق وبشكل تدريجي إلى وجود اقتصادي خلال مرحلة إعادة الإعمار التي سوف تطاول البنى التحتية المحلية كافة.

وتفترض هذه السياسة البعيدة المدى نوعا من السلبية لدى المواطنين كأنهم كتلة رخوة يسهل تطويعها. لكن هؤلاء المواطنين الذين تركوا لأنفسهم في مواجهة الفوضى، سعوا إلى التنظيم الذاتي من دون انتظار المفاوضات البطيئة بين الإدارة الأميركية وأحزاب المعارضة العائدة من المنفى. وقامت بعض الشخصيات الدينية والقبلية المبعدة عن هذه المفاوضات بالحلول محل جهاز الدولة البائد. ففي ما يتعدى فراغ السلطة تأتي هذه المبادرات كرد على «فراغ المعنى». فماذا يحدث خارج الحلقة السياسية الضيقة التي تسترعي انتباه واشنطن ووسائل الإعلام ولا يهتم لها العراقيون؟

بعدما تذرعت بأسباب عديدة لمهاجمة العراق رست واشنطن على اعتبار تدخلها العسكري بمثابة «حرب تحرير»، لكن لا أحد يصدق نبل النيات الأميركية والجميع يعتقدون أن وراء ذلك كله الدفاع عن مصالح واشنطن، فقوات التحالف لم تأت لـ«تحرير» العراق بل لاحتلاله والسيطرة على ثرواته. لكن الخلاف في التصور ينشأ من الفوائد الممكن جنيها من وراء احتلال الأمر الواقع هذا.

قلة في الحقيقة تبدي تفاؤلا لا يلين وترى المستقبل دائما افضل مما كان يقدمه صدام حسين. وهم يتذوقون طعم الحرية التي يدينون بها للأميركيين ولا يبدون قلقا إزاء الإمبريالية التي يدركون ما هي عليه: «نعطيهم البترول، فنحن في كل حال لم نكن نستفيد منه في الماضي». ولا يهم إن كانت الحكومة المقبلة تابعة لواشنطن طالما توقف القمع والحروب والحرمان.

بالطبع لا تتناسب هذه الفئة مع الذين تعرضوا للقمع قبل الحرب. فمن بين السعداء اليوم عدد كبير من الذين ابتعدوا منذ زمن طويل عن السياسة، وغيرهم ممن أقاموا علاقات وثيقة طوعا أو غصبا مع النظام. وبالعكس فإن فئة العراقيين المرتابين وحتى المستائين لا تتماهى في الضرورة مع النظام البائد. ففي بغداد مثلا إن غالبية سكان مدينة الثورة الشاسعة المعروفة بمدينة صدام والتي أعيدت تسميتها مدينة الصدر (الإمام المعروف الذي اغتيل في العام 1999) يصلون إلى خلاصة غير متوقعة وهي أن «الأمور كانت افضل في الماضي».

فهناك فئة كبيرة من السكان معنية بتأمين معيشتها اليومية، تتطلع إلى سقوط النظام من وجهة المصاعب المادية وانفلات حبل الأمن الذي نتج من هذا السقوط، وبهذا المعنى كانت تعيش في الواقع «افضل» في زمن كان على الأقل «يمكن الخروج من البيت من دون التعرض للخطر». فكيف لهؤلاء أن يؤمنوا بغد افضل طالما أن شروط حياتهم تتراجع؟ وكيف يقتنعون بنبل مقاصد التدخل الأميركي التي لا تزال تنتظر منه فوائد ملموسة أياً تكن هذه الفوائد؟ الشعور العام هو على

العكس أن «الأميركيين لا يفعلون شيئا».

بالفعل فإن الأسلحة تباع وسط الشارع ويغير الأكراد من دون عقاب على المدن العربية في شمال شرق البلاد في وقت يشن سكان مدينة الثورة غارات انتقامية في المجمعات البعثية القائمة في المسيّب والاسكندرية. المشكلات الأبسط لا تجد حلا، بما يتعارض مع القدرات الهائلة التي برهن عنها الأميركيون خلال الحرب، مخلفين الانطباع بأنهم قادرون على كل شيء شرط أن يرغبوا في إنجازه. إن سلبيتهم الظاهرة منذ سقوط بغداد تثير التساؤل العام.

شيئا فشيئا تشبه سياسة الأميركيين بسياسة صدام وينظر إليها على أنها امتداد لها. فقوات الاحتلال تحصنت في مواقع النظام السابق وأماكن ترفه حيث تقيم نظاما غير شرعي، محاصراً ومهتما فقط بالدفاع عن مصالحه الخاصة. وتلجأ هذه السلطة إلى القمع من دون تمييز في مواجهة أي تمرد. ترتسم إذن أمام أعين العراقيين صورة نظام لا يعذب أعداءه بل يقتلهم ويعيش في الرخاء خلف حصونه مرتكزا على نخبة اختارها وهي تابعة له تحتكر موارد البلد ولو بقي المواطنون يعانون الحاجة.

هكذا يرى العديدون في أزمة المحروقات سياسة مقصودة وخصوصا أن البنية التحتية النفطية لم تتعرض للدمار مما يؤدي إلى خلاصة الحرمان المتعمد والذي كان صدام حسين يحسن استخدامه. ويعبّر أحد الأمثال الشائعة هذه الأيام عن العودة المفترضة إلى الأساليب القديمة: «ذهب التلاميذ وحضر الأساتذة». والمفارقة أن الوجود الأميركي يجد مبرره في المصدر نفسه الذي برر وجود صدام حسين، أي الخشية من فراغ السلطة واحتمال قيام الفوضى[1] والعراقيون مجمعون على هذه النقطة أن واشنطن تريد إبقاء وجودها بإذكاء الفوضى وتفاقم العنف واستغلال انقسامات العراقيين.

وتفضح خطب المناسبات والشعارات حول «الوحدة العراقية» وعيا دقيقا لهذه الانقسامات المعقدة اكثر مما هو ظاهر. فالأكراد على سبيل المثال منقسمون جماعات صغيرة ذات مصالح متنافسة بينما لا يشكل السنة العرب طائفة بما للكلمة من معنى. والشيعة الخاضعون لسلطة الحوزة العلمية التي لا نقاش فيها والتي تجمع في مدينة النجف النخبة الروحية والعلمية في الطائفة، فإنهم لا يتبعون نهجا واحدا ومدرسة فكرية واحدة.

الواقع أن الخلافات لا تفرق فقط بين الطوائف بل بين الأحياء والعائلات وهي تخترق الأفراد أنفسهم الذين يقرون صراحة بازدواجية مشاعرهم. هكذا فإن الفئات التي صنفناها آنفا لا تتقاطع إلاّ جزئيا، ونادرة هي التصريحات المتماسكة والمواقف الحاسمة. وحدها بعض الشخصيات وخصوصاً الدينية تطالب من اليوم بانسحاب القوات الأميركية. باقي العراقيين يتخذون مواقف اكثر تحفظا وتناقضا وهم يبدون ضائعين أو كما يقول أحدهم «تحت صدمة» انهيار النظام. يقولون إنهم يدركون لؤم السياسة الأميركية لكنهم لا يُصدَمون بها كثيراً كأن اللؤم الذي أثار المشاعر في الغرب هو من طبيعة الأمور بالنسبة إليهم.

بيد أن البعض يشير إلى الاختفاء العجيب لـــ«أسلحة الدمار الشامل» أو لذريعة الإرهاب

المزيفة هي أيضا. لكن هذه الانتقادات وغيرها لا تشكل إضبارة اتهام متماسكة ومبرمة ضد السياسة الأميركية والقائمين عليها. في نهاية المطاف يبدو أن العراقيين لم يحفظوا من ذرائع الحرب سوى كلمة «حرية» وحول هذه الحرية تتمحور انتظاراتهم ومحاسبتهم لمن أعلنوا انهم محرروهم. لكن السكان لم يفهموا الحرية على أنها مجرد إفلات من سلطة صدام حسين وهم يطلبون شيئا غير هذه الفوضى والانفلات وحرب الكل ضد الكل.

إذا خيبت الإدارة الأميركية ما لوحت به من آمال فإنها ستواجه معارضة من كل جانب اكثر تنظيما مما تشهده الآن. وبالفعل فإن قوى سياسية مختلفة تملأ اليوم الفراغ الناتج ليس فقط من انهيار النظام بل أيضا من غياب السياسة الأميركية. فإلى أي حد يمكن أن يتحمل العراقيون بموقفهم العقلاني والمسؤول خطة التدخل الحد الأدنى هذه؟ وهل تنحني القوى المبعدة عن الحكومة الانتقالية أمام سلطتها المفتقدة إلى الشرعية؟

يشبه العراق في المحصلة لعبة مونوبولي ضخمة نظف الأميركيون رقعتها ليفرضوا عند اللزوم رابحا من اختيارهم. في غضون ذلك يسعى اللاعبون إلى تعزيز مواقعهم وقد احتل عدد كبير من الأحزاب من دون إذن مراكز النظام البائد المهجورة. ويكرر اكبر هؤلاء الأحزاب ممارسات الزبانية التي تذكّر بأسلوب صدام حسين كما يلاحظ العراقيون. فالسيد أحمد الجلبي يشتري الدعم من خلال دفع بدلات مقابل الانتساب إلى حزبه، المؤتمر الوطني العراقي، الذي يفتقر إلى القاعدة الشعبية. من جهته بدا رئيس الاتحاد الوطني الكردستاني جلال الطالباني توزيع الهواتف الدولية والأسلحة الفخمة على بعض الأعضاء المختارين في صفوف العشائر العربية.

كما استفاد بعض وجهاء الشيعة من انهيار المؤسسات بغية توسيع رقعة نفوذهم. وتطرح مدينة الثورة وسكانها الذين يتجاوز عددهم المليونين تحديات جدية لجهة إدارة شؤونها وتتولى المتابعة فيها شبكة منظمة من الأئمة الشباب من اتباع مقتدى الصدر، الوجه الصاعد في الحوزة العلمية. ويقوم هؤلاء الأئمة بتمويل المستشفيات والمراكز الثقافية الإسلامية وإدارتها والتي ظهرت مع سقوط النظام. ويشرفون في صورة غير مباشرة على الإدارة المدنية التي تتعهد حاليا حاجات التغذية الأساسية للمواطنين هناك.

ترتسم هكذا جغرافيا سياسية معقدة حيث لكل مدينة شكل تنظيمها الخاص، وفي بعض الحالات مثل الرمادي، يلعب زعماء العشائر دورا بارزا بينما يرجع هذا الدور في مدن أخرى إلى رجال الدين أو يمكن أن يتشارك رجال الدين والعشائر في إدارة الأمور الملحة، كما تقوم حالات من التنافس كما في الحلة حيث يعترض أمام المدينة الذي يتجاهله الأميركيون على حاكم المدينة الذي نصّب نفسه بدعم من قوات الاحتلال. بشكل عام يلقى نفوذ رجال الدين الريبة لدى قوات الاحتلال التي لا تدرك ما ترتكبه من خطأ في معاداتهم.

بدأ يبرز أول مقومات المقاومة للسياسة الأميركية. فالمقاتلون الشيعة من فيلق بدر[2] الذين سمح لهم بالعودة إلى العراق من دون سلاح للانضمام إلى عائلاتهم، جددوا أسلحتهم واحتفظوا بتنظيمهم السري. «الإخوان المسلمون» من السنّة دخلوا غرب البلاد بينما تتشكل مجموعات

مقاومة علمانية. فمثلا تنظم لقاءات لعناصر الاستخبارات السابقة يتبادلون فيها بمرارة أوضاعهم اليائسة مما قد يدفعهم إلى تنسيق أعمال على الأرض. كما أن بعض الشخصيات الدينية والقبلية تجاهر برغبتها اللجوء إلى المقاومة المسلحة إذا لم يحترم الأميركيون وعودهم.

في واقع الحال إن هذه المبادرات لا تنذر بتمرد قريب، فالعشائر والسلطات الدينية منهكة بعد خروجها من 35 عاما من حكم البعث. وبصورة عامة فالسكان متعبون من الحرب وعديمو التنظيم، وهم يعرفون أيضاً القوة العسكرية الهائلة التي يتمتع بها المحتلون. لذا فالوقت للحذر قبل كل شيء، وقبل الانتقادات المبدئية الموجهة لقوات الاحتلال. لكن لعبة سياسية تتشكل في صمت وتتجاوز رهاناتها المفاوضات الجارية في بغداد.

في هذا الإطار ولو افترضنا أن قوات الاحتلال لن ترتكب خطأ جسيما كاعتقال أحد رجال الدين الشيعة الكبار أو غلطة عسكرية كبيرة، يبقى أمامها تحديان رئيسيان. فمن جهة عليها تحمل المسؤوليات الملقاة على عاتقها في صفتها محتلة للعراق لم تدرك أن النظام السياسي الذي أقامه صدام حسين كان مقدرا له أن ينهار معه. وفي الملموس فإن مطالب الأهالي الملحة هي الأمن والتموين وبصورة معنوية يحتاج العراقيون إلى الأمل والى دليل ما على تحسن الأحوال. أما إغراق العراقيين في القنوط فنتيجته ستكون في طبيعة الحال بروز أشكال من العنف اليائس..

من جهة أخرى سيعني تشكيل حكومة انتقالية إقفال اللعبة السياسية على حساب بعض القوى فيكون الخطر اكبر في تصلب مواقف السلطات المحلية والسلطات المضادة المبعدة. لن تتمكن الحكومة المركزية من فرض سيطرتها بلا مصاعب. وكونها تشكلت بواسطة الأميركيين وتفتقر إلى وسائل الردع الخاصة بها، فإنها ستجهد على الأرجح في الحلول محل السلطات المحلية الشرعية نسبيا. إضافة إلى أن الحكومة الانتقالية ستمثل هدفا ملموسا ومرئيا للانتقاد اكثر من قوات الاحتلال وقد تضطر هذه القوات في نهاية المطاف إلى مساندة هذه الحكومة في وجه الشعب ويكفي، عندها حدوث اغتيال سياسي أو اغتيالين لتعقيد عمليات الانتقال المعلن نحو الديموقراطية.

في حال فشل تجربة الديموقراطية غير المسبوقة وغير المؤكدة والسيئة الإعداد، أي خلاصات يمكن أن نستنتج؟ بالطبع إن أنصار الاجتياح سيتهمون العراقيين بأنهم ممانعون إزاء الديموقراطية ولم يحسنوا الاستفادة من الفرصة النادرة التي أتيحت لهم برحابة. وسيتذرع هؤلاء مرة أخرى على الأرجح بجرائم صدام التي لا يمكن الدفاع عنها والتي تجسد الشر الذي كان يجب التخلص منه. وهذا ما يعفيهم من أي تفكير نقدي في الأسس التي تقوم عليها هذه العملية والتي كان مقدرا لها أن تحقق نجاحا أكبر.. لو أنها تمت باسم هدف أصيل هو الحرية. □

هوامش

(*) صحافي، اوتاوا.

(1) حول الشرعية الدنيا لنظام صدام حسين يمكن العودة مثلا الى مقال:

Fin de règne à Bagdad, Le Monde Diplomatique, février 2003

محاولة لتقييم مسيرة الإصلاح الزراعي

عبد الرزاق زبير

من مقالات الذكرى اليوبيلية للمجلة اخترنا لهذا العدد مقالة نشرناها قبل عشر سنوات بمناسبة الذكرى الخامسة والثلاثين لتدشين الإصلاح الزراعي. وحين يصل العدد الحالي إلى قرائه ، تكون قد حلّت الذكرى الخامسة والأربعين لتشين هذا الإصلاح الذي يعتبر من أبرز مشاريع ثورة ١٤ تموز.

كاتب المقالة ، الأستاذ عبد الرزاق زبير، هو أقدر خبرائنا في هذا الموضوع. فقد واكب جل مسيرة الإصلاح من داخلها، وطالع كل ما تيسر له من مؤلفات حول تجارب الإصلاح الزراعي في مختلف البلدان.

لقد كتب المقالة عام ١٩٩٣ حين كان في لندن لزيارة ابنته ندى وابنه سعد . وحرصا على سلامته من بطش النظام، لأنه كان على أهبة العودة إلى بغداد، نشرنا المقالة باسم المهندس الزراعي الوهمي حسين علي . ولم تمهله المنية ليشهد سقوط النظام ، إذ رحل يوم ٢٥ أيار ٢٠٠١ . وها نحن نعيد إليه حق نشر للمقالة باسمه هو. وبعدها مباشرة، يجد القراء ملامح سيرة هذا الوطني الجليل، وقد دوّنها هو بصيغة الغائب، وهي سيرة حافلة بالعطاء النضالي والمهني.

هذا ونأمل أن نكرس لكتاباته ملفاً خاصاً في المستقبل. (ث ج)

عند قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ كانت الملكية الكبيرة سائدة في الأراضي الزراعية. والأرقام التالية تعطينا فكرة واضحة حول ملكية الأراضي الزراعية:

- ٤٩ عائلة كانت تملك ما مجموعه حوالي ٥،٥ مليون دونم.
- ٣٥٢ شخصاً يملك كل منهم أكثر من ١٠ آلاف دونم وتتجاوز ملكية بعضهم ١٥٠ ألف دونم.
- ١٢٨ شخصاً يكونون ١٤ بالمئة من مالكي الأرض ويملكون ما مجموعه أكثر من ٦ ملايين دونم أي ١٩% من مجموع الأراضي الزراعية.

ـ ١٨ شخصا في لواء (محافظة) العمارة يملكون ما مجموعه ٢,٢٥ مليون دونم.

وجدير بالذكر أن مثل هذه الملكيات الضخمة للأرض لم تنشأ من «عرق جبين» وكفاءة المالكين الحاليين أو أسلافهم. فقد كانت الأرض أميرية، تملكها الدولة على مر العصور، ثم وضعت في مختلف العهود السابقة بتصرف أو حيازة شيوخ العشائر ووجهاء المدن وكبار موظفي الدولة بدوافع وذرائع وأشكال مختلفة. وهكذا سادت العلاقات شبه الإقطاعية التي في ظلها ساد الفقر والهزال والاضطهاد حياة الفلاحين، الذين كانوا يشكلون غالبية سكان العراق وقواه العاملة قبل ثورة تموز. وكان تخلف الزراعة وفقر شغيلتها وجهلهم عقبات حاسمة التعويق لتصنيع البلاد وتطورها الشامل. وبذلك كانت العلاقات شبه الإقطاعية من أهم عوامل استمرار تخلف الاقتصاد، وبالتالي تبعيته. فالزراعة كانت المصدر الأكبر للناتج المحلي، إذا ما استبعدنا منه إنتاج النفط الخام الخاضع لسيطرة الاحتكارات الأجنبية.

ومن دون تحرير الاقتصاد الوطني من التخلف والتبعية يبقى الاستقلال السياسي المتحقق هشا ويفقد الكثير من مغزاه في حياة أغلبية الشعب.

وعليه كان تحرير الاقتصاد من العلاقات شبه الإقطاعية ضرورياً لتقدم البلاد ومطلباً ملحاً لغالبية الفلاحين. وهكذا أعلنت السلطة الجمهورية قانون الإصلاح الزراعي في ٣٠ أيلول ١٩٥٨. وقد اعتُبِرَ من أهم منجزات العهد الجديد، حتى قيل إن الانقلاب الذي أنجزه الضباط الأحرار ما كان يستحق تسمية الثورة لولا تدشين الإصلاح الزراعي.

لقد تناول ذلك القانون ثلاثة أمور أساسية هي:

ـ تحديد سقف ملكية الأرض الزراعية والاستيلاء على ما زاد عنه بغية توزيعه على الفلاحين.
ـ إقامة تعاونيات زراعية تساعدهم على إدامة وتطوير الإنتاج.
ـ تنظيم العلاقة الزراعية وتحديد نسبة ما يُحسب من الناتج لكل من عوامل الإنتاج، أي تحديد حصتي الفلاح ومالك الأرض.

لقد حدد القانون سقفاً للملكية افتُرض أنه سيحرر حوالي ٤٠% من مجموع الأراضي الزراعية لتوزيعها على الفلاحين. وكانت بعض الأوساط المشاركة في السلطة ترى رفع السقف من ألف دونم إلى عشرة آلاف دونم لضمان «حياة لائقة» للملاكين. ولو أُخذ برأيهم لما تحرر من الأرض سوى حوالي ١٥%.

أما القانون الثاني الصادر في سنة ١٩٧٠ ، فقد خفض سقف الملكية. ويُفترض أنه يحرر هذا التخفيض ٢٠% أخرى من الأرض ليصل المجموع إلى ٦٠%. واعتبرت السلطة ذلك نهاية المطاف وأنه هو «الإصلاح الزراعي الجذري».

لئن كان الاستيلاء على ما زاد عن السقف المحدد من الأرض وتوزيعه على الفلاحين هو الهدف المرحلي للإصلاح الزراعي فإن هدفه الأبعد هو تطوير القوى المنتجة بما يؤدي إلى رفع مستوى الإنتاج الزراعي كماً ونوعاً، ليواكب ويدعم التنمية الاقتصادية والتطور العام للبلاد، بما

في ذلك نمو السكان وارتفاع مستوى المعيشة، في المدن على الأقل.

وشأن أية عملية اقتصادية ـ اجتماعية بهذه الضخامة والأهمية فقد ظل الإصلاح الزراعي مدار خلاف في الآراء والمواقف. وذلك يعكس، بصورة مباشرة وغير مباشرة، التناقض بين مصالح الفلاحين وكبار الملاكين الذين تربطهم علاقات شتى بتجار المدن وكبار موظفي الدولة.

فليس من الغريب، إذن، أن يؤثر ويتأثر الإصلاح الزراعي كثيراً بالحياة السياسية التي شهدت فوراناً عارماً منذ اليوم الأول للثورة. ففي حين اعتبرته قوى اليسار الجوهر الاجتماعي للثورة الوطنية الديمقراطية وطالبت بتعميقه. بينما تحالفت قوى اليمين لإبقائه عند الحد الأدنى، أو لتعويق تنفيذه، بل ذهب بعضها إلى حد استصدار فتوى بتحريم الصلاة على الأرض الموزعة بموجبه على فقراء الفلاحين.

وبطبيعة الحال، كان الصراع حول قضايا الإصلاح الزراعي يدور في خضم الصراع العام حول وجهة سير الثورة، وبالتالي حول السلطة. وقد أدى احتدام الصراع السياسي إلى نتائج وخيمة لم تكن في حسبان الوطنيين الذين عملوا على إسقاط الحكم الملكي. فلو أنهم قد أدركوا مسبقاً حدة التناقضات التي ستنفجر مع تدشين الإصلاحات اللازمة لإخراج البلاد من التخلف والتبعية، لسعوا، أغلب الظن، إلى وفاق حول قواسم مشتركة بشأن المهام التي ينبغي إنجازها بعد إطاحة السلطة الملكية، ولاتفقوا كذلك على بعض الضوابط لإدارة الصراع حول القضايا الخلافية.

إن مسيرة الإصلاحات التي دُشنت في العهد الجمهوري لا تساعدنا فقط على المعرفة العيانية لواقع مجتمعنا في الوقت الحاضر، بل تنطوي كذلك على دروس قيمة لكل الذين يعملون ليس فقط من أجل إسقاط الدكتاتورية ، بل كذلك من أجل إعادة البناء، المادي والروحي، لمجتمعنا، وهي عملية مديدة شاقة ينبغي أن نجنّبها أخطاء الماضي وعواقب الأوهام التي مازالت عالقة في بعض الأذهان.

الإصلاح الزراعي بين السياسة والارتجال

إن إنجاز مهمة بضخامة الإصلاح الزراعي يتطلب خطة تحدد الأهداف، وتشخص أولويات التنفيذ، وتتابع خطوات التنفيذ حتى يتم إنجاز العملية. وكل ذلك ينبغي أن يجري في ضوء الواقع القائم مع توفير متطلبات التنفيذ. ولكن «الهيئة العليا للإصلاح الزراعي» التي استحدثها القانون، المعلن في ٣٠ أيلول ١٩٥٨، لم تكن قادرة على أداء هذه المهمة، إذ غلب في تركيبتها رجال القانون. ولعبت الاعتبارات السياسية ، الناشئة عن احتدام الصراع بين قطبي السلطة (قاسم وعارف) ومؤيديهم،ا دوراً واضحاً في استعجال الإعلان عن بدء الإصلاح الزراعي قبل وضع خطة مناسبة وتوفير مستلزمات تنفيذها مع ضمان استمرار عملية الإنتاج الزراعي. ثم إن إنجاز المشاريع الزراعية يتطلب من الوقت والجهد والمال ما يزيد كثيراً عما تحتاجه المشاريع في أغلب القطاعات الأخرى. لذلك يلعب الاستقرار دوراً أساسياً في نجاح الإصلاح الزراعي. غير أن أهدافه وإجراءات تنفيذه ظلت عرضة للتغيير تبعاً لتقلب الاعتبارات السياسية المباشرة، خاصة في العهد الحالي، الذي بدأ بالمزايدة مع اليسار وبالغ في تدخل الدولة في الزراعة، ثم انتهى بالتنكر لعدد من إجراءات

الإصلاح الزراعي وتصفية القطاع الحكومي في الزراعة، واستيلاء الأسرة الحاكمة على عدد من أهم مؤسساته واراضيه بأبخس الأثمان. وفي غضون ذلك خضع القطاع الزراعي وعملية الإصلاح لاعتبارات وعواقب الحروب الداخلية والخارجية المدمرة، وكذلك لتقلبات مزاج الدكتاتور ومصالح حاشيته.

الملاكون والفلاحون والإدارة

تضمن القانون الأول للإصلاح الزراعي حق الملاك باختيار موقع الأرض الباقية له عند الاستيلاء على الأرض الزائدة عن سقف الملكية. وعند البدء بتنفيذ القانون، لوحظ أن الملاكين يختارون قطعاً في مواقع متعددة حسب جودة الأرض وسيطرتها على مجاري الري والبزل. وكان ذلك من أسباب احتدام نزاعهم مع الفلاحين، الأمر الذي ألحق ضرراً غير قليل بعملية الإنتاج. ومما زاد هذا الضرر سوءاً إغراق عملية الاستيلاء بشكليات قانونية أبطأت تنفيذه وأبقت الأرض الخاضعة للاستيلاء بيد ملاكيها. فنكص هؤلاء عن الوفاء بالتزاماتهم المعتادة لتمشية عملية الإنتاج.

ولم يجدِ فتيلاً إلغاء حق الاختيار للملاكين عام ١٩٧٠لأنه جاء بعد فوات الأوان، ولكثرة الاستثناءات التي نالها مؤيدو السلطة وحاشية رئيسها من أحكام القانون.

وينبغي الإشارة إلى أن تغيير الملكية الزراعية لابد أن يسبب في البداية تخلخلاً في العلاقات الزراعية له تأثير سلبي على عملية الإنتاج. وهذا ما شهدته مختلف البلدان التي طبقت الإصلاح الزراعي. ولتقليل هذا التأثير وتقليص فترة الارتباك كان ينبغي لجهاز الإصلاح الزراعي الذي حل محل المالك السابق للأرض أن يتولى إدارة العمل الزراعي في هذه الأرض وإشراك الفلاحين، الذين تهمهم هذه العملية أكثر من غيرهم، إشراكاً فعالاً في هذه الإدارة... وقد ضرب الفلاحون المتعاقدون بعقود جماعية مع الإصلاح الزراعي مثلاً طيباً في بعض المناطق على التعاون المثمر في مواصلة الإنتاج. وكان لجمعياتهم الفلاحية دور بارز في تعبئة جهودهم بهذا الاتجاه. ويروي زميل كان مهندساً للري في المنطقة الجنوبية واقعةً ذات دلالة. ففي بداية الإصلاح الزراعي تجمع في منطقة لزراعة الشلب حوالي ألف فلاح لعمل سدة وقتية (حمول) من القصب والبردي والتراب لغرض الري. فأنجزوا عملهم في يوم واحد، حتى قبل أن تعلم السلطة الإدارية بذلك. وكان مثل هذا العمل يستغرق في السابق أياماً طويلة، وذلك على أساس السخرة التي يفرضها على الفلاحين الملاكون بمساعدة الإدارة والشرطة.

غير أن مثل هذه المبادرات الإيجابية سرعان ما طالها الكبت بدل الرعاية والتعميم. فقد عملت السلطة على إخضاع حركة الفلاحين لسيطرة أجهزتها مستفيدة من الخلافات الحادة بين الأحزاب ذات النفوذ في الريف. ومعلوم أن الأجهزة الإدارية قد تربت على خدمة الملاكين والمساهمة في إخضاع الفلاحين لمشيئتهم. ولم يطرأ على تركيبتها تغير هام بعد تدشين الإصلاح الزراعي. فعملت على عرقلته وتحمست لقمع حركة الفلاحين وخنق مبادراتهم.

غير أن السيطرة الحكومية على الحركة الفلاحية اتخذت أبعاداً أشمل بعد انقلاب ١٧ تموز

١٩٦٨ وذلك في إطار عملية «التبعيث» القسري الذي مارسته السلطة على أوسع نطاق. وبات على منظمات الفلاحين أن تظهر التأييد لإجراءات السلطة حتى وإن كانت في غير صالحهم.

عند النظر إلى سلبيات توزيع أراضي الملاكين على الإنتاج الزراعي، ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار أن فقراء الفلاحين الذين كانوا يعانون الحرمان لابد أن يشبعوا بطونهم من منتوجهم حين تصبح الأرض ملكاً لهم. وواضح أن ارتفاع مستوى معيشة الفلاحين يمثل واحداً من أهم أهداف الإصلاح الزراعي. ومن شأن ذلك أن يؤدي إلى تحسن قواهم البدنية وبالتالي قدرتهم على العمل الذي يغلب عليه الطابع اليدوي. فليس جميع الهبوط في مقدار المحصول المسوّق في المدن من سلبيات الإصلاح الزراعي.

وسائل الإنتاج الزراعي

تنتفي الصفة الزراعية عن الأرض ما لم يتوفر لها الماء الكافي سواء من المطر أم بالري. ولأن فيضان دجلة والفرات في الربيع لا يتزامن مع حاجات موسمي الزراعة الشتوية والصيفية، فلابد من خزن المياه بالسدود لدرء مخاطر الفيضان ولتغذية النهرين في الصيف. ومن الضروري تنظيم توزيع مياه الري ابتداء من الأنهر الرئيسية حتى الجداول الحقلية بواسطة النواظم. ومنذ العصور القديمة أدرك مزارعو وادي الرافدين هذه الضرورة وعملوا وفقها بطرق بدائية مازالت متبعة في بعض المناطق (الخِرز في منطقة ديالى، والحمول في مناطق الأهوار). وفضلاً عن توفير طاقة كهربائية بكلفة رخيصة نسبياً، فإن السدود تساعد على توسيع رقعة الأرض المروية. وتنبع الحاجة إلى ذلك في العراق من حقيقة أن حوالي نصف الأراضي الديمية غير مضمونة الإنتاج لقلة وتذبذب سقوط الأمطار، علماً بأن حوالي ٦٠% من المحاصيل الشتوية، ولاسيما القمح، يأتي من المنطقة الديمية في الشمال.

وعليه فإن تحقيق الهدف البعيد من الإصلاح الزراعي يتطلب توسيع وتنظيم الري. وينبغي أن يرافق ري الأراضي الرسوبية في وسط البلاد وجنوبها تطوير البزل، لأن ارتفاع مستوى المياه الأرضية يؤدي إلى تكون السبخ، الذي كان من عوامل اندثار حضارات وادي الرافدين. فالبزل ينبغي أن يتلازم مع الري في الموقع والزمان، ابتداء من الجداول الحقلية إلى المبزل (المصب) العام. وقد عانت مشاريع الري والبزل من التأخير الذي أضر بالأرض الزراعية وأعاق تطور الإنتاج. و الأموال الهائلة، التي وفرها تصدير النفط للدولة، لو استثمرت في ميادين الإنتاج بدل إهدارها على التسلح والبذخ، لأحرز قطاع الري والبزل التقدم الذي يتطلبه رفع مستوى الإنتاج الزراعي واستصلاح الأراضي.

ولئن تأخرت مشاريع الري والبزل في المرحلة الأولى بسبب ضعف التخطيط وعدم الاستقرار وقلة الموارد نسبياً، فإن هذه المشاريع خضعت منذ ١٩٦٨ إلى الاعتبارات السياسية ومصالح العائلة الحاكمة وحواشيها، بل حتى لنزوات الدكتاتور. ومصير «المصب العام» المصمم في الخمسينات لنقل مياه المبازل إلى البحر نموذج للاستهتار والديماغوجيا في هذا القطاع. فأجهزة

الإعلام الحكومية لقبته «النهر الثالث» وكذلك «نهر القائد» وكأن غرضها الري لا البزل. فإذا تحقق تغيير وظيفة هذا المشروع فإنه سيلحق ضرراً كارثيا بالأرض الزراعية على المدى الطويل وذلك لأنه سيحرمها من تصريف مياه المبازل الفرعية.

وثمة أخطار كارثية أخرى تهدد الزراعة والاقتصاد الوطني ناجمة عن الشحة المتوقعة للمياه المتدفقة من تركيا بسبب مضيها في إقامة المشاريع المائية الضخمة في أراضيها دونما اعتبار لحاجات العراق وسورية.

وجدير بالذكر أن من عيوب قانون الإصلاح الزراعي الأول أنه اعتمد التوزيع الفردي للأرض مما زاد في مشاكل الري والبزل. فاستقلال كل فلاح بأرضه يتطلب تنظيم الري والبزل لها على انفراد. وفضلا عما يتطلبه ذلك من مال ووقت، فإنه يزيد استهلاك مياه الري، ويؤدي إلى تفاقم ارتفاع مستوى المياه الأرضية وبالتالي زيادة السبخ. وكانت الزراعة قبل الإصلاح تجري، في الغالب، بأسلوب النيرين للتقليل من ارتفاع الملوحة. فكان الفلاحون يركزون الزراعة في جانب من الأرض، فيقتسمون مساحتها ومياه ريها ثم يتركونها في السنة التالية بورا ويتحولون إلى الجانب الآخر. ولابد من التخلي عن الأسلوب البدائي عند استكمال شبكة الري والبزل واستصلاح الأراضي.

أما القانون الثاني لعام ١٩٧٠ فقد أقر التوزيع الجماعي إلى جانب التوزيع الفردي للأرض، لكن ذلك جاء بعد فوات الأوان حتى لو طبق التوزيع الجماعي الذي ظل في الواقع حبراً على ورق.

ولا يستوي الحديث عن الري دون التطرق إلى المضخات. فلعدم كفاية النواظم على الأنهر والجداول لتنظيم وتوزيع مياه الري، لاسيما في حوض دجلة الذي ترتفع ضفافه عن مستوى الماء أكثر من نهر الفرات، بقيت الزراعة في مناطق كثيرة على السقي بالواسطة كالمضخات والنواعير والكرود. وهي تمثل حوالي خُمس الأراضي المروية وثُمن الأراضي الزراعية. وتكون الزراعة في الأراضي التي تسقى بالواسطة أعلى كلفة منها في الري سيحاً. وكانَ ذلك من أسباب قلة المضخات قياساً إلى الحاجة. وقد استولى الملاكون على أغلب المضخات بموجب حق «الاختيار» وكرسوها لسقي الأرض التي أبقاها الإصلاح الزراعي لهم، وذلك رغم أن دوائر الري كانت قبل الإصلاح قد أجازت نصب وتشغيل المضخات لسقي كل الأرض. وقد أدى حرمان الأرض الموزعة على الفلاحين من الماء إلى تركها بدون زراعة وبالتالي هبوط الإنتاج وتزايد النزوح إلى المدينة. و تحولت المضخات أحياناً الى وسيلة لإخضاع الفلاح إلى سيطرة الملاك حتى بعد أن ملك أرضا. وظل دور الدولة ضعيفاً في سقي الأرض بالمضخات ، وذلك لأن أكثر من ٩٠% من هذه المضخات ان عائدا إلى القطاع الخاص. وكان بوسع الدولة إنشاء محطات لضخ الماء تساعد على تلافي النقص لحين استكمال مشاريع الري.

وعند بدء الإصلاح الزراعي كانت الساحبات تلبي أقل من ١٠% من حاجة الزراعة، وهي مملوكة للقطاع الخاص الذي تسرب إليه كذلك أغلب الساحبات المستوردة والمنتجة محلياً، بحيث أصبح يملك أكثر من ٩٠% من الساحبات. وكان عدد غير قليل من ساحباته يستخدم خارج القطاع الزراعي، حيث الربح الأعلى. أما بالنسبة للحاصدات فيملك القطاع الخاص حوالي ٧٠% من

مجموعها. ولا يختلف الوضع كثيرا بالنسبة للمعدات الزراعية الأخرى. وقد صفيت محطات المكائن الزراعية التي أنشأتها الحكومة في البداية، وذلك حتى قبل الشروع بتصفية منشآت القطاع الحكومي في أواخر الثمانينات.

ولم يكن لدى الفلاحين المستفيدين من الإصلاح الزراعي من وسائل الإنتاج غير المسحاة والمنجل. فكانوا بأمس الحاجة إلى التسليف الحكومي لتوفير البذور والسماد ومواد المكافحة.. الخ. وقد تخلف عن القيام بالتسليف جهاز الإصلاح الزراعي الذي حلّ محل المالك. فحسب الإحصاءات الرسمية لم يتجاوز التسليف في السنة الأولى مليون دينار، وفي السنة الثانية مليون ونصف المليون دينار. ولم تحصل التعاونيات التي شملت الفلاحين في أراضي الإصلاح الزراعي إلا أقل من ١٥% من مجموع القروض الحكومية حتى الثمانينات.

مازالت الدواب وسيلة ضرورية للإنتاج النباتي ولنقل المحاصيل. ويمثل الإنتاج الحيواني جانبا متزايد الأهمية من الإنتاج الفلاحي. وقبل الشروع بالإصلاح الزراعي كانت العناية طفيفة بالثروة الحيوانية. فلتربية الماشية اعتمدت في الغالب على المراعي الطبيعية غير المضمونة لأنها خاضعة للظروف المناخية شأن الزراعة الموسمية. وكان المفروض تطوير هذه الثروة بموازاة نمو السكان وارتفاع مستوى معيشتهم. وقد حفز نمو الطلب على المنتجات الحيوانية القطاع الخاص للاستثمار بنطاق محدود، خاصة في تربية الدواجن. وتوسع القطاع الحكومي في الإنتاج الحيواني وتجارته. ولكن دوره ظل محدوداً بالقياس إلى تنامي الحاجة.

كان على القطاع الحكومي أن يتولى مجالات الإنتاج الحيواني التي يحجم القطاع الخاص عن دخولها كإنتاج العلف المركز الذي يتطلب مشاريع ضخمة وتحتاج إلى خبرات واسعة لدراسة واستغلال المواد الأولية المتوفرة محليا. والعلف المركّز ضروري لإنتاج العلف للماشية والدواجن. وكان يفترض من القطاع الحكومي دعم الزراعة والفلاحين بإنتاج السلالات المحسّنة والمحصّنة من المواشي والدواجن والأسماك وبيعها إلى القطاع الخاص. ولا يتوقع من القطاع الخاص دخول مجال البحوث الحيوانية والنباتية، فهي من المجالات التي يفترض بالقطاع الحكومي أن يتولاها. وكذلك الحال بالنسبة لإنشاء المراعي الاصطناعية الواسعة في المناطق الديمية والمروية معاً.

لكن المشاريع الحيوانية التي أنشأتها الدولة، خاصة في السبعينات، دون دراسة كافية لجدواها، وأنفقت عليها أموالاً لا مبرر لضخامتها، قد عهدت بإدارتها، في الغالب، إلى حزبيين دون لا تتوفر فيهم النزاهة والكفاءة اللازمتان. ثم ما لبثت أن باعت هذه المشاريع في الثمانينات للقطاع الخاص بثمن بخس. وكانت العائلة الحاكمة وشركاؤها ومؤيدوها أول المستفيدين من هذا التحول بعد أن احتلبوها وهي ملك الدولة.

استنتاجات ومقترحات

عند تدشين الإصلاح الزراعي لم تتوفر لدى السلطة الخبرات والموارد اللازمة لإنجاحه. ويمكن القول إنها لم تستثمر حتى ما كان لديها من خبرات وموارد على شحتها. وكان لاحتدام

الصراع بين القوى الوطنية دور حاسم في إرباك مسيرة الإصلاح، وكبح الحركة الفلاحية المستقلة عن السلطة.

أما النظام الحالي فلم يعان من شحة الموارد والخبرات اللازمة للنجاح. يكفي القول إنه زج البلاد في الحرب ضد إيران وتحت تصرفه حوالي ٣٥ مليار دولار من المال الفائض عن حاجاته الآنية. فقد استنزف خلال الثمانينات مئتي مليار دولار، خاصة على الحرب والعسكرة: فبات العراق مديناً بحوالي ٨٠ مليار دولار، وفوق ذلك جاءت تعويضات الحرب بقرار مجلس الأمن.

ثم إن المرحلة الأولى من الإصلاح الزراعي قد راكمت المعرفة والخبرة بشأن هذه العملية. غير أنه ظل يهدر الموارد الهائلة على العسكرة وأجهزة الإرهاب وعلى مظاهر الأبهة والبذخ المفرط. كما غلّب الولاء السياسي على النزاهة والكفاءة في تعيين أغلب المسؤولين عن القطاع الزراعي. ورغم أن القانون الذي أصدره عام ١٩٧٠ للإصلاح الزراعي كان، في نواح عديدة، متقدماً على القانون الأول، فإن تنفيذه قد خضع للأهواء السياسية والذاتية، ولمتطلبات وعواقب حروبه الداخلية والخارجية. وكذلك الأمر بالنسبة لكثير من المشاريع الزراعية والحيوانية والإروائية. وتكفي الإشارة هنا إلى تدمير بضعة آلاف من القرى الكردية وإبعاد أهلها عن الإنتاج الزراعي والحيواني وحجرهم في المجتمعات القسرية. فهلكت مواشيهم وبساتينهم وحل الخراب بالغابات الطبيعية. وتضرر بعض منشآت الري في الجنوب إذ سدت السواتر والاستحكامات العسكرية مجاري الماء. وحل بالنخيل دمار، لا سابق له ، جراء الحرب مع إيران وقمع الانتفاضة الشعبية في آذار ١٩٩١. وإن الحروب وتوسيع أجهزة القمع وتحويل معدات الزراعة إلى خدمة النشاط الحربي قد ساعدت على تسارع الهجرة من الريف واستنزاف قواه العاملة. ومثل غيرها من قطاعات الإنتاج والخدمات، تعاني الزراعة في الوقت الحاضر من عواقب العقوبات الاقتصادية. وهاهو الدكتاتور يحاول إنعاش الرموز العشائرية التي أوهنها الإصلاح الزراعي والتطور الثقافي، وذلك بهدف العثور على حلفاء يواجه بهم نقمة الشعب عليه.

كيف، إذن، نقيّم حصيلة الإصلاح الزراعي خلال أكثر من ثلاثة عقود منذ صدور قانونه الأول في خريف عام ١٩٥٨؟

لقد انتهت عملية الاستيلاء والتوزيع بالنسبة لأغلب الأراضي الزائدة عن سقف الملكية المقرر في القانون، وبذلك يُفترض أن أكثر من نصف الأرض الزراعية قد تحرر من سيطرة الملاكين وتحول إلى حيازات صغيرة للفلاحين. و هكذا تقلصت ،إلى حد كبير، رقعة الأرض الزراعية التي كانت تستثمر وفق العلاقة شبه الإقطاعية وهي علاقة تنطوي على استغلال مريع للفلاحين المحاصصين وتبقيهم في حالة من العوز والسقام والجهل. وكانت تلك العلاقات المتخلفة عائقاً أساسياً أمام تصنيع البلاد وتقدمها الحضاري. وقد تغلّفت في مناطق كثيرة تقاليد الولاء العشائري للشيخ الذي يملك الأرض وتختاره السلطة الملكية عضواً في برلمانها عن سكان منطقته وأغلبهم من ضحاياه الفلاحين.

ويفترض أن يؤدي تقليص الأرض التي بحوزة الملاك إلى دفعه لاستثمارها على أساس

رأسمالي يساعد على تطوير سريع لوسائل وطرق الإنتاج. فتنشأ بين المالك والعامل الزراعي، الذي يستخدمه، علاقة رأسمالية تنطوي على استغلال أقل جورا مما كان عليه استغلال الفلاحين.

أما الفلاحون الذين انتفعوا من توزيع الأراضي فقد تباينت مصائرهم، إذ تقدم الإنتاج وارتفع مستوى المعيشة في الأراضي القريبة من أسواق المدن، والجيدة من حيث الخصوبة وتوفر الماء لها، فضلاً عن التسليف. أما الأراضي المحرومة من الماء والبعيدة عن المدن والتي لم تتوفر السلف لاستثمارها، فقد اضطر مالكوها الجدد إلى تركها أو تأجيرها والبحث عن عمل في المدن. فالأهم من سند الملكية ،الذي كان يحلم به، أن تتوفر له مستلزمات الإنتاج التي ترفع مستوى محصوله ومعيشته.

أما الإنتاج الزراعي فلم يحقق منذ الإصلاح الهدف المرجو، بالنسبة للحبوب، على الأقل. والجدول أدناه يبين أن إنتاج القمح والرز والشعير والذرة لم يواكب في العقدين الماضيين نمو السكان وتدفق العمالة الأجنبية. ففي مطلع السبعينات كان المعدل السنوي لإنتاج الحبوب للفرد من السكان ٢٥٩ كيلو غرام لكن هذا المعدل هبط إلى ٩٥ كيلو غرام في نهاية الثمانينات. وتلافيا للعجز المتصاعد بات من الضروري زيادة الاستيراد من هذه المحاصيل الضرورية لغذاء العراقي. ففي بداية السبعينات كان الاستيراد يسد ١٦% من حاجة البلاد إلى هذه الحبوب. ثم قفزت نسبة استيرادها إلى حوالي ٧٤% من حاجة البلاد في أواخر الثمانينات. وبتعبير اخر تدهور الأمن الغذائي إلى حد خطير خلال العقد المنصرم. فواضح أن النظام لم يقم وزنا لتأثير هذا التدهور الخطير حين زج البلاد في الحرب ضد ايران في مستهل الثمانينات لأن محرضيه على الحرب أوهموه أن الحرب لن تستغرق أكثر من بضعة أيام. أما حين امتدت إلى ثمانية أعوام فكان النظام لا يخشى من انقطاع واردات الحبوب لأنه كان يدرك أن تلك الحرب كانت تخدم جهات إقليمية ودولية عديدة . لكن هذه ا التي سارعت إلى فرض الحظر الاقتصادي على العراق عقب غزو الكويت، هذا الحظر الذي يمثل كارثة تضاف إلى عذاب وخراب الحروبي الخليج والحرب الداخلية المستديمة ضد الشعب منذ ١٩٦٨. فرغم أن الغذاء والدواء غير مشمولين بالحظر إلا أنه يسري على تصدير النفط الذي يدر النقد الأجنبي لتمويل جميع الاستيراد، خاصة وأن نهج النظام أدى إلى تفاقم اعتماد الاقتصاد العراقي على عوائد النفط. ثم إن الحظر يشمل وسائل الإنتاج، بضمنها احتياجات القطاع الزراعي.

المعدل السنوي للفترة	المساحة ألف هكتار	إنتاج الحبوب ألف طن	حصة الفرد مئة كغم	نسبة الاكتفاء من الإنتاج المحلي
١٩٧٢-٧٠	٢٥٥٢	٢٥٣٥	٢٥٩	%٨٤
١٩٨٦-٨٤	٢٩٦٠	٢١١٠	١١٩	%٣٢
١٩٩٠-٨٩	٢٢٧٥	١٧٧١	٩٥	%٢٦

ولئن أخفق الإصلاح الزراعي في تحقيق هدفه الدائم في إنهاض الإنتاج الزراعي، النباتي والحيواني، فإن الخطأ ليس في مبدأ الإصلاح الزراعي، بحد ذاته، بل في الظروف السياسية

والثقافية التي أحاطت به. وبالمثل لا يصح، مثلاً، تخطئة تأميم حصة الاحتكارات الأجنبية، التي كانت مهيمنة على ثروتنا النفطية، لأن النظام أهدر الزيادة الهائلة في عوائد النفط على العسكرة وأجهزة الإرهاب والتضليل وشن الحروب الداخلية والخارجية. فالعلة في الدكتاتورية التي لا تخضع للمساءلة عن كل تصرفاتها وإن جلبت الكوارث.

المهم، كما أسلفنا، أن تستفيد القوى الساعية إلى البديل الديمقراطي من دروس العقود التي مضت، فتأخذها بعين الاعتبار عند رسم برنامج البناء السلمي الديمقراطي الذي يعقب الإطاحة بالدكتاتورية. ولابد من الحوار الجاد المتسامح حول المهام العامة، وكذلك حول أبرز المهام التي تخص قطاعات الاقتصاد.

وبقدر ما يتعلق الأمر بالقطاع الزراعي يمكن مناقشة المهام التالية ذات الأسبقية، كما نرى:

- توسيع ودعم مؤسسات التسليف الزراعي كي تقدم ما يكفي من القروض لنهوض الإنتاج الزراعي.
- إعادة بناء القرى المهدمة ومساعدة أهلها على الرجوع إليها وممارسة الإنتاج الزراعي وتعويضهم.
- إطلاق حرية النشاط التعاوني في الريف بعيداً عن هيمنة الدولة.
- ترميم وتشغيل منشآت الري التي تضررت بالحرب.
- توفير الأسمدة والمبيدات والمعدات الزراعية، خاصة من الإنتاج الوطني وتوظيف الصناعة العسكرية لهذه الغاية.
- بذل نشاط دبلوماسي على الصعيدين الإقليمي والدولي لضمان تدفق حصة عادلة من المياه في الفرات ودجلة.
- تشجيع صغار المزارعين على إنشاء شركات تعمل على أساس وحدة مصدر الماء والبزل ونوع المحصول في المنطقة المعنية.
- تشجيع الشركات التي تأخذ بأسلوب الإنتاج الواسع للمحاصيل الأساسية لغذاء السكان (الحنطة والرز والشعير).
- استكمال شبكات الري والبزل والسدود والخزانات وما تتطلب من نواظم ومحطات.
- دعم صغار المنتجين في زراعة الفواكه والخضر.
- قيام الدولة بإنشاء المشاريع الحيوانية الضخمة، مثل مشاريع إنتاج العلف المركز المراعي الاصطناعية.
- تمويل وتنظيم الدولة للبحوث الزراعية (النباتية والحيوانية) لخدمة تطوير القطاع الزراعي.
- تطوير شبكة السايلوات والمخازن المبردة. □

لندن ١٩٩٣

عبد الرزاق زبير:

ـ ولد في بغداد بمحلة باب الشيخ سنة ١٩٢٠.

ـ أتم دراسته في بغداد ـ التسابيل الأولية، العوينة الابتدائية، المتوسطة الشرقية، الثانوية المركزية، كلية الحقوق العراقية وتخرج فيها سنة ١٩٤١، ثم دورة ضباط الاحتياط سنة ١٩٤٢ وكان الأول فيها.

ـ مارس المحاماة مدة طويلة بفترات متعددة بدءا من سنة ١٩٤٢ في العمارة، في بغداد بدءاً من سنة ١٩٥٤.

ـ انتخب عضواً لمجلس نقابة المحامين، وسكرتيراً لها لسنتي ١٩٥٤ و١٩٥٦.

ـ أشغل وظائف رسمية:

رئيس بلدية العمارة في ١٩٤٤، واستقال منها في ١٩٤٦. * عضو الهيئة العليا ومدير عام الإصلاح الزراعي منذ صدور قانون الإصلاح الزراعي الأول في ١٩٥٨، ثم عضواً في الهيئة الاستشارية للإصلاح الزراعي حتى فصله من الوظيفة في ٨ شباط ١٩٦٣. * مفتش عام الإصلاح الزراعي في ١٩٦٨. * مدون قانوني بوزارة العدل ١٩٧١ حتى إحالته على التقاعد في سنة ١٩٧٩.

ـ اهتم بالمسألة الزراعية في العراق، ابتداء في العمارة ـ بلد الإقطاع الأول ـ وكان إلى جانب الفلاحين والمزارعين الصغار في عمله بالمحاماة.

ـ شارك في اللجنة الرئيسية التي كلفت بدراسة ووضع مشروع الإصلاح الزراعي إثر ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

ـ شارك في وضع قانون الإصلاح الزراعي الثاني سنة ١٩٧٠.

ـ تولى تدريس مادة الإصلاح الزراعي في كلية القانون والسياسة بجامعة بغداد للفترة ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤، وله محاضرات مطبوعة بالرونيو فيها.

ـ أشرف على رسائل للدراسات العليا ـ ماجستير ودكتوراه تتعلق بالإصلاح الزراعي في الكلية المذكورة.

ـ نشر عدة بحوث عن الإصلاح الزراعي، والإصلاح القانوني في العراق.

ـ شارك في ندوات تتعلق بالاقتصاد وخاصة الاقتصاد الزراعي محلية وعالمية.

ـ شارك في مشروع إصلاح النظام القانوني في العراق.

ـ اختير عضواً في مجلس السلم الوطني منذ تأول تأسيسه في ١٩٥٤، ثم عضواً لمجلس السلم العالمي، وشارك في ندوات واجتماعات مجلس السلم والتضامن في أقطار عدة في آسيا وأوروبا وإفريقيا.

ـ كان مع الحركة الوطنية الديمقراطية منذ مرحلة الدراسة الثانوية وتحمل أعباءها:

انضم إلى حزب الشعب سنة ١٩٤٦. * سجن لمدة ٣ سنوات في سنة ١٩٤٨ بموجب الأحكام العرفية المعلنة إثر الوثبة، قضى مدة سجنه في سجن الكوت ونقرة السلمان. * نفي إلى شفاثة (عين التمر) للفترة ١٩٥١ ـ ١٩٥٢. * اعتقل في معتقل السعدية سنة ١٩٥٦ إثر العدوان الثلاثي على مصر. * أوقف لمدة ١٣ شهراً إثر انقلاب شباط ١٩٦٣، وكان من ركاب قطار الموت إلى سجن نقرة السلمان. * كان قد أوقف لأول مرة لفترة ساعات في سنة ١٩٣٣ وكان بعمر ١٣ سنة إثر إلقائه خطاباً في حفل للمولد النبوي في جامع سراج الدين ندد فيه بالاستعمار الإنكليزي والصهيونية.

ـ كان شغوفاً بالعمارة وبالأهوار.

ـ كان صديقاً حميماً للحزب الشيوعي في الرأي والعمل.

ـ كرس الكثير من إمكانياته للحركة الوطنية الديمقراطية وشارك في الكثير من فعاليتها على مختلف المستويات.

هل طوت ثورة تموز ١٩٥٨ فصلها الأخير؟

كامل شياع

الحاضر يخبرنا عن الماضي أكثر مما يخبرنا الماضي عن الحاضر، والظاهرة الأكثر تعقيداً تكشف أسرار الظاهرة الأقل تعقيداً، وليس العكس. من هذا المنظور سأناقش ثورة الرابع عشر من تموز التي احتفل العراقيون بذكراها الخامسة والأربعين. الفكرة المطروحة هنا أن الحقبة الجمهورية الأولى التي دشنتها تلك الثورة قد طوت فصلها الأخير يوم سقوط بغداد في التاسع من نيسان الماضي. في ذلك اليوم، حانت نهاية حاكم مستبد، وتهاوت صروح نظام شرس جلبت سياساته كوارث للعراق والمنطقة.

إلا أن القصة لا تقف عند هذه الحدود، فإزاحة الحاكم ونظامه انطوت، برأينا، على إزاحة المشروع التاريخي للحقبة الجمهورية الأولى. التزامن بين هاتين النهايتين يبدو إشكالياً. فهناك اختلافات بيّنة، أيديولوجية وسياسية، تميّز الأولى عن الثانية، وهناك أيضاً تشابهات عديدة بينهما لا يصح إغفالها. فالثورة التي هيمن على سنواتها الأولى اتجاه برجوازي ديمقراطي وطني مدعوم من اليسار، انتقلت قيادتها إلى تحالف قومي بعثي هش تصادمت أجنحته بعنف قبل أن يستقر الأمر للبعثيين منذ عام ١٩٦٨. في سياق الانتقال صعد رجال وغُيّب آخرون، وبرزت رموز وطُمست أخرى. أما المحصلة الأخيرة، التي تتجاوز أدوار الرجال وأفعالهم، فجاءت بجواب حاسم على الصراع المحتدم بين الخطاب القومي الوحدوي والخطاب الوطني العراقي لصالح الأول. وهذا وجه أساسي من وجوه الاختلاف. أما عن التشابه فمن علاماته موقف جذري إزاء القطاعات الاقتصادية الرئيسية (النفط، الزراعة والصناعة). ومن علاماته أيضاً أن غلبة الخطاب والشعار ما كانت إلا مسألة شكلية، الغلبة الحقيقية كانت للاستحواذ على السلطة والانفراد بها؛ وأن الميل إلى حكم مركزي صارم وجد تجسيداته طيلة خمسة وأربعين عاماً في التعامل مع قضايا المجتمع ككل، والقضية الكردية، بشكل خاص.

هكذا نجد أنه رغم اختلاف الأولويات، فإن العديد من المقدمات السياسية التي أرستها ثورة تموز ١٩٥٨، آلت فعلياً إلى نتائج اقترنت بحكم البعث. هل كانت تلك المقدمات تسمح بنتائج مخالفة؟ نعم، ولكن فقط على صعيد التصورات النظرية والاحتمالات المجردة، حيث لا حاجة

هناك لأن نضع في الحسبان الضرورات الملموسة والمصادفات المفاجئة، ولا الظروف المتغيرة، ولا أدوار الأفراد. على هذا المنوال يمكن أن ننسج حكايات وروايات، لكننا سوف لا ندرك أين بدأ التاريخ الفعلي وأين توقف، ولا نقترب من مادته الصلبة التي صنعتها تلك العوامل مجتمعة.

احتلال أمريكا للعراق حدث فاصل حول كل «الثورات» والانقلابات والنزاعات، التي شهدها العراق طيلة السنوات الخمس والأربعين الماضية، إلى تفاصيل في مسار حقبة واحدة، نسميها الحقبة الجمهورية الأولى. لنبدأ من البداية، ولنتوقف أولاً عند الحدث المؤسس لتلك الحقبة. في كتابه «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق» أورد حنا بطاطو ملاحظة عميقة، تستوقفني دائماً، فحواها أن ما حصل في العراق عام ١٩٥٨ لم يكن مجرد تغيير شكلي في الحكم. فالمسألة لم تقتصر على إنهاء الملكية وإضعاف مواقع الهيمنة الغربية على المشرق العربي، بل جلبت تأثيراً عميقاً لمصائر جميع الطبقات. لذلك يستخلص بطاطو أن «الثورة بقلبها لبنية السلطة القديمة، والتشكيلة الطبقية القديمة، قد أخلّت بالتوازن القلق بين مختلف الجماعات الأثنية والطائفية في العراق، وبشكل أساسي بين العرب والأكراد، والشيعة والسنة، وذلك نتيجة لتباين مستويات التطور -الاجتماعي لهذه الجماعات. لهذه الأسباب، علاوة على الانقلابات المتكررة، فإن الثورة ما زالت في طور صيرورة، ومن غير المؤكد أنها ستبلغ حالة توازن اجتماعي دائم في المدى المنظور». (عن الطبعة الإنكليزية ص ٨٠٧)

حقاً، إن ثورة تموز ١٩٥٨ دشنت سياقاً تاريخياً يختلف جذرياً عمّا سبقه من نواحي القضايا التي تبنتها، القوى المحركة لها، والأفق التاريخي لمشروعها التحرري. لنصف أولاً، بخطوط عريضة، تلك المحددات الثلاثة للثورة. فقضاياها الأبرز تمثلت في إنهاء الحكم الملكي ومعه التبعية للاستعمار البريطاني، استكمال عناصر السيادة والاستقلال، تقليص العلاقات الإقطاعية وتحرير الثروة النفطية، بناء نظام سياسي تمثيلي يتبنى الديمقراطية وحلّ القضية الكردية. أمّا قوى الثورة فضمت أحزاباً علمانية، من برجوازية وطنية وشيوعية وقومية. وكان الجيش ذراعها الضارب. فيما يخص أفقها التاريخي فقد توفر على خلطة من أهداف بدت مترابطة في وقتها، حيث اقترن إتباع سياسة الحياد الإيجابي مع تقارب مع الدول الاشتراكية، وإقامة حكومة وطنية مع تمهيد لوحدة عربية، وتدشين تعددية سياسية مع مفهوم تقليدي «كاريزماتي» للرئاسة.

والآن، بعد سلسلة من المنعطفات الحادة والمغامرات المدمرة، يبدو أن تلك المحددات قد استنفدت زخمها، وبلغ العراق طريقاً مسدوداً. مؤشراته لاحت في غزو الكويت عام ١٩٩٠، ثم تفاقمت خلال سنوات الحصار القاسي الذي فعل فعله في شلّ النشاط الاقتصادي، وخلخلة سطوة الدولة (باستثناء وظيفتي القمع والفساد) والإخلال بتوازن المجتمع نتيجة إحياء العشائرية والطائفية وبروز ظاهرتي الفقر والأسلمة. بعد سقوط نظام صدام الذي كان الثمرة المرّة لنبتة طيبة، نسأل: أما زالت هناك إمكانية عودة، للاستئناف أو للتصحيح، باتجاه مرحلة ثورة ١٩٥٨ بقضاياها وقواها وآفاقها؟ وهل يسمح الاختلاف بين الزمنين، وهو أمر لا يمكن تفاديه موضوعياً، بالإدعاء إن الحقبة التاريخية طور التأسيس قد طوت سابقتها نظرياً، وستنسخها فعلياً بصورة تدريجية؟

على السؤال الأول نجيب بالنفي، فليست هناك مهمة مركزية ثابتة تنتظر استئنافها، بل هناك

صيرورة متعرجة ومعقدة تتضمن تراجعا وتقدما دائمين. ولا يكفي الإقرار بحتمية دخولنا التاريخ العالمي للرأسمالية كي نسبغ التماثل على المرحلتين، لأن تلك قضية مفروغ منها. المهم هو تشخيص الأشكال المتاحة والحالات الظرفية لعملية الدخول. وهنا تجتمع مصادفات ومفارقات من شتى الأنواع، منها أنه خلال عمرها القصير، أنزلت ثورة تموز ضربة قوية بالعلاقات ما قبل الرأسمالية، ومهدت لسيادة الوعي المديني على الوعي الريفي، وعززت عوامل التماسك الاجتماعي والوطني مقابل عوامل التفتت الطائفي والقومي والأثني. أما اليوم، حيث المطروح هو التحول الحاسم صوب العلاقات الرأسمالية في الإنتاج، فنلاحظ أن الأساس السياسي والاجتماعي لهذا التحول يقتضي الاعتراف بالعلاقات التقليدية ما قبل الرأسمالية، وربما تكريسها إلى حين يطول أو يقصر. ولكوني لا أعتقد بالمسار الخطّي للتاريخ (رغم إيماني بالتطور)، أظن أنه سوف لا يترتب، بصورة مباشرة، على التحول الجاري في العراق تفتيت منظومة الولاءات التقليدية ـ العشائرية والدينية ـ والقيم الأبوية التي تعزى إلى نمط الحياة ما قبل الرأسمالي. الأرجح أن هذا التحول سيقود، ضمن المدى المنظور، إلى نموذج هجين (بالمقارنة مع نظيره الغربي) لعلاقة الدولة بالمجتمع، التقاليد المتوارثة بأنماط الحياة الحديثة، الدين بالسياسة؛ نموذج يؤمّن شروط التبعية للرأسمالية «الفعلية»، دون أن يستهدف صهر مكونات المجتمع، الأصلية أو المصطنعة، في قوالب سياسية جاهزة مستمدة من تراث النزعة الإنسانية والقيم الليبرالية. ومن تعايش العناصر المتناقضة لهذا النموذج، تنبثق نسختنا الخاصة من مشروع الحداثة التاريخية.

وعلى الثاني نجيب بالإيجاب. فثمة بوادر تحوّل تاريخي من دولة تسلطية أخذت مدياتها الكاملة في زمن حكم البعث، إلى دولة «ديمقراطية» طور التأسيس. الأمر يتعلق بقضيتي الوظيفة الاقتصادية للدولة، وطابعها التمثيلي وسلطاتها الفعلية. وهذا، برأيي، هو الخط الفاصل بين عهدين تاريخيين. خلال السنوات الخمس والأربعين الماضية، لم تتقاطع القضيتان المذكورتان بهذه الحدّة، ولم تطرح مراجعة شاملة لمضمون الدولة الوطنية، لغرض الانتقال بها من دولة الحزب الواحد والقائد الواحد والأيديولوجيا الواحدة إلى دولة الشعب أو الأمّة القائمة على التعددية وضمان الحقوق السياسية للأفراد والجماعات والقوميات والأعراق والطوائف. ولئن تبدّت لنا الصعوبات الفعلية الجمّة التي تعترض عملية الانتقال، فإن صورته قد حلّت في المخيلة الاجتماعية لقطاع واسع من العراقيين. وإلا كيف لنا أن نفسر قبول فئات واسعة من المجتمع العراقي بعلاقات السوق، وبالخطاب السياسي المروج لها. ما يحصل في العراق اليوم يعيد إلى الأذهان ما حصل في مصر على يد أنور السادات، أو في دول أوربا الوسطى والشرقية بعد سقوط النظم الاشتراكية فيها. بطبيعة الحال، فإن الاعتراف بهذا التحول لا يعني السكوت عن النتائج الضارة، اجتماعياً واقتصادياً، المترتبة عليه. وهنا نقطة الافتراق بين قوى اليسار وسواها من القوى.

من بوادر التحول نشير إلى المعطيات التالية:

ـ إن الاحتلال الأمريكي البريطاني لا يمثل عملية عابرة، لأنه يشي بسمات تحوّل في تاريخ العالم نحو نظام جديد للهيمنة الإمبراطورية المترابطة مع ظاهرة العولمة المتسارعة للشروط الاقتصادية والسياسية والثقافية. ويمكن اعتبار العراق حقل اختبار لقدرة الإمبراطورية الأمريكية

على بناء دول حديثة بمواصفات مفروضة من الخارج، أي بمواصفات تتعارض، جزئيا أو كليا، مع مفهوم كان سائدا للإرادة الوطنية المستقلة.

ــ لا يوحي برنامج إعادة البناء السياسي والاقتصادي المقترح للعراق أن هناك اهتماما خاصا بالمسألة الاجتماعية التي كانت من أولويات حقبة ثورة تموز.

ــ دخول الإسلام السياسي، والخصوصية الثقافية إجمالا، كطرف في معادلة الصراع لتأسيس الدولة العراقية الجديدة. في حقبة تموز الممتدة لخمس وأربعين سنة، كان التمثيل السياسي للدين ذا طابع ضمني غير معلن. ولم يحدث قبل اليوم أن وضع شعار الحكومة الإسلامية موضع اختبار، كما لم يحدث أن حظيت قضية الديمقراطية والتعددية بهذه الدرجة من الإجماع.

ــ انكسار ما يسمى بالمشروع القومي العراقي، وظهور تمايزات ملموسة وافتراق فعلي، قد يكون مؤقتاً، بين الخيار الوطني والخيار القومي العربي.

ــ زوال خطر الشيوعية على الصعيدين المحلي والدولي.

باختصار، ما يحصل اليوم لا يوحي باستئناف مهمة تاريخية كان قد طرحها الماضي، أو بعودة نحو برنامج شوهته التطبيقات العملية أو خانته التفسيرات السياسية. ما يحصل هو طرق إمكانية جديدة للتطور ضمن شروط الرأسمالية المعاصرة، وذلك عقب رحلة خائبة قادتها دولة ما بعد الاستقلال ذات الأغطية الأيديولوجية المتباينة. في تمييزي لحقبة ثورة تموز ٥٨ عن الحقبة الحالية، انطلقت من محدّدات ثلاثة هي: القضايا الرئيسية، القوى السياسية والأفق التاريخي. والمحدّد الأخير أهمّها، برأيي، فهو يحتوي المحدّدين الآخرين ويكيّف محتواهما وتجلياتهما.

هذه الصورة الأولية عن نهاية حقبة وبداية أخرى مختلفة عنها جذرياً، تتجاذبها لغتا الوصف والحكم اللذين لا يمكن أن يكونا حياديين ومجردين من الأغراض تماماً. والغرض الذي أدركه تمام الإدراك أن ما ذهبت إليه لا يرمي إلى التسليم بالأمر الواقع على حساب فكرة التغيير، ولا يدعو إلى نبذ المبادئ والأيديولوجيات للدخول في منطق المساومات والحلول العملية. في الوقت نفسه، ما عاد مجدياً تكرار المسلمات الجاهزة عن الخصوصية والهوية والتحرر، وما يصدر عنها من ترجمات سياسية متباينة. المهمة المطروحة حالياً تدعو إلى إنتاج تلك المسلمات في شروط تاريخية جديدة، وضمن صراع مفتوح الآفاق. لا القومي ولا الإسلامي ولا الليبرالي ولا الماركسي هو نفس من كان يوم لم تكن أمريكا قد وضعت يدها على العراق.

تأشير الخطوط الفاصلة مع إشكاليات الماضي وإمكانياته غير المتحققة وآفاقه المتخيلة، لا يعني نهاية الصراع على الحاضر والمستقبل. والصراع يدور حول الحريات الخاصة والعامة، حول العقلانية والعدالة الاجتماعية. ?

ــ نُشر جزء من هذا المقال في جريدة (الحياة) بتاريخ ٢٠٠٣/٠٧/٢٦.

من وثائق الحزب الشيوعي العراقي

الحزب وثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨

من بين الأيام التي أرخت لنهاية حقبة في تاريخ العراق الحديث، وكان الشعب يتطلع إليها، يبرز يوم الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨، يوم الثورة على النظام الملكي الموالي للاستعمار، ويوم التاسع من نيسان هذا العام، يوم انهيار المافيا الصدامية. وكان من المفروض أن تكون الفرحة بانهيار النظام الصدامي أكبر الفرحات، فالفرح بلوغ المشتهى والمبتغى، حسب «تعريفات» الجرجاني، وما كان في تاريخ العراق مبتغى أكبر من انهيار النظام الذي خرّب البلاد والعباد، خرّب البشر والنخل سيّد الشجر. لكن الفرحة في نيسان لم تكتمل، وما كان لها وقد حلت في القلب قرحة بسبب الاحتلال، الذي كشف عجز المعارضة في تحقيق الوحدة، أساس النصر. وكشفت السرعة التي تم فيها الانهيار عدم ضرورة الحرب. الفرحة بتموز ٥٨ كانت فرحة جنون لأن الشعب كان هو الذي حقق الثورة عبر الجيش وجبهة الاتحاد الوطني، لا بالدخيل الإمبراطوري ذي المآرب الأخرى.

وكان للحزب الشيوعي العراقي دور بارز في تلك الثورة، في الأعداد لها وكذلك في مسيرتها التي ما أكملت عامها الخامس. إلا أن مواقف الحزب خلال تلك الفترة شوهت تشويها كبيراً، من حلفائه كما من خصومه وأعدائه، على السواء.

(الثقافة الجديدة) *تعيد نشر بعضاً من وثائق الحزب الصادرة أيام ثورة ١٤ تموز، التي تبيّن مواقفه من بعض المسائل المثارة آنذاك كقضية الوحدة العربية، والديمقراطية والقضية الكردية.*

— ١ —

توجيهات حزبية

[نشرة داخلية]

من المعلوم أن سياسة حزبنا كانت ولما تزل موجهة نحو تحقيق أقصى التضامن بين الشعب العراقي والشعوب العربية الشقيقة، وكذلك العمل من أجل أعلى أشكال الروابط وأمتنها مع الجمهورية العربية المتحدة الشقيقة، والسير قدما في طريق تحقيق أهداف وأماني الأمة العربية، وعلى الأخص العمل نحو تحرير باقي أجزاء الوطن العربي وجمع العرب في وطنهم الواحد.

وهذه السياسة تنطوي بداهة على إلزام كل عضو حزبي سياسيا وأدبيا بالتصدي لكل دعوة معاكسة، ولكل مسعى يرمي إلى النيل من السياسة التي تنتجها الجمهورية العربية المتحدة، أو شخص رئيسها – تلك السياسة التي يعرف جميع أعضاء حزبنا وجماهيرنا أننا بالرغم من تحفظاتنا على بعض جوانب هذه السياسة فإننا نؤيد تأييدا تاما وجهتها التحررية المعادية للاستعمار. إن كافة أعضاء حزبنا ملزمون بالتقيد تقيدا صارما بسياسة الحزب وهم يعملون وسط الجماهير ومن واجبهم مقاومة مثل هذه الدعوات أو المواقف الضارة، كما أن من واجبهم مقاومة مثل هذه الدعوات أو المواقف الضارة، كما أن من واجبهم التصدي لكل ما من شأنه أن يؤدي إلى خلق أي نوع من الجفاء والنفرة بين الشعوب العربية الشقيقة ولا سيما بين شعبي الجمهورية العراقية والجمهورية العربية المتحدة.

لقد أكدنا ذلك كله في جملة بيانات أصدرها حزبنا... وهانحن نؤكدها مرة أخرى ونطلب التقيد بها تقيدا صارما.

بغداد ٣٠ تشرين أول ١٩٥٨ المكتب السياسي

– ٢ –

من بيان الحزب الشيوعي العراقي

في الذكرى الرابعة لثورة الرابع عشر من تموز

إن ثورة الرابع عشر من تموز جاءت نتيجة حتمية لتطور الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بلادنا بالارتباط مع الظروف العربية والعالمية، إن النضال الوطني الذي خاضه شعبنا طوال عشرات السنين وقدم خلاله أزكى الدماء التي أرخصها في سبيل الشعب والوطن آلاف الشهداء، ما كان من الممكن إلا أن يؤدي إلى نتيجة منطقية يفرض فيه الشعب إرادته

ويسحق أعداءه ويحقق أهدافه الوطنية الكبرى التي تبلورت خلال مجرى الكفاح. ولقد كانت ثورة الرابع عشر من تموز هي هذه النتيجة المنطقية. وحال انطلاق شرارة الثورة اندفع الشعب العراقي وجيشه الباسل برمته بعربه وأكراده وسائر أقلياته، بجميع طبقاته وقواه الوطنية برجاله ونسائه لتأجيج هذه الشرارة المباركة ولدفعها إلى أمام. أن الطابع الجذري والحاسم للثورة في ساعتها الأولى هو الدليل المفحم على أن الثورة كان قد اكتمل نضجها على أفضل ما يكون عليه هذا النضج، ولقد كانت هذه الجذرية والحزم سر انتصارها الخاطف الذي هد من الأساس ما كان يبدو أقوى قلعة للاستعمار والرجعية في هذه المنطقة من العالم. إن ثورة الرابع عشر من تموز جاءت نموذجا مفعما بالوعي والحيوية للثورات ضد الاستعمار والأحلاف العسكرية وضد الإقطاع والرجعية، ولقد قدمت خدمات مباشرة كبرى لحركة التحرر العربي ولقضية الحرية والسلام في العالم، وكان لا بد لمثل هذه الثورة أن تستمر كسيل عاصف جارف لدك القلاع المعادية ولبلوغ أهداف الشعب. إن البيان الأول للثورة وكذلك تركيب الحكومة التي أعلنتها حينئذ يبرران إلى حد بعيد بأن الثورة في بدايتها لم تضع نصب أعينها سوى ذات الأهداف التي كانت تتبناها وتناضل من أجلها الجماهير الشعبية بالاستناد إلى وحدة جميع القوى المعادية للاستعمار والإقطاع والرجعية، ولكن هذه الحقيقة لا تعني أن اتجاه الحكومة أو اتجاه بعض عناصرها وأفرادها كانت بمستوى اتجاه إرادة الشعب، إنها في الواقع كانت دون هذا المستوى بكثير وهذه الحقيقة هي التي تلقي الضوء على السبب الذي من أجله لم تستجب الحكومة لكثير من المطاليب الشعبية إلا بصورة متدرجة وتحت الضغط الشعبي المتصاعد، كما تفسر هذه الحقيقة سبب تخلف وارتداد بعض الأطراف أو العناصر التي ساهمت في الثورة.

إن الاستعمار وأعوانه الذين باغتتهم الثورة كزلزال صاعق سرعان ما أنزلوا جيوشهم في الأردن ولبنان، وسرعان ما حركوا أساطيلهم لتهديد جمهوريتنا الفتية الباسلة، ولكن انطلاق الشعب ويقظته وحزمه وتضامن الشعوب العربية وسائر شعوب العالم وبوجه خاص الدور الحاسم الذي نهض به نصير شعبنا الاتحاد السوفييتي كل ذلك أحبط محاولات التدخل العسكري الاستعماري.

وبعد الضربة الماحقة التي وجهت لأعوان الاستعمار في الداخل وبعد خذلان تهديده العسكري الخارجي حاول أن يستفيد من التناقضات بين قوى الثورة ذاتها، كما علق آماله في صد اندفاع الثورة الكاسح على أولئك الذين عملوا بنشاط وسرعة من أجل تهريب شعارات وأساليب حكم دكتاتورية رجعية يتشبث بها قادة العربية المتحدة القصيرو النظر، إن هذه المساعي مهما كانت دوافعها لعبت دورها في إظهار ما دعته الدوائر الاستعمارية في حينه بأن «الثورة تأكل نفسها»، كما كان من شأنها تهديد الاستقلال الوطني للبلاد.

وعبر الكفاح لصد هذه المؤامرات الرجعية استطاعت الجماهير الشعبية أن تمارس عمليا القسط الكبير من حقوقها وحرياتها الديمقراطية، كما شرع عدد من التشريعات الهامة التي تؤمن جانبا من حقوق الشعب أهمها تشريع قانون الإصلاح الزراعي وتشريعات التنظيم النقابي والفلاحي... الخ. وفي مجرى هذا الكفاح الثوري كان لا بد للثورة أن تتقدم خطوات جديدة كبرى

إلى أمام. فأعلن خروج العراق رسميا من حلف بغداد وألغيت الاتفاقية الثنائية مع بريطانيا وأعلن الانفكاك من مبدأ آيزنهاور زمن اتفاقية الإسترليني وعقدت اتفاقيات اقتصادية وتجارية وثقافية هامة مع الاتحاد السوفييتي وسائر البلدان الاشتراكية. وأعيد تسليح جيشنا بصورة كاملة على أساس هذه الاتفاقيات وزود بأحدث الأسلحة وأكثرها فعالية. واستنادا إلى تطور الأحداث بعدئذ يمكننا أن نقول بأن الحكومة في تلك الفترة لم تطلق بعض الحقوق والحريات الشعبية بسبب من اقتناعها بمثل تلك الإجراءات أو بالديمقراطية باعتبارها أحد أهداف شعبنا في نضالاته الطويلة أو ثورته المباركة، بل أنها قد اضطرت على اتخاذ مثل تلك الخطوات لتقوية مركزها وسلطتها التي كانت تهددها المؤامرات الاستعمارية والرجعية. وعندما تصاعد المد الثوري الشعبي وانحسرت إمكانيات القوى الرجعية والمغامرة على تهديد الاستقلال والحكم الوطني سرعان ما انحرف اتجاه الحكومة في سياستها الداخلية، فبدلا من سياسة الاستناد إلى الشعب المتمتع بحرياته ضد التهديد والمؤامرات الرجعية اتجهت تدريجيا إلى سياسة الاستناد على القوى الرجعية لإخماد المد الشعبي ولقمع الحقوق والحريات الديمقراطية. وفي سبيل أن تبرز الحكومة هذا الانحراف في سياستها حاولت الحكومة تدريجيا أن تزور تاريخ نضال الشعب وأن تشوه أهداف ذلك النضال وأن تطلق ذات الكلاب السائبة التي اعتمد عليها النظام الملكي المباد وميثاق بغداد لنهش القوى الوطنية المخلصة. وعندما يريد المرء أن يسلك سبيلا سيئا يستطيع دائما أن يجد المبررات المتهافتة أو أن يفتعل مثل هذه المبررات.

.... لقد دأبت السياسة الرسمية على إنكار نضالات الشعب البطولية وتضحياته الغالية طوال عشرات السنين والاستهانة بها وكذلك كان من الكفاح المجيد الذي خاضته جبهة الاتحاد الوطني وسائر قواها المخلصة ضد النظام الملكي الاستعماري الإقطاعي المباد. كما شوهت أهداف الشعب، وبوجه خاص إرادته في تحقيق حقوقه وحرياته الديمقراطية وفي إقامة نظام حكم ديمقراطي وطني سليم.........

كما نفذت بصورة مستمرة سياسة اضطهاد وقمع المنظمات والنقابات والجمعيات المهنية الوطنية بمختلف سبل التزوير والتلاعب الفظ والمهازل المعروفة، رغم أن الحكومة قد ركزت قمعها وأساليبها البربرية منذ أكثر من ثلاث سنوات ضد الشيوعيين وضد سائر التقدميين، إلى أن ذروة احتدام التناقضات بين القوى المعادية للاستعمار تجد تعبيرها في المصادمات المسلحة الدائرة الآن بين الحكومة والقوميين الأكراد والتي تتحمل الحكومة المسؤولية الأولى والتي هي أضعف وأخطر نقطة يعانيها الوضع في الظرف الراهن والتي يحاول الاستعمار استغلالها وتعميقها بغية إضعاف الحكم والقوى الوطنية مجتمعة، تمهيدا للوثوب إلى الحكم ولسلب الاستقلال ومكتسبات الثورة.

....

ورغم أن الحكومة اتخذت بعض الإجراءات الصحيحة ضد شركات النفط الاحتكارية إلا أنها بسبب من وضعها الداخلي المضطرب وغير المعتمد على الشعب المتمتع بحقوقه وحرياته لم

تستطع أن تسير إلى مدى أبعد في انتزاع حقوقنا الوطنية المغتصبة وما زالت استيراداتنا الرئيسية وبنسب عالية تعتمد على السوق الاستعمارية العالمية بينما يجمد الكثير من اتفاقياتنا التجارية مع الدول الاشتراكية والمستقلة وسياستنا العربية لا تتجه لخدمة نضال الشعوب العربية وتضامنها ضد الاستعمار وحسب، بل تتعرض كذلك للأهواء والمناورات القصيرة النظر. لقد كان من المناسب لإثارة قضية التخلص من السيطرة الاستعمارية في الكويت وهي قضية عادلة ويمكن تعبئة التضامن العربي والعالمي على أفضل وجه في سبيلها، ولكن الحكومة التي أثارتها ركزت على مسألة ضم الكويت للعراق قسرا من دون اعتبار لإرادة الشعب فيها والحكومة بذلك قد حجبت بغبار كثيف القضية الرئيسية العادلة في تحرير الكويت وغيره من بلدان الخليج من الاستعمار ومن حكامه الرجعيين عملاء الاستعمار ولم تساعد على تأمين التضامن العربي والعالمي على أفضل وجه، بل أساءت إلى هذا التضامن بإثارتها وتأجيجها للمطامع الإقليمية.

....

إننا ندعو الشعب بكافة قواه الوطنية، بكافة قومياته، بكافة طبقاته، برجاله ونسائه لكي يتخذ من الذكرى الرابعة للثورة منطلقا جديدا وحافزا كبيرا وتشديد نضاله وللعمل على تأمين وحدته في هذا النضال من أجل صيانة الاستقلال الوطني وحل أزمة كردستان حلا سلميا ديمقراطيا عادلا وإرساء الحكم الوطني على أسس ديمقراطية سليمة بإنهاء ما يدعى بالفترة الاستثنائية وإطلاق الحريات الديمقراطية. وبدعوة مجلس تأسيسي بانتخاب مباشر عام وسري لإقرار دستور دائم وبقيام مجلس وطني تنبثق عنه حكومة ديمقراطية.

المجد للذكرى الرابعة لثورة تموز الوطنية الكبرى، ثورة الشعب وجيشنا الوطني الباسل.

المجد والظفر لشعبنا العراقي العظيم، بعربه وأكراده وسائر أقلياته في نضاله الموحد من أجل تحقيق الأهداف الكاملة لثورة تموز الديمقراطية الوطنية.

بغداد ٨ تموز ١٩٦٢ الحزب الشيوعي العراقي

(نقلاً عن : سلام عادل سيرة مناضل الجزء ٢ / الفصل ٤٨)

الحزب الشيوعي العراقي

حزب للديمقراطية والتجديد

هادي محمود

من الناحية النظرية، يعتبر التجديد سمة ملازمة للحزب الشيوعي وتكوينه وسياساته، انطلاقا من منهجه الفكري واسترشاده بالماركسية والمنهج المادي الجدلي الذي ينظر إلى المفاهيم والمقولات الفكرية بوصفها انعكاسا للواقع. ذلك يتطلب، بل ويفرض، الاحتكام الى نبض الحياة بكل تعقيداتها وتناقضاتها ومستجداتها، ومعرفة القوى الحيوية المؤثرة فيها والفرز الاجتماعي الطبقي المستمر، والذي يعني أيضا الابتعاد عن الأحكام الجاهزة والمسبقة والتحليل السطحي والأحادي للظواهر الاجتماعية الجديدة، وتجنب الأجوبة الجاهزة للأسئلة المعقدة التي تطرحها الحياة باستمرار. وإذا كان هذا الكلام يمتلك قدرا كبيرا من الصحة، في حدود النظرية، فإننا لو عدنا إلى التاريخ الفعلي للقضية داخل الحزب الشيوعي العراقي، نجد ثمة افتراقا بين النظرية والممارسة التاريخية. فالتجديد ظل ولغاية نهاية الثمانينات بمثابة «هرطقة» عند الكثيرين. ولهذا السبب كانت هناك حاجة ملحة من أجل إزالة الفجوة بين الأفكار المجردة والتطبيق العملي، استنادا إلى الماركسية التي تتناقض مع الجمود ومع فكرة الوصفة الجاهزة الصالحة للتطبيق في كل زمان ومكان. والمنهج الماركسي يعني قراءة الواقع وتحليله كما هو، والابتعاد عن الرغبة الذاتية والإرادوية في التعامل معه. وبخلاف ذلك يتحول المنهج إلى أداة لتبرير الواقع، عوضا أن يكون دليلا للتغير الثوري.

كثيرة هي المقولات الواردة في أعمال المفكرين الماركسيين، والتي تؤكد على الاحتكام لسيرورة الحياة. فعلى سبيل المثال يشير أنجلز بوضوح في مقدمة الطبعة السادسة للبيان الشيوعي، بعد ٢٣ عاما من إعلان البيان الشيوعي وعلى أثر تجربة كومونة باريس، إلى «أن جزءا من هذا البيان قد شاخ»، وينوه لينين بمقولة لاسال «الحياة خضراء والنظرية رمادية».

والتجديد في سياسات الحزب الشيوعي العراقي وفي برنامجه وفي حياته الداخلية ليس بدعة

جديدة في الماركسية، أو مجرد شكل من أشكال التكييف مع ما جرى في العالم بعد انهيار تجربة الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي السابق ودول المنظومة الاشتراكية، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن الانهيار أثار الكثير من التساؤلات، وتزامن الحديث عن التجديد مع فترة البيروسترويكا في الاتحاد السوفيتي.

لقد واكبت سياسات الحزب الشيوعي وبرامجه منذ تأسيسه بشكل أو آخر متغيرات الوضع العراقي والإقليمي والعالمي. وصاغ الحزب شعاراته وبرامجه ونظامه الداخلي وآليات عمله في أكثر الأحيان وفق هذا الواقع المتغير دون أن يطلق على هذه العملية والممارسة الحزبية سابقاً اسم التجديد، لأنها لم تجر ضمن عملية تناسق منظم مستمر بشكل شامل ودائم.

وجرت في فترات تاريخية عديدة محاولات تجديدية في الطروحات السياسية وفي تقييم سياسات الحزب السابقة، أو في مجال تجديد الهيئات القيادية، حققت نجاحا محدوداً لأنها افتقرت الى الاستمرارية والتواصل والشمولية، ولكونها جرت وفق آليات عمل بالية لم تستوعب توسيع وتعميق الديمقراطية الحزبية الداخلية وتفعيل دور العضو الحزبي في كل شأن يتعلق بمشاركته في صياغة سياسات الحزب ونهجه. ومن تلك الإجراءات إلغاء المراتبية الحزبية بعد المؤتمر الرابع للحزب عام ١٩٨٥، والخطوات التي كان الهدف منها تجديد القيادة الحزبية.

والحديث عن التجديد بهذا المعنى لا يعني الرضا عن النفس وعدم وجود قراءات خاطئة للحزب كقوة اجتماعية في هذا المرفق أو ذاك على مدى تاريخه النضالي الطويل، وكان الحزب سباقاً في تقييم سياسته والإشارة إلى أخطائه. وأشار في أكثر من مناسبة بأن ليس لديه ما يخفيه عن الشعب.

لم يبق التجديد في الحزب الشيوعي العراقي في الإطار السابق الذي أشرنا إليه. فقد أقترن اسم التجديد كضرورة وحاجة موضوعية أصيلة، بالديمقراطية، وهي العملية التي بدأت في الحزب منذ نهاية الثمانينات بصورة منظمة، لمواجهة الإشكاليات الجديدة التي واجهها سواء على الصعيد الداخلي الوطني أو تلك التي طرحها واقع الرأسمالية المتغير، ومن أجل معالجة الأزمة التي عانى منها على مختلف الأصعدة التنظيمية والسياسية والفكرية، ولكي يكون حزباً للمستقبل. وقبل أن تصبح هذه العملية نهجاً واضحاً في الحزب بعد إقراره في المؤتمر الوطني الخامس المنعقد في عام ١٩٩٣، والذي أطلق عليه مؤتمر الديمقراطية والتجديد، انغمر الحزب قبل ذلك التاريخ في نشاط تنظيمي وفكري وسياسي شامل، رغم صعوبات العمل المختلفة. فقد جرت انتخابات لاختيار بعض الهيئات القيادية في الخارج، كما عمم مكتبه السياسي في أيلول ١٩٨٩ نشرة دعت منظمات الحزب والرفاق المعنيين إلى المساهمة مع قيادة الحزب في سعيها لإعادة صياغة الوثائق البرنامجية وتدقيق المفاهيم وتطوير استنتاجاتنا وحصيلة تجربتنا النضالية.

كما أكدت اللجنة المركزية للحزب في تقريرها الصادر في آذار ١٩٩٠ بشكل ملموس على (أن إقرار حزبنا بالضرورة الموضوعية التاريخية لعملية التجديد وطابعا الشمولي الخلاق، ينطوي على وعي بالمخاطر التي تحيط بها وتلازمها، وتناقضاتها، والعوامل التي تتحكم بمجراها،

وتكبحها أو تغير وجهة جريانها. مما يستلزم التأكيد على قيم الاشتراكية وأفضليتها، والاسترشاد بالروح المبدعة والأسلوب الجدلي لمؤسسي الماركسية ـ اللينينية...).

وأقر اجتماع اللجنة المركزية للحزب في أيلول ١٩٩١ مشروعاً للوثيقة البرنامجية للحزب والنظام الداخلي، كما جرى تناول موضوعة التجديد في عام ١٩٩٢.

وبهذا المعنى كان نهج الديمقراطية والتجديد خياراً منظماً وموجها، استناداً إلى الماركسية، لا باعتبارها فكراً منجزاً ومعرفةً نهائية تحيط بالواقع من كل جوانبه، ولكن كمبادئ عامة اغتنت بالممارسة الثورية. إلا إن ذلك لا يعني عدم خضوع مسارات هذه العملية داخل الحزب لمفردات الصراع الحزبي الداخلي على مستوى القيادة وفي إطار المنظمات، ولتأثيرات القوى السياسية المختلفة.

ضمن هذه الوجهة الصراعية حول عملية التجديد تبلورت اتجاهات أساسية، شخصها المؤتمر السادس للحزب عام ١٩٩٦ بالصراع بين التيارات الثلاثة (العدمي، المحافظ والتجديدي)، وقد انحسم هذا الصراع بشكل ديمقراطي للتيار التجديدي، من دون أن تترتب على ذلك إمكانية إغلاق الصراع وإيقافه حول هذه العملية مستقبلاً بأي شكل من الأشكال.

إن نهج الديمقراطية والتجديد الذي جرى العمل على ديمومته وإغنائه من المؤتمر الخامس وفي المؤتمرين السادس ١٩٩٦ والسابع ٢٠٠١ وفي الكونفرانسات الحزبية جعلت من الوثيقة البرنامجية للحزب اكثر دقة في التعبير عن حركة الواقع، وأكثر عمقاً في التعرف على خصائصه الملموسة، وفهماً لتاريخ وتراث شعبنا، واستيعاباً لفعل قوانين التطور الاجتماعي بعيداً عن الإرادوية والنظرة الميكانيكية والجمود العقائدي.

وتميز الخطاب السياسي للحزب بالواقعية والمرونة في التعامل مع الأحداث. ويستمر الحزب في مسعاه لصياغة سياساته عبر التفاعل مع مزاج الجماهير ومطالبها واستعدادها النضالي، مع أخذ موازين القوى المحلية والإقليمية والدولية بنظر الاعتبار.

لم يتعامل الحزب في مسألة التجديد بشكل عفوي اعتباطي أو وفق منهج انتقائي. فبوصفه حزباً للتغير الاجتماعي، اعتمد في هذه العملية على المنهج المادي الجدلي، وبذلك تجنب العشوائية والفوضى. ففي مجرى تقيمه للعملية، أشار تقرير المؤتمر الوطني السابع للحزب إلى ضرورة تجنب «كل ما يشيع الإرباك والجدل العقيم الذي لا يستند إلى الواقع الموضوعي وملموسياته وحاجاته الفعلية». وأكد «بأن هذه العملية ليست تهويمات وقفزا في المجهول، أو تجارب على مصائر الناس، أو لهاثاً وراء صراعات لا تساندها وقائع. وإن أحد شروط نجاح العملية وضمان تواصلها هو التخلي عن تغليب الأنانية الذاتية والمزاجية وضيق الصدر والعمل من أجل تطابق الأقوال مع الأفعال، واحترام حقوق الآخرين واعتباراتهم».

ووفق هذا المنهج جدد الحزب هويته الفكرية ليصوغ برنامجه كما جاء في وثائق المؤتمر الوطني السابع «استناداً إلى دراسة الواقع الطبقي والقومي والديني والسياسي للمجتمع العراقي

المعاصر والتطورات الجارية فيه، مسترشداً بالماركسية، مستفيداً من سائر التراث الإنساني الاشتراكي، ومستهدفاً تحقيق المصالح الجذرية لشعبنا عمالاً وفلاحين وكسبة ومثقفين، وكل شغيلة اليد والفكر. ويجمع الحزب في صياغة برنامجه بين الخصائص الوطنية لشعبنا، والمسؤولية التاريخية إزاءه وبين التزاماته القومية إزاء حركة التحرر الوطني والديمقراطي والاجتماعي للشعوب العربية، والتزاماته إزاء الحركة الوطنية التحررية الكردستانية، ومسؤوليته تجاه حركة التقدم والديمقراطية والاشتراكية في العالم وتمسكه بالخيار الاشتراكي».

ويرى الحزب أن الاسترشاد بالماركسية في سياسته وتنظيمه ونشاطه، لدراسة الواقع والسعي إلى تغيره ــ كما هو وارد في نظامه الداخلي ــ لا يعني الاقتصار على ما أنجزه ماركس وانجلز فقط، بل يعني الاسترشاد والاستفادة من إسهامات كافة المفكرين الاشتراكيين وتجارب الحركة الاشتراكية العالمية، وكل الذين تبنوا تلك المبادئ الموجهة، وعملوا على تطويرها وإغنائها عبر اندماجهم في الحركة الثورية التقدمية لبلدانهم. كما يستقي الحزب ويغني ثروته الفكرية «من التراث والقيم الحضارية لشعوب وادي الرافدين وتراث الشعبين العربي والكردي والقوميات والأقليات القومية الأخرى في وطننا، ومن منابع الحضارة الإنسانية، وكل ما هو نافع في أفكار وتجارب الأحزاب الشيوعية والعمالية، والحركات والتنظيمات الوطنية والديمقراطية والاشتراكية المختلفة».

كما تخلى الحزب عن المفاهيم النظرية التي لم تزكيها الحياة. فجرى التخلي في برنامج الحزب منذ المؤتمر الوطني الخامس عن قوانين الانتقال إلى الاشتراكية ومفهوم ديكتاتورية البروليتاريا، دون أن يعني ذلك التخلي عن الخيار الاشتراكي في المستقبل وذلك إدراكاً منه لواقع أن التطور الرأسمالي الزاخر بالتناقضات والاستغلال لن يحل أزمة المجتمع. وفي المقابل انخرط الحزب من خلال هيئاته المختصة للمساهمة في صياغة فهمه الجديد للاشتراكية المبنية أساساً على إنهاء الاستغلال وتحقيق القيم الإنسانية وكرامة الفرد وإشاعة الديمقراطية وإبداع الجماهير ومساهمة المنتجين الأحرار فيها، انطلاقاً من القناعة بعدم وجود اشتراكية حقيقية بدون ديمقراطية حقيقية.

ولايزال الحزب يعتبر الأبواب مفتوحةً أمام مناقشة فكرة الاشتراكية، وهو يمتلك تاريخاً حافلاً بالنضال من أجلها، ويسنده في ذلك النضال شيوع فكرة العدالة الاجتماعية وتأصيلها في فكر شعوب المنطقة و طموحاتها بصورة عامة وشعوب بلاد الرافدين بصورة خاصة منذ آلاف السنين. ويبنى الحزب تصوره حول الخيار الاشتراكي على أساس كون الاشتراكية عملية حياتية وتنموية مستقبلية (ذات طابع صيروري غير منجز ومتجدد دوماً) ومتجددةً بتجدد الحاجات البشرية وسبل توفيرها. ويتطلب الأمر مرحلة طويلة من البناء الديمقراطي في المناحي السياسية والاجتماعية واستمرارها في عملية ارتقاء دائم من خلال النضال ضد اللامساواة السياسية والاجتماعية وضد مظاهر اللاديمقراطية والتوزيع غير العادل للثروات وغيرها من عيوب الأنظمة المبنية على الجشع والاستغلال. كما إن الطابع العالمي لعولمة الرأسمالية المتوحشة

يتطلب تضافر النضال ضد شرورها على الصعيد العالمي وعلى صعيد كل بلد بشكل ملموس وينصب هذا النضال أساساً في خدمة النضال من أجل الاشتراكية على الصعيد الوطني.

وجدد الحزب هويته الطبقية منذ المؤتمر الوطني الخامس لتصبح في المؤتمر الوطني السابع «اتحاداً طوعياً لمناضلين تجمعهم الماركسية ويكرسون طاقاتهم لقضية الطبقة العاملة وسائر فئات الشعب، وأهدافها في تأمين التطور الديمقراطي الحر والمستقل للبلاد، ولتحقيق التحولات الاجتماعية وصولاً إلى الاشتراكية فيها».

ومنذ المؤتمر الوطني الخامس للحزب يجرى العمل بآليات جديدة تضمن فهماً جديداً للمركزية الديمقراطية ينبذ المركزية البيروقراطية. ويتجسد هذا الفهم الجديد في تأمين حقوق أعضاء الحزب وهيئاته وتفعيل مساهمتهم في رسم وتنفيذ سياسته وصياغة توجهاته، مع التأكيد على المركزية والقيادة الجماعية، والتخلي عن المراتبية الحزبية، ونبذ الفردية والأوامرية والأساليب البيروقراطية، مع ضمان حق الأقلية في مناقشة سياسة الحزب وشؤونه الداخلية، وإبداء اعتراضاتها عليها أمام المراجع الحزبية المسؤولة، بما فيها المؤتمر، والتعبير عن رأيها في الصحافة الحزبية. كما شجع الحزب بشكل عملي الحوارات والنقاشات الفكرية داخل صفوفه وفي صحافته دون تحفظ وفق مبدأ علنية الفكر والسياسة، ودون اشتراط كون تلك الطروحات منسجمة مع السياسات الرسمية للحزب. وقد توسعت فعلياً دائرة المساهمين الفعليين في رسم وصياغة سياسة الحزب لتشمل جمهرة الحزبيين وأصدقاء الحزب والكفاءات الفكرية الوطنية المختصة والمهتمة بمصير شعبنا وتقدمه وسعادته. ومارس الحزب أسلوب الاجتماعات الموسعة في قيادته، وجرت استشارة الكادر الحزبي، إضافة إلى الاستفتاءات الحزبية في القضايا الحيوية والمصيرية. وهيأت هذه الآليات الأرضية المناسبة لإدارة سليمة للصراع الفكري الداخلي.

ترسخت خلال السنوات الماضية تقاليد سليمة وديمقراطية في جوانب حياتنا الحزبية، كانتظام عقد الكونفرنسات والاجتماعات الموسعة في عموم هيئات الحزب (عدا المنظمات التي منعتها ظروف النشاط السري الناتجة عن القمع الفاشي للنظام السابق). كما تم إجراء الانتخابات الدورية على أساس الترشيحات الفردية، وممارسة النقد والنقد الذاتي الموضوعي والبناء، وانتظمت عملية تزويد منظمات الحزب بالمعلومات والتقارير عن نشاط الهيئات القيادية وتيسير مهمة مراقبة أدائها، بما يعزز المصارحة والعلنية وفق ما كانت تسمح به ظروف عمل الحزب قبل سقوط الديكتاتورية. كما نشرت مشاريع الوثائق، وعقدت المؤتمرات الوطنية والكونفرنسات المركزية المنتظمة، استناداً للشرعية الحزبية وأحكام النظام الداخلي، وجرى انتخاب الهيئات القيادية في كل تلك الفعاليات بأسلوب الترشيح الفردي وبعيداً عن القائمة الحزبية. كما جرى اعتماد صيغة الاستفتاءات الحزبية إزاء قضايا سياسية ذات طابع عقدي وهام.

وفي سياق عملية الديمقراطية والتجديد جرى تدقيق سياسة الحزب من المسألة القومية، وتبنى الحزب موضوعة الفيدرالية للعلاقة بين كردستان العراق والمركز في عراق ديمقراطي تعددي موحد. وإدراكاً للخصوصيات القومية جرى تطوير منظمة إقليم كردستان إلى الحزب الشيوعي

الكردستاني ــ العراق والذي أبرز نضال الشيوعيين الكردستانيين ومساهماتهم الفاعلة في قضية شعبهم.

إن مسيرة الديمقراطية والتجديد لم تنته في الحزب. ومتى ما وصلنا إلى القناعة بأننا بلغنا غاية التجديد، نكون قد توقفنا عنه. فهو عملية حياتية غير منجزة بمعناها الديالكتيكي.

لقد قيّم المؤتمر السادس للحزب بشكل ملموس حصيلة عملية الديمقراطية والتجديد، إذ وصفها بـ«أن حصيلة تجربتنا منذ المؤتمر الوطني الخامس حتى الآن تؤكد أن عملية التجديد وترسيخ الديمقراطية هي عملية عسيرة ومعقدة، بسبب بعض المفاهيم النظرية المشوهة، وقوة العادة وما تركته التقاليد والممارسات السابقة من آثار يصعب تجاوزها بسهولة وبفترة زمنية قصيرة. هذا إلى جانب التأثير السلبي للظروف الموضوعية في بلادنا، وعموم الأجواء المحيطة بعمل الحزب، والمتمثلة بنظام القمع والإرهاب، ومستوى التطور الحضاري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي». وجرى التأكيد في المؤتمر الوطني السابع بأن «الديمقراطية والتجديد عملية معقدة، شاملة، متواصلة، لا تقف عند حد. فهي مستمرة ما بقيت الحياة متغيرة متطورة. وإن من واجب حزب الشيوعيين أن يكون متفاعلاً مع الحياة ومعطيات تطورها الملموسة».

ولا تزال أمام الحزب مسيرة طويلة لتجديد فكره، وتطوير بنيته وطروحاته السياسية وأساليب عمله. ولا شك أن في الأجواء الحالية التي تتيح له تماساً مباشراً مع الجماهير، وحرية العمل العلني في كافة أنحاء الوطن، حوافز أساسية للمضي في نهج التجديد. وتطرح عليه الظروف المستجدة الاستفادة القصوى من طاقات مثقفي ومفكري شعبنا لمعالجة نواقص العمل الفكري، وبالأساس في ميدان البحوث والدراسات النظرية.

لقد حقق الحزب خلال السنوات التي أعقبت مؤتمره الوطني الخامس ما أمكن الاتفاق عليه بشكل ديمقراطي من خلال إرادة أعضائه باعتباره حزباً للعمل الثوري والتغيير الاجتماعي. وتُرك الباب مفتوحاً أمام الكثير من القضايا لدراستها مستقبلاً، وتم إيجاد الآليات اللازمة لمواصلة النقاش عبر تهيئة أوراق العمل والمشاريع الفكرية حول القضايا العقدية والأمور التي تخص مستقبل الشيوعيين وخيارهم الاشتراكي. ومن القضايا المطروحة للنقاش:

- سبل تعزيز الديمقراطية في المجتمع وكيفية إشراك الناس في السياسة من أجل تحقيق البديل الديمقراطي كمقدمة للبديل الاشتراكي.
- العلاقة مع اليسار الديمقراطي العراقي في الوضع الراهن وفي المستقبل؟
- تصور الحزب للاشتراكية، وتدقيق مفهومها في ظل التطورات المعرفية والاجتماعية المتسارعة.
- كيفية مواصلة عملية الديمقراطية والتجديد، وطرق التعامل مع التنوع والاختلاف في الآراء بشأنها داخل الحزب.
- اسم الحزب وهويته الفكرية والطبقية وشعاراته.

- تجربة آلية العلاقة بين الحزب الشيوعي العراقي والحزب الشيوعي الكردستاني ـ العراق، وآفاقها المستقبلية.
- آفاق ومستقبل القضية الكردية وتأثيرها على المنطقة.
- العلاقات الأممية بين الأحزاب الشيوعية واليسارية وسبل النهوض بآليتها على أسس سليمة.
- مستقبل التنمية وآفاق حركة التحرر والديمقراطية في العالم العربي، وآلية العلاقة بين ما هو وطني وما هو ديمقراطي، في ظل التغيرات البنيوية الحاصلة في العالم العربي.

إن المهام السياسية الآنية التي يشخصها الحزب في الوضع الراهن، وفي مقدمتها مهمة الإسراع في إنهاء الاحتلال، وتصفية مخلفات الديكتاتورية، وتشكيل الدولة العراقية وفق أسس النظام الديمقراطي التعددي الفيدرالي، من شأنها تعزيز وجهة الديمقراطية والتجديد داخل الحزب. فثمة علاقة لا تنفصم بين تعزيز الديمقراطية السياسية في المجتمع وإشاعة الديمقراطية والتجديد في الحزب.

إن تحقيق تلك المهام السياسية الآنية الملحة، يستوجب وجود حزب شيوعي عراقي متجدد في طروحاته، مستلهم لكل ما هو نير وتقدمي في تاريخ وتراث شعبه. حزب مرن في سياساته، واضح في برنامجه، ديمقراطي في علاقة أعضائه ببعضهم ومع الآخرين.

والحزب الشيوعي العراقي، بما يملكه من خبرة نضالية، جديرٌ بأن يكون حزباً للديمقراطية والتجديد. ?

البعد التاريخي والعقائدي للتعريب

زهير الجزائري

منذ تأسيس الدولة العراقية حتى الآن تطرح التعددية القومية والدينية في العراق باعتبارها لعنة قدرية ونقطة خلل في التكامل المجتمعي العراقي. وقد كانت التعددية مفاجأة قاسية لمؤسس الدولة العراقية الملك فيصل الأول: (أقول وقلبي ملآن أسى: إنه لا يوجد في اعتقادي شعب عراقي بعد، بل توجد تكتلات بشرية خالية من أي فكرة وطنية متشبعة بتقاليد وأباطيل دينية لا تجمع بينهما جامعة، فنريد والحالة هذه شعبا نهذبهُ وندربه...)[1].

وعلى طول تاريخ العراق، الذي أتعب حكامه ومواطنيه، كانت التعددية، ووجهها الأبرز القضية الكردية أخطر التحديات التي واجهت الدولة بسبب تعقد القضية وعمقها التاريخي. ودائماً كمنت نقطة الخلل بالفرق بين اعتراف الحكومات لفظياً أو بالمواثيق المكتوبة بحقوق الكرد القومية وإنكارهم لها بالتطبيق.

كانت هذه المفارقة قائمة مع بداية الانتداب. فوعود حق تقرير المصير للشعوب التي كانت خاضعة للامبراطورية العثمانية تبخرت بعد انتصار الحلفاء وحلت محلها عملية تقاسم النفوذ في المنطقة التي يتوزع عليها الأكراد في الأناضول وبلاد فارس وسوريا والعراق.

وعلى عكس السياسة الفرنسية التي اعتمدت على الأقليات، قامت السياسة البريطانية على توطيد هيمنتها من خلال المركز والقومية السائدة، وتراوحت علاقتها مع بقية المجموعات سلباً وإيجاباً حسب العلاقة مع المركز: تستخدم المجموعات الأخرى والقبائل كقوة ضغط حين تحتاج لتأديب المركز، أو تستخدم طيرانها الجوي لضرب المجموعات والقبائل دعما لموقع المركز. ولم يكن من مصلحة سلطات الانتداب طرح قضية الكرد التي تزعج الحكام الأتراك والعراقيين في وقت ما تزال فيه قضية الموصل بكاملها موضوع صراع. وساعد على إهمال القضية عدم وجود رابطة دينية بين الكرد المسلمين وبريطانيا المسيحية تدفع سلطات الانتداب لتبني قضيتهم مثل الأرمن والآثوريين. لذلك اكتفت سلطات الانتداب بوعود حول الحقوق الثقافية دون ضمانات.

الملك فيصل الأول الآتي من الحجاز، لم يستطع أن يتصور مجتمعا من أصول وأديان مختلفة:

(إن البلاد العراقية هي من جملة البلدان التي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية، ذلك هو **الوحدة الفكرية والدينية**، فهي والحالة هذه مبعثرة القوى مقسمة على بعضها). وقد حاول الملك الأول حل المشكلة بالمزاوجة بين **الحكمة والقوة**:

الحكمة تقوم على ربط المجموعات بالدولة المركزية من خلال الاعتراف ببعض الحقوق القومية والدينية لهذه المجموعات وإسهام ممثليها في هياكل الدولة المركزية.

و**القوة** تقوم على تكوين جيش قوي يمتلك قوة عددية وتفوقا ناريا يفوقان قوة القبائل العربية أو الكردية.

أما الضباط الشريفيون، الذين حكموا العراق منذ تأسيسه حتى نهاية العهد الملكي، فقد تأثروا بمدربيهم الألمان في المدارس العسكرية التركية وبالفكرة الكمالية القائمة على تأسيس دولة قومية عسكرية قومية عمادها الجيش، فقد عملوا بوتيرة متصاعدة على استخدام الجيش العراقي الحديث لفرض تجانس فوقي على الخليط الذي يتكون منه العراق.

وكانت هذه الفكرة متضمنة في طبيعة تكوين وتوزيع وتسليح الجيش العراقي. فبموجب الاتفاقيات مع الدولة العراقية وافقت بريطانيا على تكوين الجيش **كقوة أمنية داخلية**، في حين تكون الحماية من المخاطر الخارجية مضمونه بالقوة الجوية البريطانية وأسطولها البحري في الخليج[٢]. ومنذ بداية العشرينات كان التفوق الناري وسيلة لفرض الوحدة القسرية بضرب التمردات الكردية التي قادها الشيخ محمود الحفيد، بل استخدمت الطائرات البريطانية لأول مرة في ضرب مدينة السليمانية.

في عام ١٩٢٢ عقدت اتفاقيتي (المحمرة) و(العقير) مع الأخوين لوقف الهجمات السعودية. وفي عام ١٩٢٦ عقدت اتفاقية الموصل مع تركيا الكمالية. بعد الاتفاقيات خفت المخاطر الجدية الآتية من الغرب ومن الشمال، وبذلك تفرغ الجيش كليا للمهمات الأمنية الداخلية التي سادت الثلاثينات.

تمخضت **الفترة الهاشمية الثانية** عن بروز ظاهرة متميزة في تاريخ العراق السياسي الحديث، هي دخول الجيش إلى المعترك السياسي من خلال الحكم نفسه، أو من خلال الانقلاب عليه. الأزمة الاقتصادية العالمية التي بدأت في نهاية العشرينات انعكست بحدة على العراق، الذي دخل السوق العالمية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بانخفاض الطلب على المنتوج الزراعي حيث بدأت التمور والحبوب تتكدس في الميناء، وأعلن كبار التجار إفلاسهم وترك المزارعون منتوجاتهم دون حصاد ليأكلها الدود. وقد عكست الصحف أبعادها: (الأزمة الاقتصادية تأبى إلا إشتدادا وعدد العاطلين والخاسرين والفاشلين والمفلسين يزداد ويضخم كل يوم وكل ساعة: العالم العربي ٢٧ حزيران ١٩٣١)[٣]. نتيجة للأزمة وعودة عدد من المثقفين الذين اطلعوا على التيارات الفكرية في أوربا تنامت ثلاثة تيارات داخل الحياة الفكرية والسياسية العراقية:

تيار الثورة الفرنسية والتيار الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي والتيار القومي الألماني الإيطالي. التيار الأول مثلته (جماعة الأهالي) ومثل التيار الثاني الحزب الشيوعي العراقي، ومثل التيار الثالث

حزب الاستقلال والضباط الشريفيون. وفيما كان تيارا الأهالي والشيوعي يريان إمكانية الإصلاح من خلال التوازن في الحقوق والواجبات بين الحكومة والمواطنين بإصلاح الأوضاع الداخلية للمواطنين وبالتحديد الشرائح الدنيا، يرى التيار القومي العسكري الذي يمثله القوميون والضباط الشريفيون بان خلاص الأمة يأتي من بعث قومي عربي يعتمد الإعداد العسكري للشباب.

وقد ساعد على صعود التيار الثاني الميل العسكري عند الملك غازي الذي كان يقضي معظم وقته في ثكنات الجيش ونوادي الضباط ويتمتع برصيد بين زملائه الضباط ويستخدمهم للعمل ضد وزارة الهاشمي. وقد تأثر الملك الشاب بنزعة العسكرة التي سادت أوربا قبيل الحرب.. وفي عهده ارتفع الوزن العددي والناري للجيش عام ١٩٣٦ إلى ٨٠٠ ضابط و١٩٥٠٠ جندي و٣٧ طيارا. إضافة إلى نظام الفتوة والكشافة(٤).

وبصعود وزن الجيش والقوى المدينية المسلحة انتقل مركز التأثير السياسي من العشائر، التي كانت تستخدم كقوة تهديد للسلطة المركزية،إلى الجيش، وما عاد اللجوء إلى قوة العشائر وسيلة فعالة لتحقيق الأهداف السياسية أمام القوة العددية والنارية التي امتلكها الجيش.

وقد شهد عهد الملك غازي استخداما نموذجيا للجيش في فرض هيمنة القومية الكبيرة من خلال قمع تمرد الآشوريين عام ١٩٣٣ وتمرد اليزيديين عام ١٩٣٥ وتمرد الأكراد في بارزان عام ١٩٣٥ وتمرد قبائل الفرات الأوسط (الشيخ خوام في الرميثه، عشائر سوق الشيوخ، عشيرة شعلان العطية) عامي ٣٥ و٣٦. وتحت إشراف الخبراء الإنكليز بقي الجيش مستنفرا ومستنزفا في المنطقة الكردية، وتحدد شكل تسليحه وتدريبه لمناطق كردستان الجبلية. وعموما تحدد دور الجيش كقوة قمع داخلية لفرض قومية الدولة المركزية على الأطراف.. ونتيجة لذلك ارتفع دور الجيش في الحياة السياسية من خلال الضغط على الحكومة من داخلها أو إسقاط الحكومة عبر سلسلة الانقلابات العسكرية اللاحقة (بكر صدقي عام ١٩٣٦، انقلاب ١٩٣٧، انقلاب رشيد عالي عام ١٩٤١)(٥).

اعتمد العهد الملكي الطريقة الكمالية في تركيا بإشراك الكرد في المناصب العليا المدنية والعسكرية كوسيلة لربط مصالحهم بالمركز، بل استخدم أحياناً جنرالات أكراد، ومنهم قائد الانقلاب العسكري الأول بكر صدقي في قمع انتفاضات كردستان، ووصل بعضهم إلى أعلى مناصب الدولة، لكن اشتراكهم في سياسة المركز سارت على حساب قضيتهم في الجبل. وكانت النزعة السائدة هي تهدئة الكرد في الجبل من خلال الاعتراف بحقوق إدارية وثقافية محدودة ثم استثمار أية فرصة لدفع الجيش إلى حسم القضية عسكرياً. وكانت خاتمة هذا المد والجزر هي حملة عام ١٩٤٥التي شهدت أوسع هجوم للجيش العراقي في مرحلة ما بعد الحرب وأوسع استخدام للصراعات القبلية في كردستان. بعدها بدأ البارزاني هجرته الطويلة إلى الاتحاد السوفياتي وأعلنت الحكومة (الحل النهائي للتمرد).

استبشر الكرد، كما معظم العراقيين، بالعهد الجمهوري، بعد أن أخفق العهد الملكي في إيجاد حل لحقوقهم. على المستوى القيادي، أرسل الملا مصطفى البارزاني من منفاه في الاتحاد السوفياتي برقية يحيي فيها العهد الجديد وقادته ويسألهم العودة واحترام حقوق الكرد. واعترف

العهد الجمهوري في المادة الثالثة من الدستور الموقت بأن الوطن شراكة بين العرب والكرد وثبت ذلك في الشعار الجمهوري. ومثل الكرد في أعلى هيئات الدولة مثل مجلس السيادة والوزارات والمديريات، واندمجت النخب الكردية في الحياة السياسية في المركز وشهد العراق على المستوى الشعبي عرساً من الاخوة العربية الكردية.

لكن شهر العسل انتهى بتمركز السلطة عند العسكر وتمركزها ثانية في قيادة الزعيم بعد إزاحة القيادات والأحزاب إلى الوراء. وعادت الدورة التقليدية في المراوحة بين الاعتراف الاسمي بحقوق الكرد الثقافية وشراكتهم في الوطن، ونقض ذلك بافتراض أن الحركة التحررية الكردية هي امتداد لتدخل خارجي وجعل هذا التصور مبررا لاستخدام الجيش كأداة لفرض وحدة وطنية قسرية واستخدام الصراعات العشائرية لتكريد الحرب بإيجاد جيش قبلي مساند للجيش النظامي.

التعريب كعقيدة

أبدأ من هذه المقدمة التاريخية لأصل إلى أن حزب البعث الذي حكم العراق منذ حوالي الخمسة وثلاثين عاماً ورث تاريخاً من الفرق بين الوعود والتطبيقات في التعامل مع القضية الكردية، ولكنه لم يكن وريثاً تلقائياً، إنما أضاف للمعضلة بعداً من نظريته وممارسته الخاصة. فرغم إن مؤسسي البعث (عفلق والبيطار والأرسوزي) درسوا في فرنسا، إلا أن دراستهم لم تعكس تأثراً واضحا بالمواثيق والنظريات التي طرحتها الثورة الفرنسية التي ترسم علاقة المواطن، بغض النظر عن أصوله العرقية والدينية، بالدولة وعلاقة السلطة التشريعية بالتنفيذية. كانت أذهانهم متجهة إلى قومية الأمة الألمانية التي توحدت إماراتها فوقياً بتحالف الإقطاع والعسكر، وليس بفعل برجوازية قوية ذات مصلحة في التوحيد. وعلى خلاف القومية الفرنسية التي جمعت بين فكرة الأمة وحقوق المواطنة سارت القومية الألمانية خلال حروب التحرير نحو إلغاء مبادئ الديمقراطية والمواطنة وحقوق الفرد بالتركيز على الوحدة الروحية الفوقية للإمارات.

وقد كان الاستشهاد بالقومية الألمانية ملازما للفكر القومي العربي منذ ساطع الحصري بسبب وجود دول عربية تتكلم بلغة واحدة ولها تاريخ مشترك عاشت قرونا تحت الاحتلال الأجنبي والتفكك القطري. وقد تصاعدت هذه الأنا القومية في سنوات الهجرة اليهودية واحتلال فلسطين. كل هذه العوامل ـــ التجزئة احتلال فلسطين وتنامي الشيوعية ـــ أملت عليهم الاتجاه إلى الفكر القومي الألماني الساعي لإثبات الذات القومية للأمة بدلاً من إعطاء هذه الوحدة شكلها الدستوري التطبيقي.

وعلى عكس ساطع الحصري الذي انتقد الجانب الصوفي في قومية الرومانسيين أخذ ميشيل عفلق من العرقية (الأمة ذات الرسالة الخالدة) واعتبر هذه الرسالة (النهوض الروحي بالعالم) نوعا من التفويض الإلهي. ليست الأمة في نظره واقعة سياسية تتألف من شعوب اتحدت تاريخياً على أرض بعينها وشكلت وحدة سياسية مفتوحة للجميع وفق مبدأ المواطنة، إنما يعتمد الفهم العرقي الذي يربط وحدة الأمة بالدم واللغة.

وقد حكم الفارق الهائل بين مثاليات النظرية وتطبيقات الواقع نظرة البعث العراقي للشعب. فقد

تغيرت هذه النظرة حسب الرافعة الطبقية التي اعتمدها والجمهور الذي خاطبه. في المؤتمر القطري الثامن (مرحلة التنمية والبناء الاشتراكي) إعتمد البعث التقسيمات الطبقية (العمال والفلاحين المعدمين من جهة، والإقطاع، شبه الإقطاع، البرجوازية الريفية، البرجوازية الكبيرة والبرجوازية البيروقراطية...)[٦].

مع تبلور فكرة الحزب الواحد وحزب كل العراقيين عاد إلى المنطلقات الأولى بتغليب الوحدة الروحية على التنوع الاجتماعي. وقد ظهر هذا الفهم في تقرير المؤتمر القطري التاسع: (إننا ننطلق من معرفة دقيقة بأن العراقيين أصبحوا متجانسين اجتماعياً ونفسياً ومتقاربين إلى حدّ كبير)[٧]. وهنا تقوم النظرة الإرادوية بنفي أي شكل من الصراع أو التفاوت الاجتماعي أو القومي أو الديني أو السياسي، وحتى صراع الأجيال، وتصهر الجميع في بوتقة (الوحدة الروحية). ويستتبع هذا التوافق القاطع بين الناس توافق أهم بينهم وبين الحكومة تحت قائد رمز واحد موحِّد.

وينسجم هذا الصهر القسري مع آلية التطبيق العملي لنظرية الحزب القائد.. فالمركزية التي تشكل الهاجس الدائم للدولة الاستبدادية تقوم على صهر القومية الصغيرة بالقومية الكبيرة وقيادة الحزب الواحد للقومية الكبيرة وهيمنة القائد الفرد في أعلى الهرم.

ومعروف إن السلطات الاستبدادية، حتى وإن كانت وليدة العنف الخالص، تستند على مبررات تبدو منطقية عموما:

المبرر **الأول** هو أن كل مجتمع لا تقوم له قائمة بدون **سلطة سياسية** تضمن تماسكه وتتخذ القرارات التي تهم الجميع. لكن السلطة الاستبدادية تعني بهذه الحقيقة العامة **سلطتها** هي بالذات وليست أية سلطة أخرى.

المبرر **الثاني** هو إن البشرية قائمة على **أساس قوميات**. لكن السلطة الاستبدادية تعيد تكييف هذه القاعدة، فتحول الواقعة القومية إلى آيديولوجيا أحادية تقوم على إنكار حقوق القوميات الأخرى وتعتبر وجودها خللاً في الوحدة القومية. ورغم إن البحوث العلمية أثبتت بطلان وجود عرق صافٍ ونقي، إلا إن ميشيل عفلق يربط انحطاط الأمة باختلاط في النقاوة العرقية:

(هذه الفترة التي انتقل فيها العربي من الجاهلية إلى الإسلام كانت قصيرة جداً، لم يلبث العرب بعدها أن غرقوا في بحر لا نهاية له من الشعوب الغريبة المختلفة.. ومنذ أن فقدوا بعد سنوات معدودة شعورهم بوحدتهم القومية وغرقوا في اللجة المتباينة المتماوجة من الشعوب، عادوا إلى عصبيتهم الجاهلية..ولقد تلت هذا عصور الضعف التي بدأت منذ فقد العرب التجانس القومي)[٨].

ويحدث عادة توافق بين هذا الانغلاق والعصبية العرقية وبين كراهية الآخر، خارج الحدود كان أو داخلها، والنظر إليه وفق المفهوم التآمري التاريخي باعتباره عدوا كامنا يتربص حالات الضعف. ولذلك تقوم لحمة الأمة على إلغاء الآخر الغريب بدلاً من إرادة العيش المشتركة.

من الصعب القول إن كلاسيكيات النظرية وحدها حكمت موقف البعث من القوميات الأخرى والكردية بالتحديد. إنما سارت النظرية تبعا لتغير الموقف السياسي العام مواقف من القضية

الكردية. ولكن الثابت في هذه السياسة هو إن التعريب هاجسها بينما كان الاعتراف بالحقوق القومية متغيرا وتكتيكيا.

ثلاثية التعريب

اعتمدت فكرة التعريب على ثلاثة محاور: **الأرض والهوية والوجود.**

فحين يلغى حق المواطنة تصبح **الأرض** موضوعا للصراع بين القومية الكبيرة والقوميات الأخرى. الأرض تتحول إلى القيمة القومية الأساسية عند الناس وأصل النزاعات. وقد استندت عملية إخلاء الأرض من سكانها الأكراد على تبرير نظري يرى القوميات القاطنة في الدول العربية المعاصرة جاليات غريبة، لاحق لها في الأرض التي تقيم عليها (فالأرض التي تعيش عليها هذه القوميات، كانت جزءاً من الدول العربية التي نشأت منذ آلاف السنين، والتي كان آخرها الدولة العباسية الكبرى. وهذه الأرض هي، في الوقت نفسه، موطن تلك القوميات. وعلى هذا الأساس فإن الهوية العربية للأرض التي تعيش عليها هذه الأقليات لم تأت عن طريق القهر والاستعمار أو الاستلاب، إنما نتيجة للواقع التاريخي الممتد عبر آلاف السنين. ولم يكن عبر تلك الحقبة التاريخية الطويلة أي جدال أو نزاع)[٩]. وتنكر هذه النظرة على القوميات الأخرى حق تكوين كيان قومي، لأنها تنكر عليها الأرض التي تقيم عليها. وطبق ذلك عمليا بقرار مجلس قيادة الثورة في ١٩٨٧/٤/٢٥ المعنون بـ(حسم نشاط المخربين): إعادة إفراغ الشريط الحدودي مع إيران وتركيا وسوريا بعمق (٣٠) كيلومترا من أية حياة إنسانية.. ويعني ذلك بالأرقام إزالة اكثر من ٤٥٠٠ قرية وناحية ومدينة بينها ٢٤ قضاءً.. كما تنص الخطة على إفراغ المناطق السكنية المحاذية للطرق العامة وتحويل بيوتها إلى مساحات مسواة بالأرض. كان هدف-الخطة كما اتضح لاحقا هو إعادة رسم كردستان أرضاً وبشراً على أساس خارطة ما بعد ١٩٧٥ بشكل مساحات هائلة مفرغة من أية حياة، مزروعة بالربايا العسكرية والمعسكرات وحقول الألغام، تقطعها طرق مجدبة تتحرك عليها الآليات والدبابات، وعلى جانبيها قرى مدمرة محروقة بلا بشر. والهدف الثاني اعتقال الشعب الكردي في اقل من ٥٠ مدينة وبلدة يجري تحويلها إلى معتقلات احترازية محاطة بالحواجز والسيطرات وحقول الألغام. كما تهدف الخطة إلى تدمير الإنتاج الزراعي والحيواني في كردستان، وإقامة حياة اقتصادية جديدة تعتمد على هبات الحكم المركزي وما يترتب على ذلك سياسياً من خلق قاعدة للتعريب.

تدمير الأرض يعني بالتالي تدمير البيئة الاجتماعية والثقافية للمجموعة التي تعيش عليها. وهي الخطوة الضرورية لتدمير **الهوية**. فالأرض وعاء للوسط اجتماعي. وداخل هذا الوسط يجد المواطن نفسه داخل عالم من التقاليد والعادات وقواعد الحقوق والآداب والمفاهيم الفكرية والجمالية التي تشكلت عبر التاريخ والتي تشكل هوية الفرد في هذه المجموعة ووعيه لذاته ومحيطه. وتشكل اللغة وسيلة اتصال ضمن الجماعة وحاملة ثقافتها.

وتقوم فكرة التعريب على إن المواطن سينسى قوميته وهويته القومية الأولى بمجرد نقله إلى

محيط آخر وإحاطته بتجمع بشري مختلف وفرض منظومة فكرية وتربوية تمت للقومية الكبيرة. وتعتبر التجربة الكمالية المستمرة في تركيا بتتريك الكرد نموذجا في محاولات إلغاء الهوية الكردية للأجيال الجديدة ودمجهم بالهوية المركزية. وقد عمل البعث العراقي على اتباع قاعدة التهجير والتعريب من أجل تفكيك المجتمع الكردي ووحدته المكانية بنقل المجموعات إلى جنوب ووسط العراق، أو إلى مجمعات سكنية تشبه معسكرات الاعتقال. في المكانين يكون المهجر الكردي مقطوعا عن إنتاجه. والإنتاج هنا ليس مجرد وسيلة للحصول على العيش. فهو بجانب ذلك تعاون وعلاقة بين البشر ويعطي للمنتج هوية وفاعلية. هدف التهجير هو حرمان المواطن من بيئته الإنتاجية وبيئته الثقافية معا، أي جعل الهوية شيئا يمت للماضي وليس للحاضر. وجعل المواطن مرتبطا معيشيا ومصيريا بهبات السلطة المركزية. مقابل ذلك نقل قبائل عربية وتوطينها في المناطق الكردية لتعريب الأرض التي كان يقيم عليها الكرد على أمل التحول إلى أمر واقع بمرور الزمن.

الإبـــــادة

ولكن للواقع وللآخرين وجودهما الموضوعي الذي يقاوم إرادة التكييف أو الإلغاء. فالقومية المعرضة للإبادة تؤكد هويتها الثقافية بإنكار ثقافة المركز. وحين يعجز المركز عن إلغاء هويتها يتحول الصراع إلى حرب وجود. يبدأ القمع فردياً، فإذا استعصت تلك القوة على الرضوخ ستحاول إلغاءها مع المحيط السكاني الذي فرضه الواقع الموضوعي. وتشكل عمليات الإبادة الشاملة (الأنفال) مثالا صارخا للمزج بين التعريب والإبادة. فلتحديد المجموعة البشرية المستهدفة ليست هناك مناسبة أفضل من عملية الإحصاء السكاني التي جرت في ١٧ تشرين الأول ١٩٨٧. كانت عمليات الإحصاء التي شهدها العراق منذ الاستقلال، مرة كل عشر سنوات، إحصائيات بحتة. في عهد البعث أخذت هذه العمليات طابعاً أمنياً مع تركز المراقبة الأمنية على الناس وعمليات التهجير والتغيير السكاني، حيث تضمنت استمارة الإحصاء أسئلة لا تتعلق بمواطنة المواطن فقط، إنما أيضا باعتقاداته واعتقادات أقاربه لمعرفة مدى ولائه للسلطة. في كردستان كانت هذه العمليات تجري مع تغيير الطابع السكاني بوضع أكراد أمام خيارين: إما التسجيل كعرب، أو الخضوع لملاحقة الدولة ومعسكرات اعتقالها في المجمعات. وعلى الباقين، من تركمان وكلدان وآشوريين ويزيديين الخيار بين قوميتين لا علاقة لهم بها (كرد أو عرب). ويحرم الذين رفضوا الخيارين من حق المواطنة العراقية. عمليات التطهير الربيعي التي سبقت الإحصاء كونت حزاماً مفرغاً من أية حياة بين المناطق الخاضعة للسلطة والمناطق الخاضعة للبيشمركه. قبل الإحصاء عرض حاكم الشمال العسكري على سكان المناطق الخاضعة للبيشمركه إنذاراً نهائياً: (للعودة للصف الوطني)! وكان معنى ذلك لسكان القرى ترك بيوتهم ومزارعهم والعودة للمجمعات المشؤومة الواقعة تحت سيطرة قوات الأمن، وما حدث لمدينة حلبجه وقبل ذلك مصائر البارزانيين الذين غابوا عن الوجود ماثلة أمامهم. وما لم يعودوا إلى (الصف الوطني) ويشملهم الإحصاء لن يعتبروا موجودين. ولم تقتصر عملية الإفناء بالأسلحة الكيمياوية وبالمجازر الجماعية

على المجموعات الخارجة عن سيطرة السلطة، فقبل أن يبدأ الإحصاء جرت عمليات تهجير مئات من عوائل البيشمركة إلى المناطق التي ستشملها عمليات الانفال(١٠).

جريمة جينوسايد نموذجية: تبدأ بإنكار الحق القومي لمجموعة من الناس، ثم إنكار وجود هذه المجموعة عقائدياً، وينتهي الآمر بإبادتها جسدياً.

أرجع لنقطة البداية. هل التعددية هي قدر العراق السيئ؟

التعددية ليست قدراً سيئاً ولا خللاً مجتمعياً يخص بلادنا المنحوسة الطالع، أو البلاد النامية عموماً، إنما هي موجودة في بلدان متقدمة أو متخلفة على السواء. الفارق يكمن في أسلوب التعامل مع هذه الظاهرة. فمن الممكن تحويل التعددية إلى ظاهرة إثراء حضاري وديمقراطي حين يتم الاعتراف بالتعددية والإقرار بشرعيتها واحترام الحقوق الثقافية والسياسية للمجموعات كمدخل للوحدة الطوعية. وعلى العكس، تتحول إلى تعارض وصراع، خاصة عندما تسعى جماعة للسيطرة على الجماعات الأخرى، دينية كانت أو قومية أو طائفية، وتذويبها بالقوة المعنوية والمادية. وتزداد حدة التوتر حين تقترن التمايزات القومية بتمايزات اقتصادية وسياسية، كأن تستحوذ القومية المسيطرة على السلطة واقتصادها حارمة القوميات الأخرى من المشاركة السياسية والاقتصادية.. آنذاك تخرج القومية الأخرى من الانغلاق إلى العنف للدفاع عن هويتها. ومن هنا فإن الاتجاه نحو المركزية القسرية يصبح خطراً على الدولة لأنه يجعل السلطة وليس حقوق المواطنة موضوع الصراع.

ولم يرنا التاريخ حالة واحدة من نجاح قومية ما في تذويب قومية أخرى بالعنف. على العكس، يرينا عالم القطب الواحد الحالي تفتت الكيانات الكبيرة إلى وحداتها القومية الصغيرة، كما يرينا يقظة الإثنيات والأديان في أكثر من ١٥٠ حرباً أهلية واستعادة تاريخ من الكراهية العرقية والدينية سببته عقود من محاولات لتذويب بالقوة.وقد أكد تاريخنا العراقي الترابط الجدلي بين الديمقراطية للعراق ككل وبين والتوجه إلى حل القضية الكردية، فتدهور العلاقة بين الدولة المركزية والأكراد كان دائماً الحافز والنتيجة لصعود العسكر في الدولة وإعلان حالة الطوارئ العامة بتغييب مؤسسات المجتمع المدني من أحزاب ومنظمات وتركز الحكم في أضيق الحلقات العسكرية والعائلية. ويصح العكس أيضاً بحيث يصعب التمييز بين العلة والمعلول، والسبب والنتيجة.

والمشكلة تكمن في أن الأهداف العامة المعترف بها من الطرفين (شراكة العرب والكرد) تصبح موضوع تساؤل كلما تبددت وسائل تحقيقها وستحل الريبة محل عقلانية التعامل كلما استطال تاريخ العنف.

والقومية الثانية كلما واجهت مزيداً من الضغوط وحروب الإبادة تلتف وتنغلق على نفسها وتحيط نفسها بقشرة صلبة فلا تعود قادرة على التفاعل في المحيط الأكبر. الخصوصيات المحلية تتحول إلى قاعدة عامة فينفصل نضالها السياسي من أجل حقوق الكرد القومية والسياسية عن

النضال من أجل الديمقراطية في البلد ككل. وللانغلاق ديناميته الخاصة التي تأخذ نحو انغلاق الحزب داخل القومية، وانغلاق الكتلة القرابية داخل الحزب.. آنذاك سيكون الحل في أفضل أحواله إتفاقاً فوقياً وآنياً بين سلطتين مستبدتين، لأن من المستحيل أن يكون هناك تحالف دائم بين الديمقراطية والاستبداد.

النضال من أجل المواطنة هو الرفيق الدائم للنضال من أجل الحقوق القومية. هذه الرفقة لن تحل فقط المشكلة الأزلية لعلاقة الطرف بالمركز، إنما تحل كذلك المشكلة في المركز والطرف معاً. □

الهوامش

(١) الملك فيصل الأول: رسالته السرية إلى صفوة من أعوانه عام ١٩٣٢.

(٢) توزيع القوات إلى شمالية وشرقية وجنوبية استهدف السيطرة على مناطق الاضطرابات القبلية. وعندما كان مجلس الوزراء في ٣٦/٣/٢٤ يناقش أفضلية السفن الحربية الصغيرة أم الكبيرة، كان القرار هو اعتماد السفن الصغيرة الصالحة للعمل في الأنهار الصغيرة والأهوار لمواجهة تمردات قبائل الفرات الأوسط في حين تركت حماية المياه الخارجية للأسطول البريطاني في الخليج.

(٣) د. كمال مظهر: صفحات من تاريخ العراق المعاصر ص٨٧-١١٥.

(٤) بطاطو: العراق ــ الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية ــ الكتاب الأول، ص١٤٧، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية.

(٥) تحت تأثير حركة الشباب الهتلري ومعسكرات العمل الألمانية اتجه نحو عسكرة المجتمع فشهدت حركة الكشافة في زمنه صعودا حادا حيث طلب من مدير التربية البدنية عام ١٩٣٤ رفع عدد الكشافة في عمر ١٥-٢٥ إلى ٢٥ كشافاً مدربين تدريبا جيدا ومرتبطين رسميا بالبلاط وإداريا بوزارة المعارف. وفي عهده شرع نظام الفتوة رقم ٥٠ لسنة ١٩٣٥ الذي يقوم على شمول طلاب المدارس المتوسطة والثانوية ودور المعلمين والصنايع بتدريب عسكري قاسي واستخدام السلاح بإشراف وزارة الدفاع، كما تأسست (جمعية الجوال العربي) ونادي الفتوة.

(٦) التقرير القطري الثامن: ص٩٠-١١٤.

(٧) التقرير القطري التاسع: ص١٨٣.

(٨) ميشيل عفلق: في سبيل البعث ــ حول الرسالة العربية، ص١٨٣.

(٩) مسألة الأقليات في الوطن العربي ــ من مقررات المؤتمر القطري الحادي عشر لحزب البعث العربي الاشتراكي، مطابع دار الثورة، بغداد ١٩٧٩.

(١٠) Iraqs crime of genocide-human right watch

الرأسمالية المعولمة

وفعالية اليسار العربي

لطفي حاتم

حملت المرحلة الجديدة من التوسع الرأسمالي الكثير من الظواهر الدولية المتناقضة بدءاً من التكتلات الاقتصادية والتقدم التكنولوجي مروراً بعسكرة السياسة الدولية وتآكل مبدأ السيادة الوطنية وانتهاءً بغياب المنظومة الفكرية ــ السياسية المكافحة ضد البربرية الرأسمالية. وبسبب ذلك الغياب يحاول إيديولوجيو الرأسمالية المعولمة إشاعة الأوهام الفكرية حول فعالية الليبرالية الجديدة وروحها (الديمقراطية) المرتبطة بقيم السوق المتحرر من أية رقابة اجتماعية أو دولية.

في مناخ الشك والضجيج تواجه الباحث كثرة من الأسئلة منها: هل تشترط العولمة الرأسمالية ظهور نواتات لسلطة دولية تتخطى الكيانات الوطنية؟ وأن ظهرت مثل هذه السلطة، فهل تنشأ على أساس التوازنات الدولية/ الوطنية؟ وإن كان الجواب سلباً فهل تفترض تلك الاختلالات انبثاق حركة أممية متعددة الأطياف الاجتماعية/ السياسية مناهضة للوحشية الرأسمالية؟ وقبل هذا وذاك هل هناك ضرورة موضوعية لإغناء وتطوير المنظومة الفكرية لليسار الاشتراكي تمشياً ومتطلبات مرحلة الرأسمالية المعولمة؟

اجتهادات كثيرة وهموم متباينة تتصارع في حلباتها الآمال المشرقة والحلول التشاؤمية. ورغم الكم الهائل من التحليلات المتفائلة منها واليائسة تحرز الرؤى المطالبة بترصين الكفاح المعادي لبربرية رأس المال، على أسس فكرية معللة، تقدماً شعبياً.

بهدف مواصلة الحوار حول آفاق تطور كفاحنا الديمقراطي المناهض لوحشية رأس المال المعولم أحاول التعرض إلى موضوعتين مترابطتين أولهما، محاولة تشخيص السمات والترابطات الجديدة للتشكيلة الرأسمالية المعولمة؛ وثانيهما، التعرض لأفكار وآراء محددة أزعم أنها تساهم في تنشيط الفعالية الفكرية/ السياسية لليسار الديمقراطي العربي.

الرأسمالية المعولمة وتناقض مسار تطورها

أفضى الطور الجديد من التوسع الرأسمالي إلى ظهور ما يمكن تسميته بالتشكيلة الرأسمالية المعولمة المتجلية بترابط وتناقض مستويات بنيتها الاقتصادية ــ الكونية التي يسير تطورها باتجاهات متباينة. ويعود ذلك إلى تعارض مصالح مكوناتها الدولية/ الوطنية الذي يتحكم في تطورها قانون الاستقطاب الرأسمالي ونوازعه الإدماجية ــ التخريبية من جهة، واحتكار المراكز الرأسمالية للتكنولوجيا المتقدمة المدنية منها والعسكرية وسيطرتها على مصادر الطاقة والمؤسسات المالية والمنظمات الدولية، من جهة أخرى.

استناداً إلى تلك الموضوعات يمكننا تحديد مستويات تطور التشكيلة الرأسمالية المعولمة بالمؤشرات التالية:

١. تواصل عمليات الاندماج والاتحاد في المراكز الرأسمالية بين الشركات الوطنية/ الدولية وما نتج عنها من ظهور بنية حقوقية ــ إدارية ــ دولية تتخطى قوانين الدول القومية. وبالضد من تلك الاندماجات والترابطات تجري إعادة هيكلة الاقتصادات الوطنية لأطراف التشكيلة الرأسمالية وربطها باتجاهات تطور الاحتكارات الدولية.

٢. تحول الشركات العابرة للقارات بسبب عمليات الإدماج والتشابك إلى قاطرات اقتصادية لتوجيه وقيادة مستويات تطور الاقتصاد ــ العالمي، الإقليمي والوطني ــ وما نتج عن تلك القيادة من تأثيرات اجتماعية ــ سياسية يمكن رصدها في مسارات عدة أهمها:

أ. نشوء وتطور اصطفافات سياسية بين القوى الاجتماعية المناهضة للعولمة الرأسمالية التي فرضتها البنية الاقتصادية ــ الحقوقية ــ الإدارية ــ الثقافية للشركات العابرة للقارات على السوق الرأسمالية فضلاً عن تقارب القوانين العامة وآلية عمل المؤسسات الحكومية في المراكز الرأسمالية.

ب. تخريب التشكيلات الاجتماعية في الدول الوطنية الذي أفرز توترات عرقية ــ طائفية تهدد وحدة الأنسجة الاجتماعية والمكونات الطبقية في التشكيلات الوطنية.

٣. أدت تلك التغيرات إلى تحجيم الوظائف الاقتصادية/ الخدمية للدولة الرأسمالية وما يعنيه ذلك من تضخيم وظائفها العسكرية/ المخابراتية على المستويين الوطني والدولي تمشياً وتطور المصالح الاستراتيجية لحركة رأس المال المعولم. وبهذا الاتجاه يمكن القول إن مسار تطور التناقضات الاجتماعية/ السياسية في الدول الوطنية والتدخل في شؤونها الداخلية باتت تشكل مضمون السياسة الخارجية للدولة الرأسمالية.

٤. تترافق التحولات المشار إليها في المراكز الرأسمالية وتطورات أخرى على مستوى أطراف التشكيلة الرأسمالية تتمثل بالعمل على تحويلها إلى دول كومبرادورية/ حارسة للمصالح الدولية. ويعني ذلك تضاؤل مساهمتها في التأثير على اتجاهات تطور السياسة الدولية من جهة، وتنامي فعاليتها القمعية على النطاق الوطني، من جهة أخرى.

٥. رغم المساعي التي تبذلها المراكز الرأسمالية لصياغة سياسية دولية (موحدة) تعتمدها لبناء العلاقات الدولية الجديدة، إلا أن تلك المساعي تحدها تعارضات التكتلات الاقتصادية الدولية ومصالحها الاستراتيجية حيث تتبدى تلك التناقضات في أشكال المنافسة المحتدمة والمتبلورة بثلاثة مستويات:

أ. منافسة بين الشركات الاحتكارية الوطنية/ الدولية الهادفة إلى الامتداد والهيمنة على أسواق المراكز الرأسمالية.

ب. صراع بين المراكز الرأسمالية واحتكاراتها الدولية على مستوى صياغة التكتلات الاقتصادية الإقليمية والهيمنة على مسار تطورها.

ج. المنافسة بين الاحتكارات الدولية على أسواق وثروات الدول الوطنية بهدف السيطرة عليها وإعادة بناء تشكيلتها الاجتماعية/ السياسية.

إن استعراض مستويات تطور التشكيلة الرأسمالية المعولمة والعلاقات التنافسية بين التكتلات الاقتصادية الكبرى يترابط والتغيرات الجديدة في العلاقات الدولية المتمثلة بتحجيم دور المؤسسات الدولية الضامنة لوحدة المصالح الوطنية/ الدولية، وتفكك مبدأ السيادة الوطنية الذي شكل الحجر الأساس لبناء العلاقات الدولية منذ ظهور الدولة القومية.

حركة التحرر بين الركود والأزمة

منذ زمن وحركة التحرر الوطني العربية بتياراتها اليسارية الديمقراطية والقومية تعاني أزمة شاملة تعددت تاثيراتها السياسية/ الاجتماعية. لذا فإن تحليل المضامين الفعلية لذلك الركود، وتحري أسبابه الحقيقية يتمتع بأهمية فكرية وضرورة عملية، الأمر الذي يدعونا إلى معاينة المصاعب الحقيقية وأشكال تجلياتها والتي يمكن وضعها بمحاور ثلاثة:

أولاً: **غياب البديل الفكري** الناتج عن انهيار البناء الإيديولوجي للتجربة الاشتراكية (الفعلية) الذي تمخض عنه ضياع البدائل الفكرية المقاومة لإيديولوجية الليبرالية الجديدة المتسلحة بشعارات جذابة، وشيوع الأوهام حول نهاية التاريخ وخلود الرأسمالية كخيار للتطور الاجتماعي.

ثانياً: **تقادم الركائز البرنامجية** حيث أدت الانهيارات الكبرى للركائز الأيديولوجية للأممية الثالثة إلى غياب البرامج السياسية ذات الأطر الفكرية، الأمر الذي يتطلب صياغة رؤية واقعية ومواقف فكرية سياسية جديدة عن طبيعة الترابطات والتشابكات الدولية/ الوطنية التي أفرزتها الرأسمالية المعولمة.

ثالثاً: **انحسار القاعدة الاجتماعية** لحركة اليسار العربية التي أنتجتها كثرة من العوامل الذاتية والموضوعية منها:

أ. **عزوف** الكتل الشعبية عن الانخراط في العمل السياسي النشيط بسبب الخيبات المتكررة التي أفرزتها البرامج المثالية التي كافحت في ظلها الجماهير العربية.

ب. **القمع السلطوي** المتواصل ضد اليسار العربي، فضلاعن دور السلطات العربية في تزييف وإفراغ النشاط الشعبي من مضامينه الفكرية/ السياسية بسبب احتكارها لمؤسساته الاجتماعية.

ج. **الليبرالية الجديدة** وما فرضته من وصفات اقتصادية على الدول الوطنية وما نتج عنها من إقصاء العديد من الشرائح الطبقية الناشطة اقتصاديا عن مراكز الإنتاج الفعلية وتحولها إلى قوى هامشية.

لقد أدت عمليات التهميش الجارية للكثير من القوى الطبقية الفاعلة في التشكيلات العربية القطرية إلى بناء محيط اجتماعي واسع تتفاعل في حركته الاحتجاجية المشاعر السلفية والأفكار الغيبية.

من التنمية الوطنية الى التبعية الكولونيالية

تتزامن الإشارة إلى انحسار التأثير الفكري/ السياسي لقوى اليسار العربية على الكتل الشعبية وانهيار ركائز الفكر القومي المتمثل بـــ(الوحدة القومية، الاشتراكية العربية، الشرعية الانقلابية، عسكرة الدولة القطرية.. الخ). ورغم تأثر الفكر القومي وحوامله الاجتماعية بالخصائص القطرية إلا أن حركته السياسية وتجربته التاريخية في الحكم أنتجت وبدرجات متفاوتة منظومات سياسية تتسم بالمؤشرات التالية:

١. أنظمة حكم شمولية ذات لون واحد تتسم باحتكار السلطة والحياة الاجتماعية.

٢. سيادة النزعة الإقصائية المناهضة للديمقراطية السياسية.

٣. تطوير النزعة العسكرية استنادا إلى تغليب التحديات الخارجية.

٤. اندماج العديد من التيارات القومية في البنية الإدارية/ الأمنية لسلطة (الشرعية الثورية).

إن السمات السياسية/ الاجتماعية لأنظمة (الشرغية الانقلابية) المشار إليها أفرزت **نتيجتين** خطيرتين على تطور الحياة السياسية: أولهما، تفكك البنية الفكرية ـ السياسية لفصائل الحركة القومية بعد تحولها إلى نزعة قطرية؛ وثانيهما، إفراغ دولة (التحرر الوطني) من توجهاتها الوطنية المستقلة بعد تحول بيروقراطيتها السياسية إلى قوى طبقية متحالفة مع الشرائح البرجوازية الداخلية والاحتكارات الدولية.

تقديراً للفرضية الفكرية/ السياسية المشار إليها نحاول تفحص السمات الواقعية للقوى الطبقية الجديدة الناهضة في التشكيلة الوطنية لدولة (الشرعية الانقلابية) وتأشير أدوارها السياسية والتي يمكن حصر قواها بالشرائح الاجتماعية التالية:

ـ الطواقم البيروقراطية المدنية/ العسكرية المتنفذة في أجهزة الدولة القيادية التي تحولت إلى فئات طبقية تساهم بفعالية في إدارة وتوجيه الاقتصاد الوطني انطلاقا من امتلاكها القرار السياسي/ الاقتصادي الذي تجسد أخيرا في تبني مبادئ الليبرالية الجديدة وسياسة الأبواب المفتوحة.

ـ البرجوازية الوطنية الناشطة في قطاع إنتاج الصناعات الاستهلاكية والذي يعيق نموها وتطورها تدفق البضائع الأجنبية المماثلة للمنتجات الوطنية التي حررت حركتها الاتفاقات التجارية الدولية، الأمر الذي أجبر البرجوازية الوطنية على التنسيق والترابط مع أنشطة الاحتكارات الدولية وما يعنيه ذلك من تحجيم فعاليتها الوطنية.

ـ القوى البيروقراطية المهيمنة على بقايا قطاع الدولة (الاشتراكي) والمترابطة مصالحها ومصالح قوى البرجوازية المحلية والرأسمال الدولي الوافد من خلال مشاركة الأخير في مؤسسات قطاعات الدولة الاقتصادية/ الخدمية ومساهمته في الأنشطة الاقتصادية الخاصة.

ـ برجوازية قطاع الخدمات والعقارات التي اتسعت مديات أنشطتها الخدمية من خلال مساهمة الرأسمال الدولي في تطوير المرافق السياحية/ الخدمية. ومن الملاحظ أن هذه القوى الاجتماعية تتشابك مصالحها مع شريحة طبقية أخرى تتمثل بوكلاء الشركات التجارية الأجنبية/ ومؤسسات الإعلان، الأمر الذي جعلها تتصدر المشهد الاقتصادي وأضواءه الزائفة.

ـ إن الإشارة إلى هذه الشرائح والفئات الاجتماعية تشترط تأشير مواقع البرجوازية الريفية التي اتسعت فعاليتها الإنتاجية/ السياسية نتيجة لعاملين. أولهما، تعديل قوانين الأرض التي أعادت الأراضي المصادرة سابقا نتيجة لقوانين الإصلاح الزراعي إلى مالكيها الإقطاعيين وما نتج عن ذلك من إعادة الفعالية السياسية/ الاجتماعية إلى أغنياء الريف؛ وثانيهما، القوانين الجديدة التي تسمح للشركات الأجنبية شراء وامتلاك الأراضي الأمر الذي أدى إلى تطور العلاقات الإنتاجية الرأسمالية في الريف العربي على قاعدة تحالف مالكي الأرض الكبار مع الرأسمال الخارجي.

ـ إن تطور التشابك الوظيفي بين الرأسمال العربي والرأسمال الاحتكاري. من خلال الأنشطة المختلفة (وبالأخص منها تلك المتمثلة بتوظيفات الأموال العربية في البنوك والمؤسسات المالية الأجنبية، شراء الأسهم في الشركات الاحتكارية، والمضاربة مع الرأسمال الأجنبي في الأسهم والسندات والعقار) يجعل البرجوازية المالية (الريعية) في العديد من البلدان العربية قاطرة لسياسة التحالفات مع الشركات الاحتكارية.

ـ تزامنت التغيرات الاجتماعية المشار إليها مع تحولات في أقسام القاعدة الاجتماعية للطبقات الوسطى ـ خاصة الأجزاء المدْنية منها ـ وذلك بسبب تلاحم فئاتها العليا مع الشرائح الطبقية السائدة اقتصاديا التي تعمل بدورها على توفير فرص التشغيل لامتصاص كفاءة الفئات المتعلمة من الشرائح الطبقية الوسطى.

استنادا إلى طبيعة القوى الطبقية السائدة اقتصاديا في المجتمعات العربية تواجهنا الأسئلة التالية : هل تستطيع القوى الاجتماعية التي تتصدر المشهد الاقتصادي العربي إنجاز عملية التقارب الاقتصادي بين الأسواق العربية؟ وهل تستطيع البرجوازية في البلدان العربية بشرائحها المتعددة تطوير تعاون اقتصادي يشكل منطلقا لفيدرالية سياسية عربية؟

الإجابة على الأسئلة المثارة تفترض التعرض إلى حركيتين متناقضتين هما، حركة رأس المال التوسعية/ الإلحاقية، وحركة القوى الاجتماعية المناهضة للسمات التدميرية لرأس المال المدول.

الاحتكارات الدولية والتكتلات الإقليمية

من المعروف ان لقانون الاستقطاب الرأسمالي باعتباره القانون الأرأس في التشكيلة الرأسمالية المعولمة آثارا تدميرية على الدول الوطنية وتشكيلاتها الاجتماعية. وتتمثل سماته الإلحاقية في إعادة ادماج اقتصادات الدول الوطنية بما يتلاءم وتطور الاحتكارات الدولية التي تعمل بدورها على إقامة أشكال جديدة من التشابك والترابط مع الدول الوطنية خاصة في مجالات الهيمنة على الثروات الوطنية، وحرية حركة رأس المال المدول وفرص استثماره وصولا إلى بناء تكتلات اقتصادية إقليمية تابعة لها. وهنا لابد من الإشارة إلى أن الليبرالية الاقتصادية المفروضة بقوة المؤسسات المالية الدولية تلعب دورها في إحداث تغيرات هيكلية في مواقع ومكانة المكونات الطبقية للتشكيلة الوطنية. فهي، بمعنى أخر، تسرّع عملية الحراك الاجتماعي لصالح القوى الطبقية الناهضة في هذه البلدان والمتشابكة مصالحها الاقتصادية ومصالح الشركات الدولية.

إن الموضوعة المشار إليها تكتمل عند التعرض إلى آثارها التدميرية على مستقبل الدول الوطنية وشعوبها والتي يمكن تأشيرها بـــ:

أولا: رغم تقدمية عمليات التشابك والإدماج وتشكيل التكتلات الاقتصادية الإقليمية قياسا إلى الاقتصادات الوطنية المنعزلة، إلا أن ترابط تلك العمليات وحركة قوانين التمركز والتركز والاستقطاب تشكل عودة إلى اقتسام العالم بين التكتلات الاقتصادية الدولية، حيث تتزامن محاولات الاقتسام مع إعادة هيكلة الجغرافية السياسية التي أفرزتها حقبة المعسكرين لصالح التكتلات الاقتصادية الدولية.

ثانيا: تفضي إعادة اقتسام العالم بين التكتلات الاقتصادية الدولية إلى إقامة التحالفات العسكرية التي تشكل بدورها عتبة أساسية نحو تسريع الترابطات الاقتصادية وما يفرزه ذلك من بناء أنظمة أمن إقليمية مندمجة مع النظام الأمني/ السياسي/ الاقتصادي لهذا التكتل الدولي أو ذاك.

ثالثا: يؤدي اقتسام العالم العربي بين التكتلات الاقتصادية الدولية إلى إجهاض مشروع التكامل الاقتصادي العربي الذي يشكل ركيزة أساسية نحو تحقيق الأمن العربي واستبداله بأمن إقليمي يرمي إلى تعزيز التحالف الاستراتيجي الأمريكي ـــ الإسرائيلي ـــ التركي وتطويره إلى تكتل اقتصادي يشكل قاطرة إقليمية لسوق شرق أوسطية.

استنادا إلى التحليل المشار إليه يمكننا صياغة الاستنتاج التالي:

يشكل تفكيك وتركيب التشكيلات الاجتماعية للدول الوطنية وإعادة بناء اقتصاداتها لغرض دمجها في اقتصادات إقليمية تابعة جوهر الكولونيالية الجديدة المتجاوبة ومصالح المراكز المتقدمة من التشكيلة الرأسمالية المعولمة.

حركة اليسار العربي ومضامينها الجديدة

تكتسب حركة اليسار العربي في ظروفنا التاريخية الملموسة مضامين جديدة تشترطها طبيعة التطورات التي أفرزتها المرحلة الجديدة من التوسع الرأسمالي والمتمثلة بعاملين:

أولا: تخلخل المنظومة الفكرية ــ السياسية لقوى اليسار الأممي المناهض للعولمة الرأسمالية.

وثانيا: انفلات الرأسمالية المعولمة وتجلياتها المتوحشة الفكرية/ السياسية المتمثلة بالعسكرة والليبرالية الجديدة.

على أساس هذين العاملين فإن المضامين الجديدة لحركة اليسار العربي تتلخص في وحدة برامجه الوطنية ــ الديمقراطية مع مهامه القومية التحررية.

إن التشابك التاريخي الملموس بين البرامج الوطنية ــ الديمقراطية والمهام القومية ــ التحررية يستمد مشروعيته من موضوعة أن الدولة القطرية باتت في دائرة التفكك والتهميش التي تعمل على تسريع وتائرهما قوانين حركة رأس المال المعولم والمصالح الاستراتيجية للمراكز الرأسمالية.

إن إعادة بناء العلاقات الكفاحية بين فصائل اليسار الديمقراطي في البلدان العربية وإكسابها المضامين الوطنية الديمقراطية والقومية التحررية تتطلب البحث عن أشكال مؤسساتية ملموسة تؤطر وحدتها الكفاحية. وفي هذا الاتجاه أقدم رؤية تنظيمية/ فكرية/ سياسية تستند إلى ملاحظتين أساسيتين:

الملاحظة الأولى، أن الرؤية التي اطرحها ترتكز على دالات فكرية/ سياسية لم تكتمل بعد، بمعنى أنها قابلة للنقاش والإغناء والتطوير. والثانية، أن الدالات الفكرية/ السياسية التي أعتمدها تنطلق من روح تجديدية تتماشى والتطورات الجديدة (لروح العصر).

أولاً: أشكال مؤسساتية

تشترط إعادة اللحمة الفعلية بين أحزاب اليسار الديمقراطي في الظروف التاريخية المعاشة بناء أشكال تنظيمية تشكل أطرا مؤسساتية دائمة تتماشى ووحدة مهامها الوطنية/ القومية. وفي هذا الاتجاه يتمتع بأهمية استثنائية بناء المؤسسات التالية:

١. تشكيل مؤتمر إقليمي لتجمع الأحزاب الشيوعية واليسارية الديمقراطية في البلدان العربية يأخذ على عاتقه عقد جلسات دورية تكون بديلا عن اللقاءات الموسمية التي اتسمت بالركود والتبعية للأحداث الكبرى.

٢. يتبنى المؤتمر الإقليمي تشكيل لجان تنسيق ومتابعة بين الأحزاب الأعضاء لغرض تطوير وديمومة النضالات المشتركة وإعطائها طابعاً إقليمياً يتلاءم وطبيعة المرحلة الجديدة من تطور العلاقات الدولية.

٣. تتحدد فعالية لجان التنسيق والمتابعة بمدى ترابطها والنيوج السياسية ـ الوطنية لأحزاب اليسار الديمقراطي الرامية إلى استنهاض الكتل الشعبية المناهضة لسياسة التغييب السلطوية والتبعية الكولونيالية. بكلام آخر، إن لجان التنسيق والمتابعة ترتكز على فعالية الكفاح الوطني ـ الديمقراطي الذي يشكل مصدرا أساسيا من مصادر تطوير التضامن الكفاحي على المستوى القومي.

٤. تشكيل معهد للدراسات الفكرية يعني بتنضيج رؤى فكرية/ سياسية نقدية لمواجهة أيديولوجية الرأسمال المعولم واتجاهاته التدميرية ونزعاته المعادية لوحدة وتفاعل الحضارة الإنسانية.

باختصار، إن تشكيل مؤتمر إقليمي عام للأحزاب اليسارية الديمقراطية في البلدان العربية يمكن أن يشكل رداً سياسيا فاعلا من قوى التغيير الديمقراطي على مساعي الليبرالية الجديدة الهادفة إلى حصر القوى الديمقراطية بإطارات وطنية منعزلة، والقبول بإنجازات اجتماعية/ سياسية ضيقة لا تمس جوهر علاقات الهيمنة/ التبعية.

ثانياً : فعاليات برنامجية مشتركة

إن تفعيل الأشكال التنظيمية لليسار الديمقراطي على المستوى القومي تشترطها وحدة النشاط المشترك ومضامينه الفكرية/ السياسية المناهضة للعولمة الرأسمالية والتي تحددها الموضوعات الفكرية ـ السياسية التالية:

١. إعتبار الكفاح من أجل الديمقراطية السياسية بما تتضمنه من إلغاء احتكار السلطة وإشاعة التعددية الحزبية وسيادة الشرعية الانتخابية المسيجة بالقوانين والتشريعات الدستورية المهمة الرئيسية في الكفاح الوطني ـ الديمقراطي.

إن بناء الشرعية الوطنية على أسس الديمقراطية والتداول السلمي للسلطة تشكل عاملاً أساسياً للوحدة الوطنية التي تتعرض في الظروف التاريخية الملموسة إلى التفكك بسبب انبعاث الطائفية والمذهبية والعشائرية وسواها من الأشكال التضامنية البدائية المتبلورة في أشكال وحركات سياسية.

٢. تطوير الرؤية المشتركة لإعادة بناء الدولة القطرية على أساس الديمقراطية والموازنة/ القومية وما ينتج عن ذلك من ضمان حق القوميات في تقرير مستقبلها وشكل وحدتها مع الدولة الوطنية.

٣. التركيز على دور الدولة في إحداث وتطوير التحولات الاجتماعية المعادية للتبعية والتهميش. ولغرض تصليب النسيج الاجتماعي للتشكيلة الوطنية يجري الدفاع عن موضوعة التوازن الطبقي، والذي يعني في نهاية المطاف المسؤولية المشتركة للمكونات الطبقية في تعزيز وتطوير وحدتها الوطنية وتطورها الديمقراطي.

إن فكرة التوازن الطبقي التي يمكن اعتبارها شكلاً من أشكال التعاقد الاجتماعي تنبع بالدرجة الأولى من التخلي عن موضوعة الطبقة/ الدولة التي سار عليها اليسار العربي والانتقال إلى فكرة الأمة/ الدولة. بكلام اخر، ينبغي اعتبار الدولة الضامن السياسي/ الديمقراطي للصراعات الطبقية السلمية المرتكزة على توازن المصالح الطبقية/ الاجتماعية.

إن استبدال موضوعة إلغاء الطبقات بسياسة توازن المصالح الطبقية، سيتيح تشكيل أداة سياسية فعالة في الكفاح الاجتماعي لحركة اليسار الديمقراطي في البلدان العربية.

٤. النضال من أجل الاتحاد الفيدرالي بين البلدان العربية يشكل في نهاية المطاف العتبة الأساسية نحو إقامة التكتل الاقتصادي/ السياسي العربي. وفي هذا الصدد، لابد من الإشارة إلى أن الكفاح من أجل الاتحاد الفيدرالي يتطلب البدء بتطوير العلاقات الاقتصادية بين أطراف عربية يشكل سوقها الاقتصادي المشترك أساسا لإنشاء السوق العربية المشتركة.

إن الدعوة إلى الاتحاد الفدرالي المرتكز على الديمقراطية السياسية تستمد مشروعيتها من التجربة التاريخية المعاصرة التي أثبتت أن الدولة القطرية بنهجها المعادي للديمقراطية والتوازنات الطبقية/ القومية لم تعد قادرة على مواصلة احتكار السلطة بأساليب قمعية/ انعزالية. ويعني ذلك ضرورة البحث عن أشكال ديمقراطية للمصالحة الوطنية وسياسات اقتصادية قومية/ عربية تدفع باتجاه تطويرها إلى ترابطات إقليمية.

إن دعوة اليسار العربي إلى الاتحاد الفيدرالي يدفع البرجوازية الوطنية التي تعاني الحصار والتبعية إلى تقوية مواقعها السياسية، الأمر الذي يدفعها للعمل على توسيع نشاطها الاقتصادي/ السياسي على قاعدة قومية.

٥. تتمتع إعادة الوحدة الكفاحية بين حركة اليسار العربي والتيارات القومية وتطويرها إلى تحالف سياسي/ ديمقراطي بأهمية مستقبلية تعززها الرؤية السياسية المشتركة الهادفة إلى بناء فيدرالية عربية قائمة على أسس الديمقراطية السياسية والتعددية الحزبية وتوازنات الكتل الاجتماعية/ القومية.

إن أهمية بناء التحالف الديمقراطي اليساري/ القومي يبرره انهيار المشروع الإيديولوجي المطالب بالوحدة الاندماجية المرتكزة على احتكار السلطة والقمع السياسي، من جهة، والسياسات الفاشلة للدولة القطرية التي أضاعت الاستقلال الوطني والثروة العربية، من جهة أخرى.

٦. التأكيد على عودة الأموال العربية المهاجرة وفتح الأبواب والضمانات التشريعية والسياسية لاستثمارها في البلدان العربية حيث أثبتت التجربة التاريخية المنصرمة أن الأموال العربية المستثمرة في البنوك الأجنبية معرضة لخسائر كبيرة ناجمة عن دورية الأزمات الاقتصادية والمضاربات المالية التي تتعرض لها المراكز والمؤسسات المالية الدولية، ناهيك عن تجميدها وضياعها لأسباب سياسية.

إن الدعوة إلى تنشيط المطالبة بعودة الأموال العربية المهاجرة ينطلق من تحقيق هدفين هما:

العمل على إضعاف علاقات الهيمنة/ التبعية بين الرأسمال الدولي والرأسمال العربي وما يعنيه ذلك من تعزيز النزعة الاستقلالية لدى البرجوازية العربية؛ وتطوير الروابط الاقتصادية بين القوى الطبقية المختلفة في الأقطار العربية.

٧. التركيز على تحجيم سياسة التسلح والعسكرة والعمل على تحويلها إلى سياسة تنموية تخدم تطور الاقتصادات الوطنية و توسيع الروابط الاقتصادية بين الأقطار العربية، الأمر الذي يؤدي إلى تعزيز الأواصر الاقتصادية/ السياسية بين القوى الطبقية العربية الناشطة في الدوائر الاقتصادية، الإنتاجية منها والخدمية.

٨. تشديد المطالبة بإزالة القواعد العسكرية الأمريكية وتحريم التحالفات العسكرية لما تمثله من مخاطر على أمن المنطقة وسلامها، والتركيز على جعل الشرق الأوسط منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل.

٩. يكتسب الدعم اللامحدود لقضية الشعب الفلسطيني وحقه في إقامة دولته الوطنية المستقلة ومواصلة فضح وحشية التحالف الإسرائيلي ـ الأمريكي أهمية نضالية لقوى اليسار الديمقراطي العربي.

•

خلاصة القول، إن البرنامج الوطني الديمقراطي/ القومي التحرري لأحزاب اليسار الديمقراطي يتحدد بثلاثة مستويات مترابطة:

ـ المستوى الوطني الذي يسعى إلى بناء شرعية وطنية تؤطر الية عملها القوانين الدستورية والمنافسة الديمقراطية. وهنا لابد من الإشارة إلى أن المطالبة بالديمقراطية والشرعية الوطنية لا يعني الأخذ بـ(القفزة الثورية)، بل يعني تصعيد الكفاح الشعبي لانتزاع المكاسب السياسية/ الاجتماعية بصورة تدريجية.

ـ المستوى القومي/ الإقليمي الذي تشترطه ضرورة توسيع دائرة العمل السياسي المشترك بين القوى والفصائل اليسارية/ القومية وصولاً إلى بناء تحالف شعبي ـ ديمقراطي تحتل القوى اليسارية فيه المواقع المحركة والدافعة للكفاح الديمقراطي/ القومي.

ـ المستوى الأممي المتمثل بتوثيق صلات اليسار الديمقراطي العربي مع الحركة اليسارية/ الديمقراطية العالمية المناهضة للحركة التدميرية لرأس المال المعولم وتجلياته العسكرية/ الإرهابية. ?

الإمبراطورية الأميركية، إلى أين؟

إريك هوبسبوم[*] Eric HOBSBAWM

يمرّ العالم اليوم في حال لم يشهد لها مثيلا من قبل حيث لا كثير من القواسم المشتركة بين الإمبراطوريات العالمية البائدة، مثل الإمبراطورية الإسبانية في القرنين السادس عشر والسابع عشر وبنوع خاص الإمبراطورية البريطانية في القرنين التاسع عشر والعشرين، وبين الإمبراطورية الأميركية الحالية.

فالعولمة قد بلغت طورا مستجدا على ثلاثة مستويات هي الترابط والتكنولوجيا والسياسة.

فبادئ ذي بدء بتنا اليوم نعيش في عالم مترابط إلى درجة أن العمليات الجارية يتعلق بعضها ببعض وأن أي انقطاع قد يولد انعكاسات عالمية فورية. ولنأخذ مثلاً على ذلك وباء تزامن العوارض الحادة اللانمطية في الجهاز التنفسي (سارس) الذي يبدو أن مصدره المجهول عمليا هو على الأرجح من مكان ما في الصين، هذا الوباء اتخذ أبعاد الظاهرة العالمية. فتأثيره الذي أوقع خللاً في الشبكات العالمية للنقل كما في السياحة وكل أنواع المؤتمرات والمؤسسات الدولية وفي الأسواق العالمية وحتى في مجمل اقتصاد بعض الدول انعكس بسرعة ما كانت لتخطر في البال في أي من العصور السابقة.

ثم إن هناك هذه السلطة الفائقة لتكنولوجيا في حالة ثورة مستمرة تفرض نفسها في المجال الاقتصادي كما في المجال العسكري بنوع خاص. وقد باتت السلطة السياسية على الصعيد العالمي تمسك بهذه التكنولوجيا على مستوى دولة واسعة الأرجاء جغرافيا. وهذا ما لم يكن في الحسبان من قبل. فبريطانيا العظمى التي سادت على الإمبراطورية الأكبر مساحة في زمنها لم تكن سوى دولة متوسطة الحجم حتى وفق معايير القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وفي القرن السابع عشر، كان في إمكان دولة مثل هولندا، ذات حجم شبيه بوضع سويسرا، أن تكون فاعلة على المستوى العالمي. لكن في العصر الحالي لا يمكن تصور دولة مهما كانت غنية ومتطورة تكنولوجياً تستطيع أن تصبح قوة عالمية إن لم تكن جبارة نسبياً.

وأخيراً، فإن السياسة في أيامنا هذه باتت تتسم بطابع على درجة من التعقيد. فعصرنا هذا لا يزال

عصر الدول القومية، وهو العنصر الوحيد الذي يعوق سير نظام العولمة. لكن المقصود دولة ذات نمط خاص حيث الشعب العادي يلعب دورا مهما، وهذا، افتراضا، وضع جميع الدول. ففي الماضي كان أصحاب القرار يحكمون من دون الالتفات كثيرا إلى رأي غالبية السكان. ففي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كان في إمكان الحكومات أن تراهن على تجييش شعوبها، وأيا يكن فإنها حاليا مضطرة إلى أن تأخذ في الاعتبار أكثر من ذي قبل برأي الشعب أو بما هو مستعد للقيام به.

وبخلاف المشروع الإمبراطوري الأميركي، وهو المستجد في طبيعته، فإن كل القوى العظمى وكل الإمبراطوريات كانت تدرك أنها ليست معزولة وأن ما من أحد يسعى إلى السيطرة بمفرده على العالم. وما من أحد كان يرى نفسه في منأى عن الخطر، حتى حين كان الكل يعتبر نفسه مركز العالم، مثل الصين أو الإمبراطورية الرومانية في عز قوتها. ففي نظام العلاقات الدولية الذي ساد العالم حتى نهاية الحرب الباردة كانت الهيمنة الإقليمية هي التي تشكل الخطر الأقصى. ويجب عدم الخلط بين إمكان الوصول إلى مجمل الكرة الأرضية، التي تجسدت في العام ١٤٩٢، وبين السيطرة الشاملة عليها.

فالإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر كانت عمليا الدولة «الشمولية» الوحيدة، بمعنى أنها كانت تمارس نفوذها على مجمل الكرة الأرضية، ومن وجهة النظر هذه هي تعتبر على الأرجح سابقة للإمبراطورية الأميركية. وبالعكس، فإن الروس في العهد الشيوعي، الذي حلموا أيضاً بعالم جديد كانوا يدركون تماما، وحتى عندما كان الاتحاد السوفييتي في أوج عظمته، أن السيطرة على العالم ليست في متناولهم، وبعكس الدعايات التي راجت إبان الحرب الباردة هم في الحقيقة لم يفكروا أبداً في تحقيق ذلك.

غير أن الطموحات الأميركية الحالية تختلف كلياً عن الطموحات التي كانت لبريطانيا العظمى من حوالي قرن أو يزيد. فالولايات المتحدة تمثل دولة شاسعة الأطراف يعيش فيها الشعب الأكثر أهمية على الأرض حيث النمو السكاني في تزايد مطرد (بعكس الاتحاد الأوروبي) وذلك بفعل هجرة لا محدودة تقريباً إليها.

أضف إلى ذلك أن هناك اختلافاً في الأسلوب. ففي عز ازدهارها كانت الإمبراطورية البريطانية تحتل ربع مساحة الكرة الأرضية وتديرها[١]، في حين أن الولايات المتحدة لم تمارس عملياً الاستعمار باستثناء حقبة قصيرة وذلك في فترة قيام نمط الإمبريالية الاستعمارية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، إذ إنها اعتمدت بالأحرى على دول مرتبطة بها أو تدور في فلكها وخصوصاً في النصف الغربي من الكرة الأرضية حيث لم يكن عليها أن تخشى عملياً أي منافس لها. وبعكس بريطانيا العظمى فإنها طورت في القرن العشرين سياستها القائمة على التدخل العسكري في هذه الدول.

وبما أن الذراع العسكرية للإمبراطورية العالمية كانت في تلك الأزمنة قائمة على البحرية فإن الإمبراطورية البريطانية عمدت إلى السيطرة على قواعد بحرية وعلى مراكز ارتباط ذات أهمية استراتيجية في العالم أجمع. ولذلك فإن أسطولها «اليونيون جاك» كان يطوف البحار، ولا يزال،

من مضيق جبل طارق إلى جزر الفوكلاند مرورا بسانت إيلان. بينما الأميركيون لم يحتاجوا هذا النوع من القواعد خارج المحيط الهندي إلا بعد العام ١٩٤١، وقد أمنوا ذلك لأنفسهم بالتوافق مع ما سمي فعلاً في ذلك الوقت بـ«تحالف الإرادات الطيبة». لكن الوضع الآن بات مختلفا بالنسبة إلى الولايات المتحدة، فهي تشعر بحاجتها إلى أن تؤمّن لنفسها مباشرة عددا كبيرا من القواعد العسكرية، مواصلةً في الوقت نفسه السيطرة على الدول بطريقة غير مباشرة.

وأخيراً هناك بعض الفروقات المهمة في بنية الدولة على الصعيد الداخلي وعلى صعيد الإيديولوجيا. فهدف الإمبراطورية البريطانية كان محض بريطانيا وليس شموليا بالرغم من أن دعاتها قد ابتدعوا لها طبعا دوافع أكثر اهتماما بالغير. وهكذا نجد أن القضاء على نظام الرق استخدم كمبرر للقوة البحرية البريطانية تماما كما يستخدم مبدأ حقوق الإنسان في الغالب لتبرير القوة العسكرية الأميركية. وعلى غرار فرنسا وروسيا الثورة فإن الولايات المتحدة تمثل قوة عظمى قائمة على فكرة الثورة الشمولية تحركها، بحكم هذا الواقع، فكرتها القائلة بأن على سائر العالم أن يحتذي بها، وحتى أن عليها تحرير هذا العالم. وليس أخطر من إمبراطوريات تدافع عن مصالحها الخاصة معتقدة أنها بذلك تقدم خدمة للإنسانية جمعاء.

وفي أي حال، فإن الفرق الجوهري يكمن في أن الإمبراطورية البريطانية ــ وإن كانت اتخذت طابعا شمولياً، اكثر حتى، في شكل ما، من الإمبراطورية الأميركية المعاصرة، كونها قد تمتعت وحدها بالسيطرة على البحار أكثر مما سيطرت أي دولة أخرى في الأجواء ــ لم تسعَ إلى الاستئثار بسلطة شاملة ولا حتى بسلطة عسكرية وسياسية على الأرض في مناطق مثل أوروبا أو أميركا. فلقد كانت الإمبراطورية تسعى لتأمين مصالح بريطانيا العظمى الأساسية، أي مصالحها الاقتصادية، عاملة قدر الإمكان على عدم التدخل في شؤون الآخرين. وهي كانت على الدوام تدرك حدودها في مجال الحجم الجغرافي ومصادر الثروة. وبعد العام ١٩١٨ أدركت الإمبراطورية إلى حد بعيد أن نجمها إلى أفول.

ومن جهة أخرى، فإن الإمبراطورية العالمية التي أقامتها الأمة الصناعية الأولى في العالم قد عرفت كيف تعدّ العدة لنظام عولمة كان لنهضة الاقتصاد الإنكليزي الفضل الكبير في تنميته. فهي مثلت نظام تجارة دولياً ارتبط بشكل أساسي، وبقدر ما كانت الصناعة تتطور في المركز، بتصدير الإنتاج الصناعي إلى الدول المتخلفة، مما سمح للندن مقابل ذلك، بأن تصبح السوق الأهم للمواد الأولية في العالم[٢]. وبعد أن انكفأ دورها كمصنع للعالم أصبحت بريطانيا العظمى مركزاً للنظام المالي العالمي.

إلا أن هذا لا ينطبق على الاقتصاد الأميركي الذي يرتكز على حماية صناعات البلاد في وجه أي منافسة أجنبية في أسواقها الداخلية المتمتعة بطاقة ضخمة، هذا العامل الذي يبقى في أيامنا هذه عنصراً مهماً في السياسة الأميركية. لكن تراجع هذا الاقتصاد عن احتلال ما كان له من موقع مهيمن في العالم الصناعي المعاصر بات يشكل بالتحديد إحدى نقاط الضعف في الإمبراطورية الأميركية في القرن الحادي والعشرين[٣]. فالولايات المتحدة تستورد من سائر دول العالم كميات

كبيرة من البضائع المصنعة مما يولد لدى أصحاب المصالح التجارية كما في أوساط الناخبين الأميركيين ردة فعل مطالبة بنظام الحماية. فقد قام نوع من التناقض بين ايديولوجيا العالم الخاضع لنظام التبادل الحر تحت الرعاية الأميركية من جهة، وبين المصالح السياسية لأطراف فاعلة في الولايات المتحدة تعرض هذه الإيديولوجيا مصالحها للخطر، من جهة أخرى.

وإحدى وسائل حل هذه المشكلة تكمن في تنمية تجارة الأسلحة، وهي من الفوارق الأخرى بين الإمبراطوريتين البريطانية والأميركية. فمنذ الحرب العالمية الثانية بنوع خاص بلغت عملية مراكمة الأسلحة في زمن السلم في الولايات المتحدة مستوى غريبا لا سابق له في التاريخ الحديث وهذا ما يفسر السيطرة التي يمارسها «المركّب الصناعي العسكري» الذي ندد به الرئيس دوايت أيزنهاور في عصره. فخلال أربعين عاما من الحرب الباردة كان المعسكران يتكلمان ويتصرفان وكأن الحرب قائمة فعلا أو أنها على وشك الاندلاع. في حين أن الإمبراطورية البريطانية كانت قد بلغت أوج ازدهارها خلال قرن من الزمن (١٨١٥ ــ ١٩١٤) لم يشهد أي حرب عالمية مهمة. وبالرغم من التفاوت الجلي بين القوتين الأميركية والسوفييتية فان حركة النمو هذه التي وسمت صناعة التسلح الأميركية قد تزايدت بشكل مسوس حتى قبل نهاية الحرب الباردة واستمرت بعدها.

وحركة التسلح هذه قد حولت الولايات المتحدة قوة مهيمنة في العالم الغربي. ففي مطلق الأحوال كان هذا التفوق يمارس على رأس تحالف حيث لا أحد بالتأكيد كان يتوهم في شأن الأهمية النسبية للشركاء. فقد قامت السلطة في واشنطن وليس في أي مكان آخر. ونوعا ما كانت أوروبا تعترف وقتها بمنطق الإمبراطورية الأميركية العالمية، وهذا ما يجعل واشنطن حاليا تسخط لأن إمبراطوريتها وأهدافها لم تعد مقبولة فعلاً، إذ لم يعد هناك وجود لـــ«تحالف الإرادات الطيبة» ذاك أن السياسة الأميركية الحالية هي الأقل شعبية بين كل السياسات التي مارستها أي حكومة أميركية وربما أي قوة عظمى أخرى.

وفي ما مضى كان الأميركيون يديرون هذه العلاقات وفق اللياقة التقليدية في العلاقات الدولية، مراعين الواقع الذي يضع الأوروبيين على خط المواجهة في المعركة مع الجيش السوفييتي، وهذا لا يعني أن التحالف لم يكن مشدوداً إلى الولايات المتحدة إذ هو كان مرتهنا لتكنولوجيتها العسكرية. وعلى الدوام ظلت واشنطن بشكل منتظم معارضة لإنشاء قوة مسلحة مستقلة في أوروبا. والخلاف القديم بين الأميركيين والفرنسيين والذي يعود إلى عهد الجنرال ديغول، يعود في جذوره إلى رفض باريس الاكتفاء بتحالف جامد وإلى رغبتها في الحفاظ على قدرات مستقلة بغية امتلاك تجهيزات عسكرية ذات تكنولوجيا عالية. وبالرغم من حالات التوتر إلا أن التحالف ظل في أي حال يشكل فعلاً «تحالف الإرادات الطيبة».

بعد انهيار الاتحاد السوفييتي أصبحت الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة التي ليس لأي أمة كبرى أخرى أن تطمح إليها أو أن تتحداها. فاستعراض القوة هذا المفاجئ والغريب الوحشي والعدائي يصعب فهمه، كونه لا يتقاطع لا مع السياسة الإمبراطورية المعهودة منذ زمن طويل

والتي نفذت خلال الحرب الباردة ولا مع المصالح الاقتصادية الأميركية. فالسياسة التي سادت في واشنطن منذ زمن قريب تبدو خرقاء في نظر المراقبين الخارجيين إلى درجة يصعب فيها إدراك أهدافها الحقيقية. فالواضح أن الأمر بالنسبة إلى الذين يسيطرون كليا أو أقله بنسبة النصف على مجرى القرارات في الولايات المتحدة يتعلق بتأكيد التفوق العالمي بواسطة القوة العسكرية غير أن الهدف من هذه الاستراتيجيا يبقى غامضا.

فهل أن أمام هذه السياسة فرصة للنجاح؟ يبدو أن العالم هو على درجة من التعقيد بما لا يسمح بسيطرة دولة واحدة. ولا ننسينّ أن الولايات المتحدة، وباستثناء التفوق العسكري، مرتهنة لموارد تنقص أو في طريقها إلى النقصان. ومع أن اقتصادها عظيم إلا أن الحيز الذي يحتله في الاقتصاد العالمي يتضاءل. ولذلك هي معرضة على المدى القصير كما على المدى الطويل، فلنتخيل مثلا أن منظمة الدول المصدرة للنفط قررت غدا أن تسعّر برميل النفط باليورو بدلا من الدولار...

ولا بد من الاستنتاج أن الأميركيين خلال السنة ونصف السنة الماضية قد ضحّوا بمعظم أوراق قوتهم السياسية، حتى وإن ظلوا يمسكون بالبعض منها. فبالتأكيد تستمر السيطرة الغالبة لثقافتهم وللغتهم الإنكليزية، غير أن الميزة الرئيسة التي يملكونها في مشروعهم الإمبراطوري تكمن في الناحية العسكرية. وعلى هذا الصعيد لا نظير للإمبراطورية الأميركية ومن المحتمل أن تبقى هكذا في المدى المنظور. لكن هذه الميزة الحاسمة في الحروب المحصورة ليس بالضرورة أن تبقى كذلك في المطلق. لكن عمليا ما من دولة، ولا حتى الصين، تمتلك ما لدى الولايات المتحدة من هذا المستوى التكنولوجي، إلا أنه يتنب دائما التفكير في حدود التفوق العسكري وحده وحسب.

ونظريا ليس في نية الأميركيين طبعا احتلال العالم أجمع، فهدف الولايات المتحدة أن تخوض الحرب لتنصّب حكومات صديقة لها وتعود إلى ديارها. لكن الأمر لا ينجح بهذا الشكل. ففي القاموس العسكري شكلت حرب العراق نجاحا باهرا. إلا أن إدارة بوش، المنشغلة بهذا الهدف وحسب، قد تغاضت عن الضرورات التي تفرض نفسها لدى احتلال دولة ما وإدارتها وتعهدها، كما فعل البريطانيون في حالة الهند، نموذج الاستعمار الكلاسيكي. فـ«نموذج الديموقراطية» الذي يريد الأميركيون تقديمه للعالم أجمع عبر العراق ليس فيه في الواقع أي من مواصفات النموذج. وإنه لمن باب الهلوسة الاعتقاد أن بإمكانهم تجاوز بعض الحلفاء الفعليين بين سائر الدول أو الاستغناء عن الدعم الحقيقي في الدول التي صار بإمكانهم احتلالها عسكريا (من دون أن يتمكنوا من إدارتها).

لقد قدمت الحرب على العراق مثالا على نزق أصحاب القرار في واشنطن. فالعراق كان بمثابة دولة ساقطة عسكريا لكنها رفضت أن تستسلم، ولقد كان هذا البلد من الضعف بحيث أنه كان من السهل إلحاق الهزيمة به. وقد شاءت الأقدار أن النفط كان من بين أوراق القوة التي امتلكها غير أن الهدف الأساسي من العملية قام على استعراض القوة عالميا، مما يعني أن السياسة التي تحدث عنها المتطرفون في واشنطن، ومنها إعادة صياغة شاملة لمجمل الشرق الأوسط، لم

تكن ذات معنى. فإن كانوا ينوون قلب النظام الملكي في السعودية فماذا سينصبون مكانه؟ ونحن ندرك أنهم إذا كانوا يخططون جديا لتغيير المعطيات في المنطقة فليس أمامهم إلا أمر واحد يقومون به وهو ممارسة الضغط على إسرائيل. وهذا ما فعله والد الرئيس جورج دبليو بوش في العام ١٩٩١ بعد حرب الخليج الأولى وليس خليفته في البيت الأبيض. وبدلا من ذلك فان الإدارة الحالية قضت على نظام علماني من اثنين في الشرق الأوسط وهو ما تحلم بإلحاقه بالنظام الآخر.

والتبرير العلني لهذه المسيرة ينم عما فيها من خواء، فعبارات من نوع «محور الشر» أو «خريطة الطريق»، البعيدة كل البعد عن صياغة استراتيجيا، ليست سوى جمل جاهزة يفترض بها أن يكون لها تأثير في حد ذاتها. غير أن «اللغة المستحدثة» التي تتدفق على العالم منذ سنة ونصف سنة تكشف عن غياب السياسة الفعلية. فالسيد جورج دبليو بوش نفسه لا يمارس السياسة بل يلعب. ويقوم بعض السياسيين مثل السيدين ريتشارد بيرل وبول وولفوويتز بتقليد رامبو عندما يتحدثان سواء على الملأ أم في المجالس الخاصة. وكل ما يهم هو أمر واحد: إظهار القوة الأميركية المطلقة وحسب. وتوضيحا لذلك يجب أن نفهم أن في إمكان الولايات المتحدة أن تجتاح أي دولة شرط ألا تكون كبيرة جدا وأن يتحقق النصر سريعا. ولا يمكن اعتبار هذا استراتيجيا ولا أن نتوقع نجاح هذه السياسة.

وهناك خطر في أن تكون الانعكاسات خطيرة على أميركا. فعلى الصعيد الداخلي يمكن القول أن الدولة التي تسعى إلى السيطرة على العالم وخصوصا بالوسائل العسكرية، تقوم بمجازفة السقوط في العسكرة وهذا ما لا يحسن تقديره جديا حتى الآن.

والدليل على ذلك هو عدم الاستقرار المسيطر حاليا على الشرق الأوسط بما هو أسوأ مما كان عليه منذ عشر سنوات. أو حتى خمس. فالسياسة الأميركية تضعف جميع الجهود الرامية إلى إيجاد الحلول الممكنة، الرسمية منها وشبه الرسمية، من أجل الحفاظ على النظام. وهي قضت في أوروبا على منظمة حلف شمال الأطلسي، وإن كان هذا لا يشكل خسارة كبيرة، لكن المهزلة هي في محاولة تحويل الشرطة العسكرية العالمية إلى خدمة الولايات المتحدة. ولقد تعمدت واشنطن ضرب الاتحاد الأوروبي كما تسعى بشكل منتظم إلى إلغاء أحد أهم إنجازات ما بعد الحرب العالمية الثانية أي «الدولة الراعية»، الديموقراطية والمزدهرة. وفي المقابل يبدو لي أن أزمة مصداقية الأمم المتحدة أقل خطورة، إذ إن هذه المنظمة لم تكن في يوم من الأيام قادرة على القيام بأي عمل غير هامشي كونها ترتهن كليا لمجلس الأمن ولاستخدام الأميركيين حق النقض (الفيتو).

فكيف سيتمكن العالم من مواجهة الولايات المتحدة، أي بمعنى آخر استيعابها؟ طبعا يرى البعض أنهم لا يملكون الوسائل للقيام بذلك ويفضلون بالتالي التحالف معها. والأكثر خطورة هم أولئك الذين يستهجنون الإيديولوجيا التي يعمل بها البنتاغون لكنهم يدعمون المشروع الأميركي بذريعة أنه سيؤدي في النهاية إلى القضاء على بعض المظالم المحلية والإقليمية. وهذا النوع من «إمبريالية حقوق الإنسان» قد استمد قوته من فشل أوروبا في دول البلقان خلال تسعينات القرن المنصرم. ففي النقاش العام حول حرب العراق، قلة من المفكرين النافذين، مثل مايكل إيغناتييف

أو برنار كوشنير، دعت إلى دعم التدخل الأميركي معتبرة أن من الضروري اللجوء إلى القوة من أجل تسوية مآسي العالم. وطبعا إن بعض الحكومات هي من الخطورة بما يجعل في القضاء عليها منفعة للعالم أجمع. لكن هذا لا يمكن أن يبرر الخطر الذي تمثله على مجمل العالم، قوة عالمية لا تهتم لعالم لا تفهمه ويسهل عليها في آن واحد التدخل عسكريا ضد أي طرف لا يعجبها.

وفي عمق الصورة نرى الضغط المتزايد على وسائل الإعلام، ففي عالم بات الرأي العام على هذا القدر من الأهمية تصبح هذه الوسائل عرضة لتلاعبات كبيرة[٥]. ففي حرب الخليج (١٩٩٠ ــ ١٩٩١) وتفاديا لتكرار الوضع في فيتنام حاولت «قوى التحالف» أن تمنع وسائل الإعلام من الاقتراب من ساحة المعركة، ولكن دون جدوى إذ انتشرت في بغداد وسائل إعلام مثل «سي.أن.أن» لتغطية الأحداث بشكل مختلف عما كانت تتمناه واشنطن. وبالعكس فخلال حرب العراق ألحق بعض الصحافيين بالقوات على الأرض بغية التأثير على رؤيتهم للأمور بشكل أفضل. لكن شيئا من ذلك لم ينجح فعلا. وبالتأكيد ستكون هناك مستقبلا محاولات لإيجاد وسائل سيطرة أكثر فعالية، وربما مباشرة، وفقا لآخر التطورات التكنولوجية. وهذا لا ينفي أن التواطؤ بين الحكومات وأصحاب احتكارات الاتصالات يسعى إلى مزيد من الفعالية على غرار محطة «فوكس نيوز» في الولايات المتحدة[٥] أو إمبراطورية السيد سيلفيو برلوسكوني في إيطاليا.

ومن المستحيل التنبؤ كم من الوقت سيدوم التفوق الأميركي، لكن الأمر الوحيد الذي نحن متأكدون منه كليا هو أن في الأمر ظاهرة مؤقتة في التاريخ كما كانت جميع الإمبراطوريات. ففي مدى حياتنا فقط شهدنا سقوط جميع الإمبراطوريات الاستعمارية و«إمبراطورية الألف عام» المزعومة لدى هتلر والتي لم تدم إلا اثني عشر عاما وسقوط الحلم السوفييتي بالثورة الأممية.

والإمبراطورية الأميركية قد تسقط لأسباب داخلية، والأكثر إلحاحا منها هو كون الإمبريالية، بمعنى السيطرة على العالم وإدارته، لا تثير اهتمام معظم الأميركيين الملتفتين بالأحرى إلى ما يحدث داخل الولايات المتحدة. فالاقتصاد هو على درجة من الوهن ما سيحمل الحكومة والناخبين الأميركيين يوما على اتخاذ قرار بأن من الأهم الانكباب على هذا الأمر بدلا من خوض المغامرات في الخارج[٦]. أضف إلى ذلك أنه، وكما يحدث حاليا، سوف يكون على الأميركيين أنفسهم أن يمولوا جزءا كبيرا من هذه التدخلات الخارجية، وهذا ما لم يحدث لا في حرب الخليج ولا إلى حد كبير إبان الحرب الباردة.

ومنذ العامين ١٩٩٧ ــ ١٩٩٨ يمر الاقتصاد الرأسمالي العالمي في أزمة. وهو بالتأكيد لن ينهار لكن ليس من المعقول أن تستمر الولايات المتحدة في خوض سياسة خارجية طموحة إذا ما طرحت بعض المسائل الخطيرة على الصعيد الداخلي. فسياسة السيد جورج دبليو بوش الاقتصادية الوطنية لا تستجيب حكما المصالح الداخلية أكثر، ولا سياسته الدولية تتميز حكما بالعقلانية حتى من ناحية المصالح الإمبراطورية الأميركية ولا مصالح الرأسمالية الأميركية بالتأكيد. ومن هنا تباين وجهات النظر داخل حكومته.

والسؤال الأساسي الذي يطرح نفسه الآن هو معرفة ما سيفعله الأميركيون الآن وكيف ستكون

ردة فعل سائر الدول. فهل أن البعض، مثل بريطانيا، العضو الوحيد عمليا في التحالف السائد، ستمضي قدما وتدعم أي مشروع تنهض به واشنطن؟ فيجب أن يصدر عن الدول ما يبين أن هناك حدودا للنفوذ الأميركي. فحتى الآن، تركيا وحدها هي التي ساهمت في هذا الاتجاه بالشكل الأكثر إيجابية وذلك عندما أكدت بكل بساطة أنها غير مستعدة لاتخاذ بعض القرارات رغم علمها أن هذه القرارات كانت لتعود عليها بالفائدة.

والهدف الرئيس في الوقت الحالي، إن لم يكن استيعاب الولايات المتحدة، إنما هو تهذيبها أو إعادة تهذيبها. ففي زمن مضى كانت الولايات المتحدة تعرف حدودها، أو على الأقل كانت تدرك ما تحققه من المصالح لو تصرفت وكأنها تعرف حدودها، وكان هذا عائدا في جزء كبير منه إلى الخوف من الآخر، مثل الاتحاد السوفييتي. أما الآن وقد زالت تلك المخاوف فان إدراكها فعلا مصلحتها وتهذيبها هما البديل الممكن. □

(حديث أجرته فكتوريا بريتن)

(*) مؤرخ من مؤلفاته بنوع خاص:

L'Age des extrêmes. Le court XXe siècle, 1914-1991. Complexe-Le Monde diplomatique, Bruxelles-Paris, 1999

(١) راجع: Eric Hobsbawm. L'Ere des Empires, Hachette Littérature, Paris, 1999

(٢) المرجع السابق Eric Hobsbawm, op. cit

(٣) راجع:

Blowback The costs and consequenses of American Empire, Chalmers Johnson Owl Book, 2001

(٤) اقرأ:

"France protests US media 'plot'" in Le Monde, The International Herald Tribune, 16 mai 2003

(٥) راجع:

Eric Alterman, "Il paraît que les Américains sont de gauche" Le Monde diplomatique, mars 2003

(٦) راجع: "US unemployment hits an 8 year high" in The International Herald Tribune, 3 mai 2003

المعبد والزقورة

في عمارة وادي الرافدين

صبيح الحمداني

بعد أن استقرت القبائل الرعوية في تجمعات سكانية وانتقلت، في سبيل الحصول على قوتها، من صيد الحيوانات إلى تدجينها ومن التقاط وجمع الأثمار والحبوب إلى زرعها، بدأت أولى التجمعات السكانية بالنشوءُ، وأخذت تمارس أعمال الزراعة البدائية. صاحب هذا التحول النوعي في أسلوب المعيشة، تطور في المعتقدات الدينية. فقد ارتبطت الزراعة بالظروف الطبيعية المتقلبة، ولكنهم ربطوا هذه التقلبات بإرادة الآلهة ورغباتها. ومن أجل اتقاء غضبها، والحصول على ظروف مناخية ملائمة، أقاموا المعابد البدائية كحلقة وصل مع الآلهة لاسترضائها وكسب عطفها لإبعاد الكوارث الطبيعية، وتوفير المحاصيل الزراعية، وتكثير الماشية وحماية الإنسان من الأوبئة.

بدأت في أوائل الألف الرابع ق.م. أول دويلات المدن في النشوء جنوب وادي الرافدين، وهي المنطقة التي أصبحت تسمى (سومر)، واصبح المعبد يمثل المركز الديني والسياسي والإداري لدويلات المدن.

اختلفت أشكال وأنواع المنشئات المعمارية، وفق متطلبات وظائفها وأهدافها. وفيما يخص العمارة الدينية، يمكن تأشير نمطين أساسيين من المجمع المقدس للمعبد والمذبح. شيد الأول مباشرة فوق أنقاض المعبد القديم، وشيد النمط الآخر المتطور، فوق مصطبة مرتفعة هيأت لهذا الغرض. من أهم العوامل التي ساهمت في تطوير هذه المنشئات، هي المواد الإنشائية المستخدمة، فبسبب الطبيعة الجغرافية لجنوب ووسط وادي الرافدين وعدم وجود الجبال، أو الغابات لاستخدام الحجر الطبيعي، أو الأخشاب الجيدة، فقد استخدم المعمار الرافدي التراب، الذي يتوفر بشكل واسع، وصنع منه الطين لتكوين الآجر بنوعيه النيئ (اللبني) والمفخور، كما استخدمت عيدان القصب التي تنتشر بكثرة في مناطق الأهوار، وكذلك جذوع النخيل، لهذا فان مادتي الطين وعيدان القصب أصبحتا تمثلان المواد الإنشائية الأساسية المستخدمة، والتي طبعت العمارة الراقدينية بطابعها الخاص لعدة آلاف من السنين. إلى جانب هذه المواد الإنشائية، استخدم الحجر

الطبيعي وبعض أنواع الأخشاب الجيدة في شمال وادي الرافدين، كما استنبط المعمار الرافداني مواد إنشائية جديدة تتسم بالمتانة مثل الحجر الجيري، الذي شيدت به جدران معبد «أوروك»، وقد صنع هذا الحجر من خلط الجير مع مسحوق الآجر.

لا يعتبر برج بابل الصرح الشامخ الأول أو الوحيد من نوعه في العالم القديم، بل جاء حصيلة تطورات طويلة ومعقدة في فن العمارة الرافدينية، بدأت بشكلها البسيط المسطح والمستقر فوق مرتفع من الأرض، أو فوق مصطبة تتكون من طبقة واحدة، لترتفع بعدئذ، مع تحسن وتراكم الخبرة الإنشائية، وتطور المعتقدات الدينية. وبلغت أوجها في القرن السادس ق.م بإنشاء برج بابل المشيد من سبع طبقات، وبارتفاع ٩٠ مترا.

وصل مصطلح «الزقورة» إلينا عبر اللغة الأكدية السامية ويلفظ Ziqqurratu ويعني قمة الجبل أو المكان العالي ، وقد ورد بهذه الصيغة في ملحمة (جلجامش)، في معرض إشارتها إلى رسو سفينة نوح البابلي (أوتونبشتم) فوق قمة الجبل وفي ألا كدية فوق «الزقورة»، وقد نقلت هذه الأسطورة إلى ألا كدية عن الملحمة السومرية، ولعل المواقع المرتفعة ترتبط في وعي السومريين، ربما بأماكنهم الأصلية التي انحدروا منها.

اكتشف المنقبون في مدينة (أريدو) السومرية منشآت دينية بدأ تشييدها في الآلف الخامس ق.م. تتكون الطبقات السفلى منها من معابد بسيطة مجردة، شيدت بالطين اللبني (الطوف) مباشرة فوق سطح الأرض، ومع كل تجديد أو توسع في المدينة، ويصاحب ذلك عادة تطور في الفكر والطقوس الدينية، كانت المعابد القديمة تهدم وتشيد على أنقاضها معابد جديدة، وخلال حقبة امتدت لمئات من السنين، ارتفعت كتلة مختارة، من مجمع المعبد المقدس، تتكون من طبقات عديدة، أصبحت تمثل صرحا شاخصا يشرف بهيبة ووقار على كافة المباني في المدينة. قاد هذا التطور إلى أن تضاف، في معظم الأحيان، إلى مخطط مجمع المعبد الجديد زقورة ملحقة به. يصعب تقدير الدوافع الحقيقية لإقامتها، فيما إذا كانت تمثل، أول الأمر، رغبة لاهوتية واعية من أجل إبراز معالم المعبد المقدس وربطها بالسماء موقع مجموعة الآلهة الرافدينية، أو أنها ارتفعت بسبب استخدام أنقاض المعبد القديم كأسس (مصطبة) للمعبد الجديد ولكن يمكننا الجزم بأن المصاطب المرتفعة أصبحت تمثل إحدى معالم عمارة مجمع المعبد المقدس في وادي الرافدين. أضيفت إلى المصاطب منحدرات مناسبة تحيط بها، وفي أحيانا كثيرة كانت هذه المنحدرات متباينة أو متقطعة، كما أضيفت إليها سلالم عدة أصبحت، في وقت لاحق، تمثل جزءا أساسيا من مجمع المعبد.

مع تطور الفكر الديني وطقوسه المرافقة له، تطور المخطط الأساس لهذه المعابد، فشيدت نماذج من عمارة المعبد مستفيدة من تراكم وتطور الخبرة والمهارة المعمارية، أصبحت، ولعدة آلاف من السنين، تمثل بطابعها العام المخطط الأساس لعمارة المعبد في وادي الرافدين. وهي عبارة عن قاعة واسعة طويلة مستطيلة الشكل تقع في مركز المعبد، يوجد في أحد جوانبها القصيرة منصة شيدت جدرانها بالآجر، وفي الجانب المقابل توجد كتلة مكعبة الشكل شيدت جدرانها بالآجر كذلك، تعد بمثابة مذبح أو قاعدة للأضاحي. تحيط بالقاعة، من كافة جوانبها، غرفا عديدة صغيرة تستخدم

بعضها لطقوس العبادة وأخرى كمخازن لهدايا المعبد والقرابين التي تقدم له.يتم الدخول إلى القاعة بواسطة سلم يقع في وسط الجانب العريض من القاعة، يحتوي مسار الجدران الخارجية للمعبد على مرتدات أو خسفات منتظمة تمتد إلى جميع الواجهات، وقد وجدت معالم النموذج المذكور في الطبقة السابعة من معبد «أريدو» الذي شيد في الألف الرابع ق.م. كما اكتشفت في الطبقات العليا منه عدة مصاطب شيد المعبد فوقها، كان ذلك في أواخر الألف الثالث ق.م.

مع بداية الألف الثالث ق.م. تسارع تطور دويلات المدن في بلاد سومر جنوب وادي الرافدين، وارتبط هذا التطور بانتعاش الحياة الاقتصادية واستغلال الأرض، باعتبارها الوسيلة الأساسية في الإنتاج، كما تم إنشاء شبكة واسعة من الأنهار لري الأراضي، وأنعكس هذا التطور على مختلف جوانب الحياة، وخاصة في مدينة (أوروك) التي أصبحت مركز الحياة السياسية والاقتصادية في بلاد (سومر)، وبدأت مختلف المواد الإنشائية، والتي لم يعرفها جنوب وادي الرافدين سابقا، بالوصول من خلال التجارة، واستخدام مجاري الأنهار في نقلها، مثل الحجر الطبيعي والأخشاب الجيدة.

تطورت مهارة المعمار الرافديني في تشييد المعابد التي أصبحت تمثل المركز السياسي والاقتصادي، إضافة للديني، في دويلات المدن، فأصبحت المعابد تشيد على مصاطب عديدة ومدرجة. ظلت المعابد تشيد أو تجدد في نفس موقعها القديم، بدون أي تعديل جوهري في مخططها الأساس بسبب قدسية طقوس العبادة، لهذا يمكننا تتبع التطور المعماري لها منذ أن شيدت فوق الأرض البكر من خلال سبر المقطع العمودي لها.

شيد المعبد الرئيسي في (أوروك)، الذي كرس لعبادة كبير الآلهة السومرية (انو) وإلهة الخصب (إنانا)، على مصطبة بارتفاع ١٢ مترا فوق سطح الأرض، واستقر فوقها ما اصبح يعرف بالمعبد الأبيض، بسبب طلاء واجهته بالجبس. تبلغ أبعاد القاعة الوسطية ١٨,٥ متر× ٥ متر ، تحف على جانبيها الطوليين غرف صغيرة متعددة الوظائف تشرف على القاعة. شيدت جدران القاعة بالآجر اللبني الذي يتطلب العناية والصيانة الدائمة، ربما يعود سبب استخدام هذا النوع من الآجر إلى دوافع أو طقوس دينية.

تبلغ معظم مقاسات أطوال الآجر اللبني المستخدم، ما بين الشبر و نصف المتر طولا. ومن أجل تزيين معبد (إنانا)، غرست في جدران واجهاته أقلام إسفينية الشكل من الطين المفخور، لونت هذه الأقلام بألوان عديدة ونسقت بأشكال هندسية جميلة، (يمكن مشاهدة بعض منها في متحف بركامون في برلين). استخدم هذا النمط من التزيين في معبد (أوروك) أول الأمر ثم انتشر استعماله في معظم معابد وادي الرافدين.

انتشرت مجمعات المعابد الكبيرة، التي تتوسطها الزقورة المدرجة، بشكل واسع في معظم مدن وادي الرافدين الرئيسية، حتى بلغ عددها ٣٦ زقورة تقريبا، سوف نتطرق بإيجاز إلى أكثرها شهرة.

معبد وزقورة (خفاجي) في منطقة (ديالى) والذي يمثل نموذجا معماريا نادرا. شيد هذا المعبد البيضوي الشكل، والذي لم يبق من معالمه ألا القليل، في نهاية الألف الرابع ق.م. واستمرت أعمال

الصيانة والتجديد فيه حتى أواخر الألف الثالث، شيد المجمع فوق طبقات عديدة من الرمل النظيف، على مساحة تقارب ثمانية آلاف مترا مربعا، بعد أن أزيلت ما يقارب ٦٤٠٠٠ متر مكعب من طبقات الأرض الطبيعية، ولا نجد تفسيرا إنشائيا لهذه العملية، ربما يتعلق الأمر ببعض طقوس العبادة. يتكون مجمع المعبد البيضوي من السور الأول بنصب بوابته العالية، ثم سور ثان بيضوي الشكل أعلى من السور الأول. شيد داخل السور الثاني معبدا مستطيل الشكل، وفق المخطط الأساس السائد والذي أشرنا إليه سابقا، على مصطبة بارتفاع ٦ أمتار ، يوجد ضمن نطاق السور الأول بيت كبير ربما لسكن كبير الكهنة. شيدت الزقورة، باعتبارها المكان الأقدس في المجمع، في الجانب الخلفي من المعبد، تصل إليها كافة سلالم المعبد ومداخله مباشرة. شيد هذا النوع من المعابد البيضوية الشكل في مناطق أخرى، مثل المعبد المشيد في منطقة تل العبيد. استخدمت في تشييد جدران هذا المعبد أشكال أخرى من الآجر اللبني وهي محدبة الشكل وملساء، كما أن جدرانه لم تشيد وفق نمط الترابط المتباين بين الآجر بل رص الآجر جنب بعضه بشكل مائل وفق أسلوب ما يسمى (عظام السمك)، و ظل هذا النوع من الآجر يستخدم طوال ٢٠٠ عام ثم اختفى.

الزقورة السومرية

أما النموذج البارز الآخر لعمارة الزقورة فهو معبد وزقورة آلهة القمر (نانا) سين البابلية في (أور)، والذي مازالت بعض معالمه شاخصة لحد الآن، بالإضافة إلى آثار بعض القنوات والأنابيب داخل المعبد والتي ربما كانت تستخدم في المطبخ أو في بعض طقوس العبادة. شيد هذا المجمع في أوائل الألف الثالث ق.م. أبان حكم السلالة السومرية الأولى، ويبدو أنه بدأ بتشييده على أنقاض معبد قديم، الذي حولت أنقاضه إلى مصطبة شيد عليها المعبد الجديد. شيدت جدران الزقورة من الآجر المحدب الشكل، لهذا السبب تبدو للناظر عن قرب وكأن جدرانها الرشيقة العالية قد تحدبت بشكل بسيط. من المعتقد أن استخدام هذا النوع من الآجر المحدب في تشييد الجدران العالية، كان لتجميل الواجهات فقط، وليس بهدف التمويه، حتى لا تبدو عن بعد، وكأنها شبه مقعرة، كما هو الحال في نمط الأعمدة الفرعونية واليونانية التي شيدت بتحدب بسيط حتى تبدو للناظر عن بعد وكأنها مستقيمة وشاقولية، وكما أسلفنا، فأن هذا النمط من الآجر المحدب الشكل لم يعد يستخدم في العمارة الرافدينية بعد منتصف الألف الثالث ق.م.

ازدهرت الحياة الاقتصادية ومعالم الحضارة في مدينة «أور» خاصة أبان حكم الأمير (أور ــ نامو) عام ٢٠٥٠ ق.م. الذي أمر بتشييد مجمعات المعابد الفخمة ليس في (أور) فقط بل في مدن (أوروك، نفر ونيبور واريدو)، مستلهما خطى الإمبراطورية الأكدية، ومن خلال الوثائق المسجلة على ألواح الطين يمكننا إعادة رسم معالم المعبد الرئيسي والطقوس الدينية التي كانت تقام فيه.

في هذه الحقبة التاريخية اكتملت معالم المخطط الأساس للمعبد والزقورة وفق متطلبات طقوس العبادة، حيث أحيطت الزقورة بباحة واسعة، ولا تقام فيها الطقوس إلا في المناسبات الدينية الخاصة. شيد في الواجهة الجنوبية من باحة الزقورة نصب لبوابة كبيرة تعتبر بمثابة مقر لإقامة

المحاكم وسماع الدعاوى كما إنها كانت مكانا لاجتماع وجهاء المدينة للتشاور واتخاذ القرارات، كان الملك يعتبر، وباسم الآلهة، الحاكم الأول، ويطلق على نفسه أسم «راعي الرؤوس السود»، وكانت الاحتفالات السنوية تقام في باحة كبيرة تقع في الجانب الشمال الشرقي من المجمع.

ترتفع زقورة (أور)، المشيدة من ثلاث طبقات، عن الأبنية المحيطة بها، وتبلغ أبعاد قاعدة المصطبة الأولى ٦٢,٥م× ٤٣ م وبارتفاع ١١ مترا فوق مستوى الباحة، ويبلغ ارتفاع الطبقة الثانية ٦ أمتار، أما الطبقة الثالثة والمعبد المشيد فوقها فقد اندثرت تماما ولم يبق من معالمهما سوى ثلاثة أمتار، وهناك اختلاف في تقدير ارتفاع الطبقة الثالثة والمعبد المقدس، وعلى هذا فأن ارتفاع المعالم الشاخصة في الوقت الراهن يبلغ حوالي ٢٠ مترا.

شيدت القاعدة من الآجر اللبني الصلد، في حين غلفت جوانبها المنحنية بالآجر المفخور ، تتخلل القاعدة مرتدات منتظمة، وشيدت الطبقة الثانية بمساحة أقل من الأولى. أقيم في الجانب الشرقي من الزقورة سلم خارجي كبير يستند إلى جدارين في جانب الزقورة، ولا يرتفع هذا السلم إلى مستوى الطابق الأول للزقورة. غلفت جميع جدران الزقورة بالآجر المفخور وبسمك يبلغ المتران، وهي طريقة نادرة في تاريخ العمارة الرافدينية بسبب المجهود الكبير الذي يتطلبه تنفيذ أعمال التغليف والذي يستوجب تشغيل أعداد غفيرة من عمال البناء. شيد الملوك السومريون زقورات عديدة في مدن مثل «أوروك» بدون أن تغلف جميع جدرانها بالآجر المفخور، ولهذا السبب اندثرت معظم معالمها.

الزقورة في بلاد آشور

بدأ الملوك الآشوريون أبان ازدهار الإمبراطورية الآشورية في بداية الألف الثاني ق.م.، بتشييد المعابد والزقورات في المدن الآشورية، وهي لا تختلف في مخططها الأساس عن المعابد والزقورات السومرية، سوى أن الزقورة الآشورية شيدت بجانب المعبد تماما بدون أن تحاط بباحة، كما هو الحال في سومر، كما أن كبير الآلهة الآشورية «آشور» حل مكان الآلهة السومرية والبابلية. أستخدم الحجر الطبيعي والأخشاب الجيدة في تشييد المعابد والقصور، لوفرتها في المنطقة الشمالية من وادي الرافدين.

شيد العاهل الآشوري (شمشي ــ ادد)، المعاصر للعاهل البابلي (حمورابي)، في الزاوية الشمالية من مدينة آشور (قلعة الشرقاط حاليا) وعلى تل مرتفع، معبدا للإله آشور ألحقه بجانب الزقورة مباشرة والتي شيدت في عهود سابقة، ومن خلال الألواح المسمارية التي عثر عليها في منطقة آشور، يبدو أن الزقورة شيدت أول الأمر من أجل كبير الآلهة السومرية (أنليل)، ثم حولت بعدئذ إلى عبادة الآلهة (آشور) بعد أن رسخت الدولة الآشورية أقدامها. استمر الملوك الآشوريون في القيام بأعمال الإضافة والتجديد في الزقورة في الأزمنة المتعاقبة، لهذا يتعذر متابعة الأصول الأولى للزقورة وطابعها المعماري أو المخطط الأساس للمعبد.

شيدت زقورة أخرى في معبد مدينة «كارنا» في منطقة «تل الرماح»، على قاعدة بأبعاد ٣١,٥ متر × ١٩ متر ملتصقة بالمعبد تماما، لهذا كان الدخول إليها يتم عبر المعبد، وقد أبدع

المعمار الآشوري ليس في تزيين الواجهات الخارجية فحسب، بل وفي توزيع كتل الفضاءات بشكل مدهش يعكس مهارة فنية فائقة. أهتم المعمار الآشوري بالجدران الخارجية للمعبد وزينها، وخاصة بواباتها الخارجية، بأنواع من التماثيل الضخمة الحارسة، بالإضافة إلى النحوتات البارزة التي تستمد موضوعاتها من الأفكار والطقوس الدينية والحياة اليومية، كما إنها سجلت مآثر وانتصارات الملوك الآشوريين، بالإضافة إلى الاهتمام بتشييد المرتدات المتتابعة والمنظمة في الجدران الخارجية وتزيين واجهاتها بالآجر المزجج الملون وزخرفة أفاريزها. في أبان ازدهار الإمبراطورية الآشورية وسيطرتها على دويلات وادي الرافدين وتوسعها باتجاه البحر المتوسط وحتى أواسط هضبة الأناضول، شيد الملوك الآشوريون العديد من الزقورات الملحقة بالمعابد، كما شيدوا بعض الأحيان زقورتين متجاورتين في موقع واحد كما هو الحال في معبد «آنو ـ ادد» في مدينة آشور، كما قام هؤلاء الملوك بتجديد وصيانة الزقورات التي شيدت سابقا مع أجراء بعض الإضافات والتحويرات عليها.

من المنشئات المعمارية الهامة التي شيدت أبان العصر الآشوري، هو مجمع الملك سرجون الثاني في (دور ـ شركين) بالقرب من نينوى، والذي شيده عام ٧١٣ ـ ٧٠٧ ق.م.. يقع القصر الملكي المهيب في مركز المجمع تحف به قصور كبار موظفي الدولة وكهنة المعبد، عزل المجمع، المستطيل الشكل، تماما عن المساكن العامة بسياج، طول أضلاعه ما يقارب ١٦٨٣ متر ×١٧٥٠ متر، شيد القصر الرئيسي على مصطبة ترتفع ١٢ مترا عن مستوى الأرض الطبيعية، واستخدمت في تشييدها مكعبات ضخمة من الحجر الطبيعي. ألحقت بالقصر عدة معابد مقدسة وزقورة شامخة، بحيث لا يمكن الدخول إلى هذه الأماكن المقدسة إلا عبر القصر الملكي. شيدت في الجانب الجنوبي من القصر عدة معابد للآلهة «سين» أله القمر وللإله «شمش» الآهة الشمس. زينت جدران المعابد بالإضافة إلى النحوتات البارزة التي تصور انتصار العاهل الآشوري على أعدائه، زينت كذلك بالآجر المزجج الذي أضفى رونقا جماليا على هذا المجمع. يرتفع ضمن المجمع برج الزقورة بتناسق معماري فريد مع فضاءات الكتل المعمارية الأخرى. شيدت الزقورة على قاعدة مربعة طول ضلعها ٤٢ مترا. ترتفع الطبقات المتعاقبة والمتساوية الارتفاعات، بمقدار ٦،١ متر لكل طبقة، كما أن مساحاتها تتناقص كلما ارتفعت، ومازالت معالم أربع طبقات ماثلة لحد الآن، أما الطبقات الثلاث الأخرى فقد اندثرت تماما. وبهذا فأن ارتفاع الزقورة الكلي يبلغ ٤٢،٧ متر، وعندما يحتسب ارتفاع القاعدة التي شيدت عليها الزقورة، وهي نفس قاعدة القصر المرتفعة، يصبح هذا النصب المعماري بحق المركز المميز في مجمع الموقع. طليت واجهة الزقورة الخارجية وخسفاتها بطبقاتها المتعاقبة بالجبس الملون، ويبدو أن لكل طبقة كان لونها الخاص، فلا زال لون الطبقة الأولى وهو الأبيض واضح المعالم كذلك لون الطبقة الثانية وهو الأسود ثم اللون الوردي فاللون الأزرق للطبقتين الثالثة والرابعة، ومن العسير تقدير لون الطبقات الثلاث الأخرى التي اندثرت، وهناك تقديرات متفاوتة لها تبدأ باللون الذهبي للقاعة العليا المقدسة.

الزقورة في العمارة البابلية

تعتبر زقورة «عكركوف» والتي لا زالت معالمها شاخصة لحد الآن، أحد الأمثلة البارزة على تطور فن عمارة الزقورة الرافدينية، فقد شيد المعبد والزقورة في أواسط الألف الثاني ق.م.. أعتقد الكثير من الرحالة الغربيين بأنها تمثل بقايا برج بابل الشهير. شيد المجمع المقدس في زمن السلالة الكشية بعد أن سيطرت على الإمبراطورية البابلية أبان أفول سلالة (حمورابي). سيطرت الإمبراطورية الحثية عام ١٥٣٠ ق.م. على «بابل» أول الأمر ودمرت الكثير من معالمها الحضارية، وقد استغلت الأقوام (الكشية) الفوضى والتخلخل العسكري ليشنوا هجوما واسعا قادهم إلى السيطرة على «بابل» وطرد (الحثيين) منها. تقرب الكشيون، وهم من الأقوام الآرية، إلى المعتقدات الدينية البابلية، كما استخدموا اللغة البابلية في مخاطباتهم الرسمية وجعلوا من مدينة بابل عاصمة لهم أول الأمر، ولكنهم قاموا أخيرا بتشييد عاصمة جديدة لهم أطلق عليها أسم (دور ــ كوريكالزو) في الموقع الذي يسمى الآن (عكركوف) بالقرب من بغداد.

ترتفع آثار زقورة (عكركوف) في الوقت الراهن حوالي ٥٧ مترا. شيدت الزقورة بالآجر اللبني، وقد أجريت عليها أعمال الصيانة من قبل مديرية الآثار العراقية، فغلفت قاعدتها بالآجر المفخور. من خلال التفحص الدقيق لمعالم الزقورة الشاخصة، يمكننا التعرف على أسلوب بناء الزقورة الرافدية، فقد وضعت بين الطبقات الأفقية للآجر اللبني عدة طبقات متعاكسة من أعواد القصب المغمسة بالإسفلت، وهي بمثابة التسليح، لشد طبقات الآجر مع بعضها وإبعاد مخاطر سقوطها، وهو نفس الأسلوب الذي استخدم في تشييد زقورة «أور». يتم الصعود إلى الزقورة من خلال سلم رئيسي شيد في وسطها، بالإضافة إلى سلمين على الجانبين. يبدأ السلمان الجانبيان بالصعود من الجانبين الأيسر والأيمن لجدران الزقورة ثم يلتفان حول زاويتي الزقورة وبعدها يلتقيان سوية مع السلم الوسطي. شيدت السلالم بواسطة الآجر المفخور واستخدم الاسفلت كمادة ربط، حيث سكب بين مفاصل الآجر، وقد حملت قطع الآجر ختم الملك (كوريكالزو) الثاني الذي حكم وادي الرافدين من عام ١٣٤٥ ــ ١٣٢٤ق.م.

شيد في الأصل معبد صغير بجانب السلم الوسطي، كما شيدت ثلاثة معابد قرب الزقورة لعبادة الآلهة (انليل) وقرينته (نينليل) والثالث مكرس لعبادة آله الحرب (نينورتا).

برج بابل

يثير برج بابل، واسمه البابلي (أتمناكي)، في مخيلة الكثير من الغربيين، وبتأثير الكتاب المقدس بعهده القديم، ذكريات تاريخية غابرة نسجت من الشواهد التاريخية الرافدينية، التي أضفيت إليها مسحة أسطورية لخدمة الأهداف اللاهوتية، بالإضافة إلى ما كتبه (هيرودوت) عندما زار بابل عام ٤٦٠ ق.م.وشاهد برج بابل شاخصا، ولهذا السبب حاول العديد من الرحالة والبعثات الدبلوماسية والتبشيرية، منذ مئات السنين، عبثا العثور على موقع برج بابل الحقيقي. فقد اعتقد العديد منهم، كما أسلفنا، بأن زقورة «عكركوف» أو زقورة «برس ــ نمرود» هو برج بابل، بالرغم أن موقع مدينة بابل أو بالأصح بقاياها، كان معروفا منذ زمن طويل.

بدأت في مطلع القرن التاسع عشر حمى اقتناء الآثار والمعالم الحضارية، وخاصة الضخمة منها،

التي تعود للحضارات القديمة وخاصة في مصر، كما بدأت البعثات الإنكليزية والفرنسية تنقب وبشكل محموم من أجل الحصول على تماثيل ضخمة في المواقع الأثرية في وادي الرافدين.وعندما اكتشفت إحدى البعثات الإنكليزية مكتبة العاهل الآشوري (آشوربانيبال) في نينوى ومن جملتها بعض الألواح الطينية المدونة فيها أجزاء من ملحمة «جلجامش» وإشارتها إلى أسطورة الطوفان السومرية الشهيرة المثبتة في التوراة، ارتفعت وبشدة حمى التنقيب والصراع بين المنقبين مصحوبة بأعمال النهب المكشوف والواسع وحتى التخريب والتدمير. قامت إحدى البعثات الإنكليزية بالتنقيب في مدينة بابل، وبشكل سطحي وغير علمي، في أواخر القرن التاسع عشر، وسرعان ما تركت الموقع. وضمن هذا التوجه المحموم أرسل قيصر ألمانيا بعثة تنقيب إلى العراق برئاسة المهندس المعماري (كولدوي).

بدأت البعثة الألمانية بالتنقيب في مدينة بابل في ١٨٩٩/٣/٢٦ وخلال أسبوعين من العمل، اكتشفت أجزاء من بوابة عشتار، وبدأت (بابل)، وبشكل متسارع، تكشف عن نفائسها الفخمة، والتي ظلت مطمورة تحت التراب لأكثر من ألفي عام.كان الكثير من الآجر المستخدم قد أصطبغ باللون الأحمر جراء الحرائق التي أشعلها الأعداء.

أرسى البر فسور (كولدوي) تقاليد علمية جديدة في علم التنقيب هدفها الدقة وتثبيت واقع الحال المكتشف وتسجيل أو رسم وأرشفة كل شيء، وأصبحت هذه التقاليد العلمية الرصينة مدرسة احتذى بها كافة المنقبين في وقت لاحق.

ساهمت بعثة التنقيب الألمانية كذلك، أسوة بباقي البعثات، بعملية النهب والسطو على أثار وشواخص حضارة وادي الرافدين، حيث نهبت، وبسرية بالغة، أجمل واعظم نصب معماري أنجزته الحضارة الرافدية، ألا وهو بوابة «عشتار» التي ترتفع ١٤ مترا بآجرها الرائع المزجج والملون، يتخلل واجهة جدارها نحوتات بارزة تصور أنواع الحيوانات الأسطورية التي ترمز إلى كبير الآلهة البابلية «مردوك». استغلت البعثة الألمانية غباء سلطات الاحتلال التركي وفسادها، وقامت بنقل البوابة وشارع الموكب إلى برلين خلسة، على شكل طرود بريدية قبل الحرب العالمية الأولى. (وهي معروضة الآن في متحف بركامون في العاصمة الألمانية).

برزت إحدى الصعوبات التي واجهتها البعثة الألمانية في مناسيب المياه الجوفية المرتفعة، وعندما تعطلت سدة الهندية في بداية عام ١٩١٣، والتي شيدت أكثر جدرانها من الآجر البابلي، استغلت البعثة هبوط منسوب المياه الجوفية بحدود ٣,٥ مترا للتنقيب المحموم عن أسس برج بابل التي كانت بعمق ثلاثة أمتار أسفل مستوى المياه الجوفية.

تبلغ أبعاد قاعدة زقورة (برج) بابل ٩١,٦٦ مترا × ٩١,٤٨ مترا، وتتوجه أضلاع قاعدتها باتجاه الجهات الأربعة تقريبا، وقد شيدت بالآجر اللبني على طبقة من الطين النقي الذي لا يسمح للماء بالنفاذ، كما عثر على خطافات من الخشب ترتبط داخل القاعدة من خلال تجاويف من جهة، وبطبقة الطين النقي من جهة أخرى، ومن الواضح أن هدفها شد القاعدة بإحكام إلى الأسس. غلفت القاعدة، التي ترتفع عموديا، بالآجر المفخور الذي يسير بشكل متعرج وفق مرتداتها المنتظمة. ترتبط القاعدة بسلم في الجهة الجنوبية بعرض ٨,٢ متر يحتوي على ٥٦ درجة، ولازالت ١٨ درجة منها واضحة المعالم، كما

توجد أثار جدران لقاعدة سلم في الجانب الجنوبي بعرض ١٠ أمتار وطول ٥٠ مترا.

يتكون البرج من سبع طبقات، تقل مساحة الطابق كلما ارتفع، وتتكون الطبقة السابعة من المعبد المقدس وبأبعاد ٢٤ × ٢٢,٥ مترا. تقام فيه، إثناء عيد السنة البابلية في نيسان من كل عام، طقوس الزواج المقدس الذي يشارك فيه كبير الكهنة ، الذي يكون الملك في معظم الأحيان، مع كبيرة الكاهنات، وعلى ضوء إحدى الوثائق والتي تسمى لوح (أي ــ ساكلا)، التي عثر عليها في (أور)، وهي المصدر الأساس للمعلومات الدقيقة عن برج بابل، فأن المعبد المقدس يحتوي على غرف عديدة خصصت أكبرها لكبير الآلهة البابلية (مردوك) وغرف أخرى اصغر خصصت لبعض الآلهة الأقل شأنا، كما أشار اللوح الطيني إلى «بيت السرير» وحدد أبعاده بطول ٤,٥ متر وبعرض متران، كما يوجد عرش للملك بالقرب من السرير.

تتباين ارتفاعات طبقات برج بابل، وعلى ضوء الوثيقة المذكورة والتي ثبتت الأبعاد وفق المقاسات السومرية، وهي على شكل وحدات ثابتة من المقاسات تبلغ كل وحدة ٦,١ متر، بهذا يكون ارتفاع كل طابق كالأتي:

الطبقة الأولى ٣٣,٥٥ مترا، الطبقة الثانية ١٨,٣٠ مترا، الطبقة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة، كل منها على ارتفاع ٦,١٠ مترا ، الطبقة السابعة ١٥,٢٥ مترا ، وعلى هذا يصبح المجموع الكلي لارتفاع الزقورة ٩١,٥ مترا. وفي ضوء ذلك يكون الارتفاع الكلي للزقورة مساويا لطول ضلع القاعدة المربعة.

شيد في الجزء الوسط من الزقورة، كما هو الحال في زقورة (أور)، سلم رئيسي يرتفع إلى ٤٠ مترا، بطول ٦٠ مترا وعرض ٩ أمتار، كما يوجد سلمان على الجانبين، يبلغ ارتفاع كل منهما ٣٠ مترا وبعرض ٩ أمتار كذلك. شيدت طبقات البرج من كتلة صلدة من الآجر اللبني، وغلفت قاعدته بالآجر المفخور، ويبلغ سمك التغليف ١٥ مترا. لم يتفق الأثريين، إلى اليوم ، اتفاقا كاملا على تفاصيل السلالم العليا أو مسارها، فهناك العديد من النماذج المختلفة بهذا الشأن.

نستعير هنا النص الذي يصف فيه العاهل البابلي (نبوخذنصر) البرج، الذي له كامل الحق بالافتخار والاعتزاز به:

«أكملت أتمناكي (برج بابل المدرج)، واستخدمت في تشييده الإسفلت والآجر المزجج باللون الأزرق الفاتح، وجعلته منيرا كالنهار، كما استخدمت، وبكثرة، أضخم أخشاب الأرز لتشييد سقوف غرفه».

عندما زار المؤرخ اليوناني (هيرودوت) بابل عبر في كتابه «التأريخ» عن إعجابه ودهشته لفخامة برجها، كان قد عد ٨ طبقات له، وهذا يتناقض مع وثيقة (لوح أي ــ ساكلا) التي أوردت تفاصيل دقيقة عن مساحات الطبقات وارتفاعاتها، ويعتقد الكثيرون بأنه أخطأ وعد المعبد المقدس في الطابق السابع بطبقتين، بسبب ارتفاعه الكبير عن الطوابق التي تحته. كما توجد وثيقة أخرى للعاهل الآشوري (أسرحدون) يتحدث فيها عن بنائه قاعدة لبرج بأبعاد تطابق تماما أبعاد قاعدة برج بابل، وذلك إثناء سيطرة الإمبراطورية الآشورية على بابل، قبل أن يحتلها العاهل الكلداني (نبوبلاصر)، والذي كان أميرا للمنطقة

البحرية في جنوب منطقة بابل، أبان السيطرة الآشورية، وتوج فيها عام ٦٢٦ ق.م. الذي باشر بتشييد البرج، أو ربما الاستمرار في تشييده، ومن المعروف أن ابنه الملك (نبوخذنصر) الثاني ٦٠٤ ــ ٥٥٢ ق.م. قد أنجز بنائه. هناك اتفاق بين معظم الأثريين على ملاحظة البروفيسور (كولدوي) مكتشف البرج، بأن قاعدته قد شيدت في مرحلة أقدم من مرحلة طبقة الآجر المفخور التي غلفت به القاعدة.

بدأت عمارة الزقورة بالتطور، مرتفعة من مصطبة واحدة إلى ثلاث وخمس طبقات وأخيرا سبع طبقات كما في برج بابل. إن مجمل الدوافع الكامنة وراء هذا النزوح نحو الأعلى، ربما كان الاعتقاد اللاهوتي الرافدي، الذي كان يحاول الاقتراب اكثر نحو مجمع الآلهة في السماء، لإيجاد رابطة مباشرة بين الأرض والسماء، بين الإله ونائبه الملك، وهنا يكمن اختلاف جوهري مع المعتقدات المصرية القديمة، حيث كان المصريون يشيدون الأهرامات ويحنطون الموتى لتخليد موتاهم لاعتقادهم بعودة الروح (كا) إلى الميت ليحيى مرة ثانية ويمارس حياة تشبه حياته الأرضية. وهي عكس المعتقدات الدينية الرافدينية، التي تؤمن بحتمية الموت وعدم خلود الإنسان، كما تعتقد بأن العودة من مملكة الأموات غير ممكنة لغير الآلهة. هذه المعتقدات وجدت طريقها في نمط وهدف المعابد أو الزقورات، التي لم تشيد كقبور، أو لتهيئة الإنسان للحياة الأخرى، وإنما كواسطة اقتراب من الآلهة. شيدت الزقورات الشاهقة إلى جانب المعابد الواطئة، وهنا أيضا يوجد اختلاف جوهري في المعتقدات والأهداف بين المجمع المقدس الرافديني، وبين مجمع المسجد والمنارة الإسلامي ، رغم بعض الآراء التي تدعي وجود علاقة لاهوتية، ربما هناك تأثير معماري بحت للزقورة على الشكل المعماري للمنارة، ويمكن مشاهدة هذا التأثير بوضوح في ملوية «سامراء»، وهناك أمثلة عديدة في هذا المجال. شيدت المنارة الإسلامية بجانب المسجد بهدف دعوة المؤمنين، ومن مكان عال، إلى الصلاة والعبادة للإله الواحد وهذا يختلف تماما عن الأهداف المتوخاة من تشييد الزقورة الرافدينية.

استخدمت الزقورة في وقت متأخر كمرصد لمراقبة النجوم وتسجيل التغييرات الحاصلة في مساراتها مع محاولة التنبؤ بالحوادث وخاصة تلك التي تهم الملك.

وأخيرا لابد لنا من الإشارة إلى أن (الاسكندر المقدوني) عندما سيطر على عموم وادي الرافدين زار (بابل) في عام ٣٣١ ق.م. أي بعد مرور ١٣٠ عاما على زيارة (هيرودوت) والتي كانت آنذاك شامخة وتعج بالحياة، في حين وجدها (الاسكندر) وقد اندثرت معالمها الأساسية وتحولت إلى كتل من الأنقاض. وحسب مؤرخي سيرته، حاول جاهدا إعادة الحياة لها و تشييد برجها، فجند لها عشرة آلاف عامل لإزالة الأنقاض وتجميعها في الجوار (ويمكن اليوم مشاهدة تلال هذه الأنقاض التي تحيط بالمدينة القديمة)، ولكنهم عجزوا عن إتمام المشروع وخاصة بعد موت (الاسكندر) المبكر، حيث وضع خلفائه حدا لهذه المحاولة. مات (الإسكندر) عام ٣٢٣ ق.م. في (بابل) ودفن فيها. ?

المصادر: طه باقر: الموجز في تأريخ حضارة وادي الرافدين

E.Klengel-Brandt: Der Turm von Babylon. Petra Eisele: Babylon


أدب وفن

سقوط بغداد..
أم سقوط الطاغية ؟!



لا أدري كيف يستمرئ «امرؤ» عبارة «سقوط بغداد» تعبيرا عن سقوط نظام صدام حسين!

كيف يستمرئ «امرؤ» عبارة «سقوط بغداد»، بينما اسم (بغداد) هو اسم منزّهٌ وبريء.. بل هي (مدينة السلام) ورمزُ حضارة!

وكيف يستمرئ امرؤٌ أن يذكر بأن هذا السقوط هو الحادي والعشرون في تاريخها.. معترفاً، ولإحدى وعشرين مرة، بسقوط «النزاهة» و«البراءة».. معترفاً بسقوط المعنى، معنى (مدينة السلام).. معنى كونها رمزَ حضارة؟!

بغداد معنى، والمعنى لا يسقط.. وكل سقوط مرَّ بها لا يعني سقوطَها ولا سقوطَ أبنائها، أو سقوطَ إنجازها الإنساني والحضاري.. بل هو سقوط طغاتها الحكام، وغزاتها الطغاة.. الساقطين في أوج انتصارهم!

قد يقول قائل: إنه تعبير سائد ومعروف ومألوف، مثل سقوط موسكو أمام نابليون، وسقوط باريس أمام هتلر، وسقوط برلين أمام ستالين.. و.. و.. و.. إلخ.. ولكنني أقول له: لقد جانبْتَ صوابَ الروح، فحتى هذه التعابير التي سادتْ فعُرِفَتْ وأُلِفَتْ أجدُها موجعةً ومنحرفةً، وتحمل التشفي أكثر مما تحمل الإخبارَ أو المواساة.

هل سقطتْ بغداد بعد هولاكو.. أم سقط هولاكو بعد سقوط الخليفة الذي كان يُطعِمُ حميرَهُ «البريئةَ» الفستقَ المقشّر، بينما سواد شعبه لا يحظى بكسرةِ خبزِ شعير!

هل سقطتْ بغدادُ، حينما سقط نوري السعيد والحكم الملكي؟!

هل سقطتْ بغداد، بعد مقتل عبد الكريم قاسم في ٨ شباط ١٩٦٣؟!

فهل يمكن أن تسقط بغداد، وقد سقط طاغيتها.. وكان سقوطُهُ هو أملَها وأملَ أهل العراق من (زاخو) حتى (صفوان) ومن (خانقين) حتى (H3)؟!

فكيف — إذن — يستمرئ «امرؤٌ» في صحافتنا الحالية عبارةَ «سقوط بغداد» تعبيراً عن سقوط نظام الطاغية؟! ?

مهدي محمد علي

حقُّ الرِّفقةِ العجبُ

سعدي يوسف



لأبي مُحسَّد، أحمد، المتنبيء، ولـ«مُعْجز»ه، أعتذرُ، وبه ألوذُ، مُترعاً حقَّ رفقةٍ مُدّعاة، متذرّعاً بحب أكتّمُه لم يَبْرِ جسدي، بل لقد زادهُ بُرءاً وبراءةً.

أقولُ هذا، وأنا أقرأ قصيدة أبي محسّد ذاتَ المطلع البهيّ، شأنَ مطالعه:

أيــــدري الربـــعُ أيَّ دم أراقـــا وأيَّ قلوبِ هذا الرَّكْـــب شـــاقا؟

حتى إذا بلغتُ البيت:

تركْنا مـــن وراءِ العـــيس نجـــداً ونكّبْنـــا الســــماوة والعراقـــا

وجدْتني في حيرةٍ من أمري، ذلك لأني أروي البيتَ روايتي الفريدة:

تركْنا في مهـــبِّ الــريح نجـــداً ويمّمْنـــا الســــماوة والعراقـــا

وأحياناً أرويه كالآتي:

تركْنا مـــن وراءِ العـــيس نجـــداً ويمّمنـــا الســــماوة والعراقـــا

* * *

لكأنني لم أُرِدِ لأبي الطيب أن يحيدَ عن السماوة والعراق، مُصْعِداً إلى حلب وسيفِ الدولة، أو كأنني ضننتُ به، فوددتُ لو تلبّث شيئاً، قبل أن يكون على قلقٍ كأنَّ الريح...

للاستعادة منطقُها،

وللتجاريب منطقها أيضاً.

وهاأنذا أتغنى بالسماوة والعراق، في حضرة أبي الطيب، بطريقة خاصة. لقد قُتل المتنبي في ما بعدُ، ببادية السماوة التي نكّبها يوماً، مُصْعِداً إلى حلب، لَكِنَّ أنا، فقد نجوتُ من القتل ببادية السماوة، في مصادفة محْضٍ لم تُتَحْ للمتنبي.

* * *

كان العام ١٩٦٣.

ومنذ أوائل ذلك العام، أي منذ مؤامرةِ الخَونة، ظللتُ أتنقل بين السجون العراقية، جنوباً حتى ملتقى شطِّ العرب بالخليج، ووسطاً حتى بعقوبة، مروراً ببغداد في انتقالات عبثية بقطارات

حمولة، وسيارات سجون ذوات قضبان، وحافلات مستأجرة؛ كأنّ الكون ليس غير سجون وسجناء وشرطة وضحايا **(أنا بين الضحايا على أي حال).**

في مرحلة من المتاهة الكافكوية، بلغ بي المقامُ **نقرة السلمان**، وهي قلعةٌ في أقاصي **بادية السماوة** عند التخوم العراقية ـ السعودية، بناها أبو حنيك (الجنرال غلوب **باشا** في ما بعد) لأغراضٍ أولُها أن يصدّ مُغيري الوهّابية (كان الواحدُ من جمالهم يحمل مغيرين اثنين) الذين ظلوا يحاولون أن يجعلوا العتباتِ المقدسة دوارس (وهي خيرُ القبور في رأيهم)، لكن بين الأغراض الأخرى أن تكون القلعةُ منأى السجناء الخطرين...

إذا، صرتُ، بقدرة قادر طبعا، **سجينا خطرا.**

الوصولُ إلى **نقرة السلمان** ليس يسيرا، بل أنه لفرط صعوبته، صار حلما أو كالحلم... أنت، حُكم عليك، وجاها، بعد ضرب ومهانة ومقاربة إعدام عشوائي... وهكذا صرت تفكر بأن الأمور بلغتْ حداً معيّنا، نقطة توقُّف في الأقل، وبأنك سوف تتكيّف لظروف جديدة، قد تطول أو تقصر، لكنها مرحلةٌ محددةٌ على أي حال. كم أنت واهمٌ.

إن بينك وبين نقرة السلمان لبرزخا، وهي تتراءى لك الآن جنة في البعد، جنةً للأمان والتقاط الأنفاس، والنومِ إلى آخر الدهر...

أما البرزخُ فهو **شرطة التسفيرات** التي تتولّى نقلَ المحكومِ عليهم، من أمثالك، إلى مآويهم المتناثرة على طول العراق وعرضه، وما العراقُ بالبلد الصغير...

إذاً، ستكون في **موقف السّراي** اللصيق بسجن بغداد المركزي، أسطورة السجون ومجازرها. هناك تنتظر دورك في التسفير.

زوايا الموقف احتلّها العُتاةُ من السجناء العاديين، وعليك أن تجد لك مربّعا تفرش عليه بطّانيتك التي اعتدت حملها من مثوى إلى آخر (كانت لي حشيّةٌ وثيرةٌ سماها المحكومون «فندق بغداد»، إكباراً لها، وسخرية، واضطررتُ إلى التخلي عنها لفرط ثقلها)، وأن تتدبّر مأكلك، ومشربك، والشاي؛ وأن تجامل العُتاة اتّقاءَ شرّهم، إذ كانوا يُستخدمون لإيذاء السجناء السياسيين. الحياةُ، بإطلاقٍ، على غير ما يُرام.

ونقرة السلمان تتراءى في البُعد، حلما!

* * *

ليس من يومٍ موعود...

الأشياء تبدأ فجأةً، وتنتهي فجأةً، مثل يوم الحشر. مثل الولادة المباغتة والموت العنيف. النورُ الذي في آخر النفق (كما يقول التعبيرُ المزدرع في صحافتنا)، يهلُّ في هيأة شرطيّ يجلبُ **الأرزاق** (طعام الحكومة)، وهو أساساً ما جادتْ به مخيّلةُ المتعهد من قوت. هذا الشرطيّ ذو المعاش الرثّ، قد يبدو المنقذ:

حين يسلّمك رزقك (رغيف خبز وكرّاثٌ مثلاً)، تعطيه بالسرّ دينارين وعنواناً لقريب أو صديق، كي يذهب حين يحلو له، ويخبر القريبَ أو الصديقَ بأمرك ومستقرّك.

المحظوظون منا سيأتيهم الأهلُ والصديقُ بالثوب النظيف، وبالمأكل اللطيف صوانيَ عامرةً ندعى إليها فنلتهم الأخضرَ واليابس، ونمصمص أصابعنا متلذذين...

لكن الفضل العميمَ لشرطيّ الأرزاق سيكون يومَ يقال لك:

الآن تسفّرون إلى النقرة (النقرة اسمُ تحبيبٍ لنقرة السلمان!)

إذ يتعيّن عليك أن تخبر أحداً بأنك ستكون هناك، وأنك سالكٌ اليوم درب من صدَّ ما ردَّ (بالتعبير الشعبي غير المزدرَع)، بمعنى أن رحلتك قد تكون رحلةَ اللاعودة، مثل مجنّد القيصر الروسيّ.

ملحوظة:

جاء في الرواية الروسية الكلاسيكية أن الفتى المجند الذي ما نبت عارضاه بعدُ، تباح له القرية سبعة أيام بلياليها، عُرفاً متّبَعاً، فيفعل الفتى ما يشاء، يعبّ الفودكا لينطرح في أي دربٍ أو أي بيت، ويعاشر من فتيات القرية من استحلى، عابثاً أو مُعابثاً... يكسر الأبواب، ويدخل من الشبابيك. ذلك لأنه سالكٌ بعد سبعة أيام درب مَن صدّ ما ردّ. سيظل في جيش القيصر جندياً حتى لو طالت لحيتُه الشائبة لتبلغَ قدميه!

* * *

أنا لم أُبلغْ أحداً أمري.

كنتُ واثقاً أنني لن أكون وحدي في الرحلة الطويلة من بغداد إلى مركز السماوة (بالقطار)، ومن مركز السماوة (بالحافلة العتيقة) عبر المفازة الخطرة اللامتناهية حتى التخوم العراقية ـــ السعودية حيث النقرة.

تقول الأغنية الشعبية:

نخل السماوة يقول...

وبعد عشر سنين من ١٩٦٣:

توهّمتُ نخلَ السماوة نخلَ السماوات...

وأبو الطيب المتنبي، وفاتك الأسدي، وبادية السماوة!

في رحلة القطار ذي المقاعد الخشب، وطول المسافة الشنيعة (القطار بطيء) من بغداد إلى محطة السماوة كنا مكبلين، اثنين اثنين؛ يدك الشمالُ موثقةٌ بـــ(الكلبجة) إلى يد رفيقك اليمين، والشرطي ذو البندقية هو الجليس الثالث على المقعد الخشب.

أترضى لنا هذا العذابَ يا أبا إسماعيل؟

الحقُّ أنها لم تكن رحلتي الأولى بالتكبيل المزدوَج، إذ بعد أن أصدرت المحكمة العسكرية بمعسكر الوشّاش في بغداد حكمها عليّ، نُقلتُ أولاً إلى البصرة بالطريقة إياها، وعبر الطريق إياه.

أتذكّر الآن أننا بلغنا محطة السماوة في الضحى.

و**الموقف** في مركز شرطة السماوة كان مكتظاً...

كان معظم المعتقلين في المركز من أبناء البلدة، باستثنائنا نحن القادمين من قطار بغداد، المنتظرين متابعةَ الرحلة الخرافية عبر تلك البيداء التي «لم يعرف بها ساكنٌ رسماً»...

انتبهتُ، أنا القادم من متاهة الهول، إلى جوِّ المرح الشائع؛ واستمعتُ إلى أغنية خفيضة في ركنٍ، وتذكرتُ أن أهل البلدة مشهورون بالغناء، والكرم، والبسمة الدائمة. هانحن أولاءِ وراء القضبان جميعاً... لكن أهل السماوة يمرحون!

نحن، الذين ألقانا القطارُ هنا، لم نُطل المكثَ. حُشرنا في الحافلة المتداعية، ظهراً، في الطريق الرهيب إلى **نقرة السلمان**.

أعتقد أن الحافلة كانت تحمل ركّاباً عاديين أيضاً، شرطةً وموظفين في تلك الناحية الملعونة حقاً. لا أتذكّر الآن، إن كنا، نحن السياسيين، مكبّلين أم لا داخل الحافلة، والأرجحُ أننا لم نكن... إذ أن الحافلة هي، فعلاً، قاربُ النجاة الوحيد، والقفزُ من القارب يعني الهلاك الأكيدَ، ظمأً أو افتراساً بأنياب الذئاب في هذه المفازة (والحكاياتُ عن مصير التائهين هنا ليست نادرةً).

كم ساعةً كانت المسافة بين السماوة و**النقرة**؟

لستُ أعرف. لكن الطريق لم يكن ذا معالمَ، أو هكذا بدا لنا، نحن الحضر. توقفت الحافلة مرتين، مرةً لإصلاح خللٍ ما، وأخرى لتزويد «الراديتر» ماءً.

فجأةً لمحنا شجراً.

وقال قائلٌ: **النقرة!**

لقد «بزغت» نقرة السلمان، مباغتةً، من القفر المحيط. إنها لفي خَبْتٍ من الأرض، تُتْلِعُ رأسَها، فعلَ الأفعى، لتتبدى بكامل شرّها وزينتها. نقرة السلمان التي أعلنتْ عن نفسها وسطَ هذه المفازة، بشجرٍ متناثرٍ، بدا فائقَ الخضرة، سوف تُطبِق علينا بأسوارها العالية ذواتِ الأبراج العشرين، كما تطبق الأفعى الملتفّة.

توقفت الحافلة في الظل. هبط «العاديون» مسرعين إلى الهواء الطلق الساخن، أما نحن، فعلينا أن نمرّ بمرحلة **التسليم والتسلّم** في مكتبٍ خارج الأسوار، قبل أن تُفتح البوابةُ الكبرى لتلتهمنا.

هل بمستطاعي الآن، وبعد مُضيِّ أربعة عقودٍ، أن أستعيد بدقةٍ ما، إحساسي حين بلغتُ قلعةَ التخوم هذه؟

أتراني فكّرتُ بما ينتظرني فيها، وبما سألقى هناك، ومن ألقى؟

هل فكّرتَ بالزمن المطلق؟

أو بمعنى أن أكون، أنا، في هذا الموقع من خرافة العقاب؟

أظنّ الأمرَ في غاية الصعوبة الآن...

لكنني متأكدٌ من إحساسٍ واحد: **أنا لم أكن خائفاً!**

ربما كان هذا بسببٍ من طيشٍ ظل يلازمني...

لستُ في ما أكتب الآن روايةَ أيام وأحداث مرتْ عليّ في **نقرة السلمان**، ولا مؤرخ تفاصيل؛ لم أسعَ إلا إلى مقاربةٍ معينة بين سيرتين فصلتْ بينهما قرونٌ وقرون، أما مقصدي فهو تبيانُ أن حالنا لم تتبدلْ كثيراً، وأن بادية السماوة ظلت، كعهدها، منذ زمان أبي الطيب، مقتلة كامنة للشاعر كما لسواه.

لقد أشاعَ الانقلابيون، أوائلَ السبعينيات، أنهم سيهدّون «نقرة السلمان» هدّا، فكتبتُ نصاً عنوانه **قصيدة وفاء إلى نقرة السلمان** أتنبأ فيه بأن القلعة سوف تُبنى من جديد بأيدينا حتى لو هُدّت هداً. والواقعُ أن القلعة لم تُهدّ، بل غدتْ بعد قمع الانتفاضة، مرتكزَ المدافنِ السريّة للشهداء...

* * *

ما أبعدني هذه اللحظةَ، يا أبا الطيب، عن السماوة والعراق!

أنا في القرية الإنجليزية **نكّبْتُ**، مقلداً إيّاك، **السماوةَ والعراقا**...

لن أقترح عليك أمرا يتصلُ بنصّك، فأنت الدليل. ولأنسيَنّ روايتي بيتَك تلك الروايةَ الفريدة!

إني لأتغنّى ببيتك:

تركْنا مــن وراء العــيس نجــداً ونكّبْنــا الســماوة والعراقــا

* * *

لماذا نتذكّر؟

لماذا أتذكّر، مثلاً، أنني كنتُ الأقربَ إلى بوابة القلعة، حين فُتحت ليدخل معتقلو السجن العسكري رقم واحد، الذين نجوا، في ما يشبه المعجزة، من موتٍ مخطّط له، داخل العربات الحديدِ **لقطار الموت**؟

في الصباح الذي أعقب وصول المعتقلين، نُقلتُ إلى **سجن بعقوبة**.

لكن لهذا السجن الجديد قصةً أخرى طويلة.

وأنا امرؤٌ تزيدني الذكرى رهقاً... □

لندن ٢٠٠٢/١٢/٩

قبلَ عنّا في الغرب(*)

د. محمد صادق رحيم

ﻏ اعتبر خبراء الفن في الغرب أن ما أُنتج عندهم من فنون متفوق على أشكال الفنون المنتجة عند الشعوب الأخرى والطبقات «الدنيا»، فبوّبوها تحت عناوين مثل الفن البدائي، أو الآخر، أو الواطئ، أو الضحل.. الخ. وكأن على الفنان أن يقرن فنه بالرياضيات العالية والعلم واللغة والفلسفة، لأجل أن يبرز أو أن يرتفع بفنه إلى مستوى لائق. وكان للتعالي العنصري والجنسي وجود متوازٍ في الكتابة عن تاريخ الفن ونقده، لكنهما يظهران مشذبين مزوّقين لكي يكون تأثيرهما «متحضراً». فعندما يذكر (هربرت ريد)، مثلاً، عبارة «وشم» فهو يعني تقاليد غريبة خطرة من بقاع نائية. فكان التزيين في الفن عنده، كتزيين الوجه، شكلاً من أشكال التشويه الذاتي، والتخلف المذل، وزخرفة الإنسان بيده. وإذا ما وصف الناقد الغربي أي فن بأنه «غريب» فالعنصرية هي الدافع لذلك، وهي تجد تعبيرها في الخوف من العناصر «الهجينة» المتجمعة على أبواب الحضارة كأنها مستعدة للانقضاض عليها؛ الخوف الشديد من تسرب «العفن» إلى «الطهر والنقاوة».

في أوربا القرن التاسع عشر، ظهرت أعمال زخرفية من ثقافات غير أوربية كانت متفوقة بوضوح على الأعمال الفنية الممكننة المنتجة في الغرب، فكيف استطاع الغرب الحفاظ على تفوقه المزعوم في وجه انتشار هذه الأعمال؟ يجيب (لوس) كما سنرى بإعلانه أن الزخرفة هي وحشية وتخلف، والنقاد أو الفنانون الذين يميلون نحو الزخرفة والتزيين ما هم إلا عجزة متفسخون.

مع كل تلك الطروحات العنصرية التي قللت من قيمة فنون الآخرين، كان هناك تثبيت مقصود لفنون الإغريق كمثال راقٍ ونموذج آري للنظام. فكل فن حافظ على تقاليد الإغريق والروم كان فناً فائقاً ذا قيم عالية. ولم تكن المتعة والتأمل والارتخاء عند الفنانين والشعوب الأخرى مفهومة لدى نقاد الفن في الغرب، دعاة الذاتية والسمو والحركية والنقاوة المطلقة. فاستعمل (مالرو) مثلاً كلمة «بربري»، واستعمل (فراي) كلمة وحشي لوصف الفن والفنانين

(*) اعتمدنا على مقالة جوزيف ماشيك (Masheck) عن السجاد وورق الجدران the carpet paradigm المنشورة في Arts Magazine أيلول ١٩٧٦ والبحوث التي ألقيت عن الموضوع في التيت غاليري بلندن، وتجربتنا الخاصة.

غير الغربيين.

لقد طُرحت النقاوة كمبدأ جمالي أيضا، فترى مروّجي الفن الحديث والفنانين أشبه بصليبيين جدد، يعلنون قيما دينية في الفن يدّعون سرمديتها، وموضوعهم المفضل هو تطهير الفن. واستعاروا كلمة «التعميد» المسيحية، بمعنى السمو من خلال التنقية والتطهير من أجل المحافظة على التقاليد الإغريقية والمسيحية. وقُرنت التنقية بالنظرة المترفعة للفنان كإله، كما سنرى في مقولة (أبولونير) وتعظيمه للشخصية والذات، إذ لم تعنِ النقاوة أعلى الجودة فحسب، بل عنت الاختزال أيضا، فكلما اختُزل الفن كلما زادت نقاوته. وقد ساوى (غرينبرغ) الاختزال بالاتزان والفاعلية، لكنه لم يفسر أبدا لماذا ولمن يجب أن يكون الفن فعالا. أو لماذا تعتبر الاختزالية اتزانا. كما سنجد استعارة جنسية في أقوال الفنانين (ديكونين) و(صوليفان) و(أوزنيفان) أرادوا تعرية الفن والعمارة حتى النقاوة. فتصوروا الفنان رجلا والفن «الشيء» مرأة.

احتوت كثير من البيانات الفنية التي صدرت عن مجاميع أو أفراد على إيعاز للفنانين أن يكونوا ثوارا وللفن أن يكون عنيفا ثوريا. لكنهم اعتبروا التزيينية «الغريبة» عدوهم التقني الأول.

كذلك تحول كفاح (مارينيتي) منظّر المستقبليين والنحات (غابو) والمعماري (لي كوربوزيه) إلى توجه نحو الجماليات المكنية، فالماكنة عندهم هي رمز التقدم، والوسيلة النموذجية التي جمعت التقدم التكنولوجي مع الاختزال في الفن، وانسيابية الخط في الرسم. هذا «التطهير» حقق نظاما لا نعرف كيف نصفه، إذ لا وصف له، وشتم اللخبطة التي لم يشرحها أبدا.

- **أدولف لوس Loos (الزخرفة والجريمة ــ ١٩٠٨)**

«لا يمكن لأي شخص يعيش بمستوانا الثقافي أن يصنع زخرفة اليوم، لكن المسألة تختلف بالنسبة للأشخاص والجماعات التي لم تبلغ هذا المستوى. أستطيع تحمّل زخرفة الكفيريين(*) والفُرس والفلاحات السلافيات، وزخرفة صانع أحذيتي، لأنهم جميعا لا يملكون سبيلا آخر يوصلهم إلى الدرجة السامية لوجودهم. لقد استغنى فننا عن الزخرفة، فبعد الكدح والمتاعب اليومية نعود إلى بتهوفن أو ترستان».

- **هربرت ريد Read (الفن والصناعة ــ ١٩٥٣)**

«يجب الشك عند التعامل مع أية زخرفة. أشعر عندما يضع شخص متحضر حقاً الوشم على جسده أنه يغطي عملاً فنياً جيداً بزخرفة لا معنى لها. الزخرفة «المشروعة» هي، كما أعتقد، مثل الكحل والحمرة المستخدمين بحذر لجعل حدود الجمال ــ المكتمل أصلاً ــ أبرز وأشد».

(*) قبيلة من جنوب إفريقيا.

• **أدولف لوس Loos (الزخرفة والجريمة ـــ ١٩٠٨)**

«لقد اكتشفت ما يلي وقدمته للعالم: تطور الثقافة مرادف لإزالة الزخرفة عن الأشياء النافعة. اعتقدت أني بهذا الاكتشاف قد جلبت المسرة للعالم، لكنه لم يشكرني. كان الناس حزانى مطأطئي الرؤوس، لقد اكتأبوا لإدراكهم أنهم لا يستطيعون التجديد في الزخرفة، فقد أهملوا ما ابتدعت الإنسانية خلال آلاف السنين، دونما زخرفة، إهمالاً لا ينم عن الحكمة فبات الإبداع حطاماً. نحن لا نملك مصطبة نجار حتى من القرن العاشر، لكن الأبنية الفخمة قد شيدت لاحتضان كل التفاهات التي تنم عن أقل زخرفة».

• **رتشارد وستماكوت Westmacott أستاذ النحت في الأكاديمية الملكية ـــ لندن (بعض مكونات الذوق، المودة وجمع التحف في إنجلترا وفرنسا ـــ ١٩٧٧)**

«أعتقد أنه من المستحيل أن يعتبر أي فنان منحوتات نينوى المرمرية أعمالاً ندرسها فهي بالتأكيد لا تصلح لذلك. إنها نتاجات فن وصفي، كما هو الحال في الفن المصري القديم. لا يمكن لأي إنسان أن يفكر بدراسة الفن المصري».

• **أندريه مالرو Malraux (أصوات الصمت ـــ ١٩٥٣)**

«يمكن لفن المتوحشين أن يبقى حياً في المحيط البربري الذي يعبّر عنه. والأسلوب البيزنطي، حسب نظرة الغرب إليه لم يعبّر عن قيمة عليا، بل كان مقارباً لشكل من أشكال التزيين».

• **كاسيمير ماليفتش Malevich (Suprematist manifesto unovis ـــ ١٩٢٤)**

«نحن لا نريد أن نكون مثل هؤلاء الزنوج الذين وضعت الثقافة الإنجليزية المظلة والقبعة على رؤوسهم، ولا نريد أن تركض زوجاتنا حولنا عاريات مثل وحوش يرتدين زياً من مدينة البندقية».

• **تولستوي Tolstoy (ما هو الفن ـــ ١٨٩٨)**

«الفن الحقيقي هو كزوجة الرجل المحب، لا تحتاج إلى زخرفة، لكن الفن المزيف هو كالعاهرة يجب أن تزخرف على الدوام».

• **لي كوربوزيه Le Corbusier وآميدي أوزنفان Amédée Ozenfant (عن التكعيبية ـــ ١٩١٨)**

«هناك طبقة في الفنون نخبوية راقية خاصة، أما الفن التزييني فهو في أدنى مرتبة. والشكل البشري في القمة... لأننا رجال».

• **ماير شابيرو Meyer Schapiro (الأسس الاجتماعية للفن ـــ ١٩٣٦)**

«امرأة الطبقة العليا «فنانة» بالضرورة، فهي مثل الرسام قد تسترضي حياتها اليومية غارقة في الاختيارات الجمالية. إنها تشتري ملابس، زخرفة، أثاث، زينة البيت، فهي تعيد ترتيب نفسها دائما كأنها شيء جمالي».

• **بارنت نيومان Newman (اللوحة الرمزية ــ ١٩٤٧ عن كل فن كواكاتيل)**

«الأشكال التجريدية التي استعملها، وكل لغته التشكيلية، كانت موجهة برغبة طقوسية نحو فهم الغيبي (الميتافيزيقي). الواقعية اليومية تركها لصانعي اللُعب. والتلاعب اللطيف بواسطة عناصر الزخرفة تركه للنساء حائكات السلال».

• **أندريه مالرو Malraux (أصوات الصمت ــ ١٩٥٣)**

«تصميم السجاد هو تجريد على العموم، لكن ألوانه ليست كذلك، قد نكتشف قريباً أن السبب الوحيد لتسميته «فناً تزيينياً» هو عدم امتلاكه تاريخاً نقرّه نحن، لا طبقة عليا، لا معنى. الاستنساخ الملون قد يقودنا إلى إعادة النظر في هذا الموضوع، لأجل إنقاذ المنتجات الجيدة من أسواق شمال إفريقيا، كما أنقذت نحوت الزنوج من دكان بيع التحف. وبكلمة أخرى، تحرير الإسلام من عار التخلف، لكي يأخذ مكانه المناسب (وهو مكان غير مهم، لأن السجاد لا يعبّر عن الإنسان، وليس لأنه لا يحتوي صورة الإنسان) وسيكونُ ذلك آخر ظهور لشرق لا يموت».

• **رادولف آرنهايم Arnheim (الفن والإحساس البصري ــ ١٩٥٤)**

«الرسم والنحت يحتويان تعبيراً ذاتياً عن طبيعة الوجود الإنساني بكل جوانبها الأساسية. الزخرفة التي قُدمت كعمل فني أمست جنة الأغبياء اليوم، لأنها تجاهلت المأساوية والتغاير، وتحكّم فيها سلام سهل».

• **كليمنت غرينبرغ Clement Greenberg (ملاحظات مفصولة ــ ١٩٧٦)**

«الفائدة المثلى من الفن قد حُددت بتقديمه ممارسات لقيم جمالية، ولهذا يجب أن يُعرّى الفن باتجاه هذا الهدف».

• **آميدي أوزينفان Ozenfant (أسس في الفن الحديث ــ ١٩٣١)**

«التزيين قد يكونُ باعثاً للقيء، لكن الجسم العاري يحركنا بالنسق الموجود في شكله».

• **روجر فراي Fry (فن رجال الأدغال ــ ١٩١٠)**

«ليكن ملاحظاً أن جميع الشعوب التي تُظهر رسومهم تلك المقدرة الغامضة على الرؤية الحسية (وغير المفاهيمية) تنتسب إلى ما نسميه نحن الأقصى وحشية، فإن إمكانية إيصالهم

للحضارة هي أضعف بالتأكيد».

• **هنري فان دوفيلد van de Velde (برنامج ــ ١٩٠٣)**

«في لحظة انتهاء عملية التطهير والكنس، يخرج إلى الضوء مرة أخرى الشكل الحقيقي للأشياء. عندها يمسي الكفاح بكل صبر الإغريق وروحهم ومنطقهم موجهاً لاستكمال هذا الشكل».

• **إيل ليزيتسكي El Lissitsky (البنائية الإيديولوجية الفائقة ــ ١٩٢٩)**

«ليهدم التقليدي... لقد أُعلنت الحرب على جماليات الهرج والمرج، المطلوب الآن هو ذلك النظام الذي سيحل كليا في الضمير».

• **غيوم أبولينير Guillaume Apollinaire (الرسامون التكعيبيون ــ ١٩١٣)**

«الإصرار على النقاوة هو تعميد للموهبة الغريزية، هو جعل الفن إنسانيا، وهو تعظيم لشخصية الفرد».

• **ديفد هيوم Hume (عن الشخصية الوطنية ــ عن الأفارقة ــ ١٧٤٨)**

«لم يكونوا قوما متحضرين بطبيعتهم، ولم يكن هناك ولو شخص واحد بارز الفعل بينهم، أو من المتوقع أن يبرز، لا صنّاع متميزون، لا علم ولا فنانون».

• **روجر فراي Roger Fry (معرض الفن المحمدي في ميونخ ــ ١٩١٠)**

«لا يمكن التغاضي عن كون «الفن الإسلامي» قد سمسر حتى الغواية على مر الزمن بأخطاء المستشرق الحرفي. بأناته التي لا تحتمل، وصناعته التي لا فكر فيها».

• **غوستاف فون غرونباوم von Grunebaum (إسلام القرون الوسطى ــ ١٩٤٥)**

«لا يمكن اعتبار الإسلام مبدعاً كما كان الإغريق مبدعين في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، أو عالم الغرب منذ عصر النهضة. لكن ميزة مذاقه لا تقبل الخطأ».

• **فليبو توماسو مارينيتي Marinetti وأنطونيو سانت إليا Sant Elia (العمارة المستقبلية ــ ١٩١٤)**

«التزييني يجب أن يلغى... لنتخلص من النُصُب والأرصفة، الأقواس والمدرجات. دعنا نُغرق الساحات في الأرض، ارفع مستوى المدينة».

• **من (بيان الرسامين المستقبليين ــ ١٩١٠)**

«سوف يدفن الميت في أعمق تجاويف الأرض، عتبة المستقبل ستحرر من أي مومياء، افسح المجال للعنف للشباب للجريء».

• لي كوربوزيه Le Corbusier (الدليل المبدني لتخطيط المدن ـــ ١٩٢٥)

«الفن التزييني قد مات... تطور هائل مروّع قاس حرق الجسور التي تربطنا بالماضي».

• لويس صوليفان Louis Sullivan (الزخرفة في العمارة ـــ ١٨٩٢)

«سيكون عظيماً لجمالياتنا إذا امتنعنا عن استعمال الزخرفة لمدة سنوات، لأجل الأمل في أن يتركز تفكيرنا بشكل خاص على إنتاج أبنية جيدة الشكل، يستساغ عريها».

• هلتون كرامر Kramer (فخامة وبرود الفن الإسلامي ـــ ١٩٧٥)

«لبعضنا الذي يبحث عن شيء مُقارب لحمّام من الأحاسيس السارّة، يجدها في متحف المتروبوليتان ـــ الجناح الإسلامي. بصراحة، إنها غريبة جداً على تأملات ورهافة الحس الغربي. ربما سيبدو لنا الفن الإسلامي بمرور الزمن أقل غرابة مما هو عليه اليوم. بصراحة، أنا أشك في ذلك. هناك كثير من الفوارق الروحية الأساسية التي يجب التغلب عليها، إذ لا نجد فيه إلا حيزاً ضيقاً بالتأكيد لذاتية الخبرة المتألقة الواسعة التي تميز الخيال الغربي».

• ألبرت غليزيس Gleizes (رأي في التكعيبية ـــ ١٩١٣)

«هناك مُعامل تقليدي، يمكننا بواسطته تأكيد شرعية اكتشافاتنا: تحاشي اختزال اللوحة إلى قيمة من قيم الزخرفة في أسلوب الأرابسك أو السجاد الشرقي. بذلك نحصل على التنوّع اللانهائي الذي يكون محالاً بطريقة أخرى».

• وليم ديكوننغ Dekooning (ماذا يعني فن التجريد لي ـــ ١٩٥١)

«واحد من أكثر مظاهر فنون التجريد تأثيراً هو عريه. فن جُرّد حتى العري»

• توماس أرنولد Arnold (الرسم في الإسلام ـــ ١٩٢٨)

«الرسام كما يبدو يقضي ساعات في العمل ليضع العروق الدقيقة على ورق الشجرة. لا يبدو أنه خطر على باله تخصيص نفس السعي والتعب على سيماء شخصه الإنساني.. يظهر أنه راض عن تأثير جمال زخرفي حققه».

• نعوم غابو Naum Gabo وأنطوان بفسنر Antoine Pevsner (المبادئ الأساسية للبنائية ـــ

١٩٢٠)

«نحن نرفض الخط التزييني، نحن نريد من كل خط في العمل الفني أن يعمل ببطء من أجل تفسير نوازع القوى الكامنة داخل الإنسان كي ترتسم بجلاء».

هكذا نرى أن الغرب قد اعتمد على مسلسل تاريخي منتظم من المعتقدات المتهافتة المعتمدة على الأخلاقيات الروحية لكي يميز ويفضّل الحضارة الغربية على غيرها. ويجعل الفنونَ الجميلة في منزلة سامية والتزيينية واطئة. وقد انتقل هذا الإرث إلى الفنانين المحدثين. نرى بعضهم يُعرب عن رغبة في سلطة شخصية غير محدودة. جماليات الحداثة هي جنون الفنان بذاته، عنفه وفبركته للنقاوة وغلقه جميع الطرق الأخرى نحْو الحقيقة. إنها سلطوية احتكارية محكمة، وفكر وجماليات يؤكدان البقاء للأصلح والأقوى كما في (نظرية دارون). لقد استنتجنا من أقوال الفنانين والكتّاب التي أوردناها وغيرها أنهم استعملوا المفردات التالية عند الحديث عن «الفن الواطئ»:

دخيل، التزيين، وشم، زينة الوجه، الزخرفة، السجاد، المتعة، مصطنَع، العفن، الحياكة، عنصر زخرفي، قماش، المنزلية، الطبقات السفلى، الوحوش، الوثنيون، النساء، الحسية، العبثية، العجز، هرج ومرج، فلاحي، سلافي، فارسي، الاستشراق، إفريقي، إثارة جنسية.

بالمقابل استعملوا المفردات التالية عند الحديث عن «الفن الراقي»:

التطور، التقدم، الحرية، الإبداع، الحركية، العظمة، السمو، الروحانية، المسيحية، الدين، الطبيعة، العلم، ثقافة، حضارة، المنطق، النقاوة، الحقيقة، السلطة، الرجولة، الحرب، التعسف، العنف، الإغريق، الروم، الإنجليز، الإنسانية، جسم الإنسان، الرجل الفرد، التفرد، التفوق، الشكل الحقيقي.

لم يكن الغرض من اختيار هذه الأقوال تسفيه كتابها من فنانين ونقاد، لكننا نعتقد بأن قراءة ما كتبوه يجب أن تتم بروح نقدية، وإلا فإن تحيزهم سيمر على الناس، وخاصة عندما نرى أن هذا التحيز ما زال فعالاً في كتابات نقاد الفن في الغرب اليوم. يقول بيكاسو في تصريح حول الفنان كوجود سياسي ــ ١٩٤٥: «**لا توجد لوحة رُسمت لتُزين منزلاً. إنها أداة حرب لأجل الهجوم والدفاع ضد العدو**». علماً بأن بيكاسو اعتبر التزيينية عدواً أيضاً.

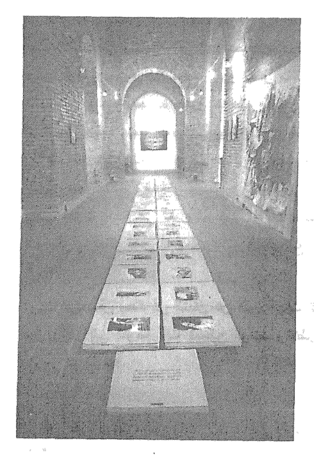
إن وضع علامات الاستفهام على الآراء التي قُبلت كحقيقة مُسلَّم بها في الغرب يعطينا أملاً نحن الفنانين، في التغيير والحل □

حوار مع الفنان علي عسّاف:

ما زال الطريق مفتوحاً لفهم التجارب الجديدة وتذوّقها

كامل شياع

قبل عشرين سنة، حين كانت حماسة (علي عسّاف) للتعبير بالرسم قد فترت إلى حدّ كبير، أجريت معه حوارا ظهر بعد سنوات في نشرة «الرابطة» التي كانت تصدر عن فرع (رابطة الكتاب والصحفيين والفنانين الديمقراطيين العراقيين) في إيطاليا. في ذلك الحوار أخبرني أنه لا يتوانى عن استخدام جميع المواد المتاحة، وأنه «يكتشف عبر البحث، ويبحث في الاكتشاف». أدركت حينها أنه اختط لنفسه مساراً يميّزه عن أقرانه الفنانين العراقيين في الخارج، وخمّنت أن بحثه واكتشافه يقودانه نحو لغة بصرية جديدة، لم أكن افقه منها، ولو بالحدس، شيئاً.



لقطة عامة للمعرض ــ [illegible]ما ٢٠٠٣

مرّت السنوات وأنا أتابع المنحى التجريبي لهذا الفنان يبسط نفسه في نقلات متتابعة من الاشتغال على الصّورة الفوتوغرافية إلى المواد الجاهزة، ومن العروض الحيّة والفيديو إلى الأعمال المركبة. لقد غدت سيرته الفنية شاهداً على حساسية معاصرة سواء بمصادرها وتأثراتها الثقافية، أو برؤيتها لماهية الفن ووظيفته.

بين حوارنا الأول في (ميلانو)، وحوارنا هذا الذي سبق معرضه الشخصي الأخير في (روما)، ثمة هاجس لا يفارق علي

عساف، هو هاجس العمل التشكيلي بوصفه حلقة اتصال وتواصل مع الجمهور. الأمر هنا يخص الروح المعاصرة للعمل، أي شرطه التاريخي والثقافي السريع التغير والشديد التناقض. والاستجابة لهذا الشرط، من زاوية نقدية، أعمق بكثير من اختلاف التقنيات وتنوع وسائل التعبير:

□ منذ عقدين من السنوات وأنت توظّف في أعمالك الفنّيّة تقنيات جديدة كالصور الفوتوغرافية والعمل المركّب والأداء الحي..، من خلال تجربتك هذه كيف تنظر إلى التغيرات الحاصلة في موضوع الفن وبتقنيات التعبير؟

● إن الفنّانين المعاصرين، وفي كل أنحاء العالم تقريباً، وبالأخص الشباب ذكوراً وإناثاً (إذ ازداد عدد النساء الفنانات بشكل ملحوظ في الآونة الأخيرة)، يعملون على تعميق فكرة إزالة الحدود الفاصلة بين مختلف الأجناس الفنية. وتلك فكرة بدأها الفنان (مارسيل دوشا) و(الدادائية) مروراً (بجوزيف بويز) و(مانزوني) و(حركة فلوكسس) و(الفن الفقير) وغيرها، ووجدت تجسيداتها في بينالة فينيسيا منذ السبعينات حتى يومنا هذا. إن الفنان المعاصر يجد نفسه على تماس مباشر ويومي مع الإنترنيت والفيديو والتلفزيون والموسيقى وما تعرضه الأسواق التجارية من سلع متطورة من كل صنف، إضافة إلى التنقّل والسفر. زخم المعلومات المتنوعة (سياسية، اجتماعية، علمية وتكنولوجية) الذي تحمله هذه الوسائط، يؤثر، بشكل أو بآخر، على رؤى هذا «الجيل» الفنيةِ والمعرفية، بدرجة تفوق بكثير ما كان يحصل في حالة الأجيال السابقة. بفضل هذه المعلومات والبيئة الجديدة تتبلور مواقف الفنانين المعاصرين، وهو ما ينعكس بالضرورة على مواضيع أعمالهم وتقنياتها، وكأني بهم يرددون مقولة «لا شيء يسمو على الحاضر». لا الماضي ولا المستقبل عادا يشغلان هؤلاء الفنانين. فمواضيع أعمالهم، في أغلبها، نقدية هجائية ذات طابع أدبي، ومنها اللاذع والساخر والذكي والمأساوي. وسواء تجلت هذه الأعمال في خلق فضاء أو حدث، كما هو الحال في العمل المركّب، أو الأداء الحيّ أو العمل المنفرد، فإنها تنطوي على روح نقدية لكل ما يعتقد الفنان أنه يعيق أو يغرقل الوضع الإنساني.

□ لم يستغن بحثك في الشكل عن اللوحة ذات المواصفات التقليدية، كيف تفسر لجوءك بين حين وآخر إلى اللوحة ذات السطح الواحد والإطار؟ السؤال يخص أساساً استخدامك للحرف والرمز في اللوحة.

● أعتبر لجوئي، من وقت لآخر، إلى اللوحة محطة استراحة في سفر مضن، واكتشافاً تطبيقياً، وليس نظرياً فقط، لأسباب ابتعادي عنها بعد فترة نسيان جزئي، واختباراً للإمكانية المتوفرة فيها للتعبير عن أفكاري المركبة والمتحولة باستمرار. إن حالتي معها كحالة زوجين مطلقين أو عشيقين مفترقين مازالا يكنان الودّ والاحترام لبعضهما رغم الطلاق أو فشل علاقة الحبّ. يمكن لأحدهما أن يلجأ إلى الآخر، في وقت من الأوقات، للقيام بسفرة سياحية لبضعة أيام

مثلا، وقد يأخذهما الحديث إلى الأسباب الخفيّة والعميقة التي أدت إلى افترافيما، وإلى إمكانية إعادة علاقتهما كما كانت في بدايتها، رغم تصدعها.

إن استخدامي للحرف (وتوخيا للدقة أقول الكلمة أو الجملة لأنني لست تشكيليا حروفياً) يتعلق فقط بإعادة كتابة أقوال لمفكرين وكتّاب وشعراء، أجد فيها تطابقا مع ما أؤمن به من افكار، واقتراباً من مواقف أميل إليها إزاء الحياة والمجتمع والفن.



علي عساف بفن أدائه الخاص

□ تعكس أعمالك حساسية خاصة لكل ما هو جديد ومتغير في وسائط التعبير الفني، هل تعتقد أن الإمكانية الوحيدة المتبقية للفنان التشكيلي المعاصر تنحصر في انفتاحه على فنون العرض والصورة؟ أقصد هنا مسألة اعتبار اللوحة التقليدية جزءا من ماضي الفن المودع في أرشيف مؤسسة المتحف أو المعروضة في الغاليريات لإشباع ذوق كلاسيكي وليس لإنتاج فن يقيم في عالم متناقض، ويتزامن مع كل ما هو متجدد فيه.

● هناك عدد محدود جدا من الفنانين في مختلف البلدان ممن ينتج فنّاً يتزامن مع عالمنا المتناقض والمتجدد عبر اللوحة التقليدية، ومنهم (محمود صبري) والأمريكي (دافيد سال) والبلجيكي (فرانسوا أوكتاف) إضافة إلى فنانين من السّنغال والصين وجنوب أفريقيا وغيرها. وهؤلاء الفنانين (وهنا أحصر حديثي على العقدين الأخيرين) تقدّم أعمالهم في العديد من التظاهرات المهمة في العالم جنباً إلى جنب المحاولات التجريبية في الفن التشكيلي غير الخاضعة لقواعد اللوحة التقليدية. وذلك ما تعكسه بينالات فينسيا، دوكومنتا في كاسل، وبينالات إسطنبول وداكار وليون وسيدني وشيكاغو. بعض هؤلاء الفنانين يبحث في المشاكل البصريّة والشكل مستعيناً بآخر التطورات العلمية والتكنولوجية، وبعضهم الآخر يبحث في المشاكل الوجودية والاجتماعية الآنية والمستجدة. وكلاهما قد يحوّر شيئاً من قواعد اللوحة المتعارف عليها منذ عصر النهضة الإيطالية إلى التكعيبية، أو يضيف إليها أو يلغي منها. وراء ذلك البحث الذي لا ينقطع دافع أساسي هو إيصال أفكارهم بطريقة أفضل. رغم ذلك فإنهم بقوا مخلصين للعديد من قواعد اللوحة. وأعتقد أن لبعضهم القدرة على التأثير في المشاهد الجادّ المعني بالشأن الفني

والثقافي، وليس المشاهد الذي يلاحق الموضة والصرعات المتغيرة باستمرار. وهذا هو المهم، أمّا اختلاف التقنيات ووسائل التعبير فقضية ثانوية. إن لفنانين كهؤلاء مكانة معترف بها في تاريخ الفن المعاصر، جنباً إلى جنب العديد مع نظرائهم ممن قدموا إبداعا متميزا باستخدام الفيديو أو الفوتوغراف أو الأشياء الجاهزة والأعمال المركبة.

□ كيف تردّ على من يقول بأن التجارب الفنية المعاصرة التي تعمل في سياقها تتعارض مع جوهر الفن، لأنها تبحث في الشكل، وأحياناً تلعب به، حد العبث، إرضاء لغايات شكلية بحتة، وضمن سياسة محددة للعرض؟

● ليس هناك عبث على الإطلاق في أشكال أعمالي. ما هو جوهر الفنّ عند من يقول إن التجارب الفنيّة التي أعمل في سياقها تتعارض مع جوهر الفن؟. إن جوهر الفن هو شيء نسبي يختلف معناه وتفسيره باختلاف الأمكنة والأزمنة. ثمّ ألم يتنوع تاريخ الفن التشكيلي في مسيرة الإنسانية نتيجة البحث والتأمل المتواصلين لابتكار أشكال جديدة. هل إن الاختلاف والابتعاد عن حلقات المتحزبين أو المتدينين أو المتعصبين، والابتعاد عن جمهور المستهلكين وهواة الموضات العابرة تعتبر جريمة بحقّ الإنسانية كجريمة إشعال حرب مثلاً؟ دعنا نذكر، دون تفكير طويل أسماء نخبة من الفنانين والأدباء كبيكاسو وموندريان وجواد سليم وجاكوميتي وفيلليني ومحمود صبري وأندريه بريتون وكافكا وستانلي كوبريك وبازوليني وبرخت. هؤلاء جميعاً قد ابتكروا أشكالاً إبداعية مميزة وجديدة ومختلفة عن الأشكال التي كان يعمل عليها معاصروهم. وهي أشكال لم تنشأ عبثاً، وإنما كنتيجة حتمية ومنطقية لظروف موضوعية وذاتية أحاطت بهم.

□ تتصف الاتجاهات الفنية التي تعمل ضمنها بتقديم ترجمات بصرية غير مباشرة (بحكم الوسائط الشيئية والتكنولوجية) لما يدور في ذهن الفنان من أفكار وتأملات. ما هي طبيعة العلاقة بين الفكرة والأسلوب في تجربتك؟ هل تنفصل فكرة العمل عن تقنية تنفيذه أم أنهما متلازمتان منذ البداية؟

● عندي لا تنفصل فكرة العمل عن تقنية تنفيذه، لأنهما متلازمتان بالضرورة. فلكل فكرة أكثر من تقنية واحدة لتنفيذها. ويجب عليّ أن أختار التقنية الأصوب للفكرة التي أشتغل عليها، تماماً كما يفعل الرسّام قبل شروعه في رسم لوحة مهمة (غورنيكا مثلاً) في تحضير المسودات (الاسكيتشات) واختيار الأجزاء الأفضل منها لتنفيذها على قماشة الرسم. قد أنجح هنا، أو أخفق هناك، لكن هذه هي المتعة الكبرى والعذاب اللذيذ، بالنسبة لي. في بعض الأحيان تومض فكرة ما في ذهني، بعد تراكم عاطفي وحسّي إزاء موضوع معين تمليه عليّ الأحداث المعاصرة، ومن ثمّ تأتي تقنية تنفيذه. وهنا ابدأ بالتفكير والسؤال وجمع المعلومات والبحث في ما قررته من صلاحية مادة بعينها دون أخرى. ويمكن أن يحدث العكس في بعض الأحيان، إذ يصّدف أن أجد مادة

تغريني وتحفز ذهني على تنفيذ فكرة ما بالاستعانة بها. إن البحث الدائم عن أفضل الطرق لتنفيذ عمل جديد من أعمالي، هو تحفيز للذهن والبدن، وإضافة للمعرفة المكتسبة.

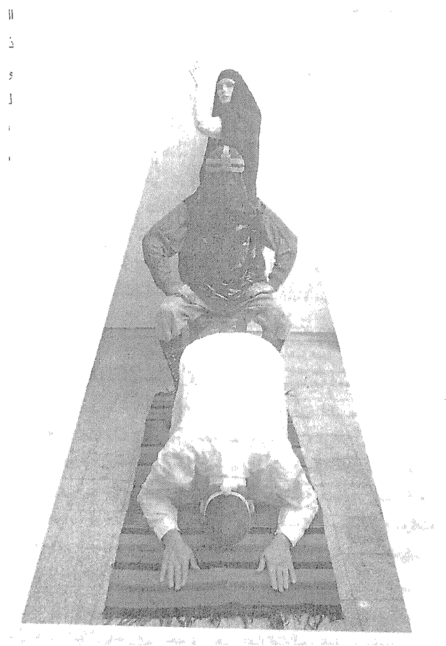
□ تخاطب أعمالك عادة جمهوراً غربياً، هل تتخيل صعوبة ما في استجابة الجمهور العربي لأعمالك نظراً لتباين الخلفية الثقافية والاجتماعية. ماذا عن الجمهور الشاب الذي هو أقرب بحكم الواقع إلى نمط الحياة المعاصرة؟

● لا أستطيع البتّ حالياً فيما إذا كانت هناك صعوبة في استجابة الجمهور العربي لأعمالي، إذ أنني لم أقم، حتى الآن، أيّ معرض فردي في البلدان العربية. لكن تجربتي في المعارض الجماعية التي شاركت فيها، كتلك التي نظّمت في دمشق والجزائر والقاهرة وبيروت، قد أثبتت أن هناك استجابة ما. ففي دمشق عام ١٩٨٢ قدّمت عملين كبيري الحجم، الأول يتكوّن من عشر صور فوتوغرافية بالأبيض والأسود ألصقتها على شرشف أبيض بعد أن محوت أجزاء منها، ولوّنت أجزاء أخرى صغيرة. أما العمل الثاني فكان عبارة عن قطعتين، الأولى غطتها صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود، والثانية احتلتها صورة مكبّرة لمقطع من قاموس المورد. وقد تمّ إلصاق القطعتين على لوح خشبي، وتغطيتهما بلاصق شفاف أصفر اللون. هذان العملان اللذان كانا من باكورة أعمالي المتخطية للوحة التقليدية، استطاعا أن يجذبا انتباه مجموعة من زوار المعرض السوريين الشباب الذين لم يخفوا إعجابهم بهما. ربما أعجبهم موضوعهما السياسي!! أما المناسبة الثانية فكانت مشاركتي في بينالة مدينة الجزائر عام ١٩٨٩، وقدمت فيها عملين صغيري الحجم من الأشياء الجاهزة (Ready made) منفذة بمواد رقيقة: قدح من الزجاج، ومطبوعات على ورق خفيف ملصقة على ورق قديم نسبياً. وقد رشّح العملان للجائزة الأولى، لكن عضويتي في لجنة التحكيم في البينالة منعتني من الحصول عليها. وقد حصل عليها فنان جزائري شاب قدّم عملاً مركباً كبير الحجم من مواد مختلفة، رافقه فن أداء طقوسي. عُرض العمل على امتداد ممرّ طويل وعريض، وكان على الجمهور أن يمرّ به للوصول إلى القاعة الأساسية حيث توزعت بقية اللوحات والتماثيل المشاركة. الجمهور المتحرك عبر العمل كان، في الحقيقة، جزءاً منه. وقد لاحظت أن هذا العمل استثار فضول الجمهور، أكثر من غالبية الأعمال الأخرى. لجنة التحكيم المتخصصة اتفقت على منحه الجائزة، بعد ترشيحي له ودفاعي عنه.

وفي القاهرة عام ١٩٩٥ وجّه لي غاليري المشربيّة دعوة للمشاركة في معرض عن الفانيلات فقط... قدّمت فيه أربعة أعمال ذات أشكال اختزالية تحتوي على عبارات لبورخس وشاتوبريان وآخرين. بعد الافتتاح كتبت لي صاحبة الغاليري بأن الجمهور والصحافة اهتمّا بفكرة المعرض، وأن أحد مصانع الأقصر المتخصصة بصناعة وتسويق الفانيلات كان راغباً بطباعة أعمالي وعرضها للبيع. إلا أن الأحداث الدموية التي جرت في الأقصر إثر هجوم مجموعة من الأصوليين على حافلة سياحية، حالت دون تحقيق تلك الفكرة، فقد انتكست حركة السياحة بشدة بعد ذلك الحادث.

أخيراً، في معرض «الفن التشكيلي العربي في القرن العشرين» الذي استضافته مدينة بيروت عام ١٩٩٩ عرضت عملا واحدا مركباً يتكوّن من كتابة (معطيات إحصائية عن النمو السكاني) بالطباشير على سبّورة سوداء واسعة وطويلة وضعت على الأرض، وأمامها حدود لمربع من الشريط اللاصق أحمر اللون. بعض الأصدقاء الفنانين المشاركين في ذلك المعرض والحاضرين فيه، ذكروا لي بأن عملي لفت انتباه الجمهور. وأبلغني صديق آخر أن صحيفة لبنانية تصدر باللغة الإنكليزية قد نشرت مقالاً عن المعرض، توقف عند عملي وأشاد به.

أعتقد أن هذه الأمثلة واضحة وكافية إلى حدّ ما للتعويل على مناسبات قادمة للعرض في البلدان العربية، والطريق مازال مفتوحاً أمام التجارب التشكيلية الجديدة لفهمها وتذوقها والتفكير فيها. وينبغي ألاّ ننسى أن العقد الأخير من السنوات شهد تزايد عدد التشكيليين العرب الذين يعملون بالأساليب والتقنيات التي أشتغل عليها، خاصة في القاهرة وبيروت والإمارات العربية وشمال أفريقيا (تونس والمغرب). أذكر على سبيل المثال لا الحصر، استضافة بينالة القاهرة لرائد الفنّ المفاهيمي جوزيف كوسث، ومنى حاطوم (التي نظّم لها معرض كبير في بيروت)، والإيطالي فابريتسيو بليسّي، أحد رواد النحت بالفيديو، ومنح عباس عبد الكاظم جائزة على عمله المركّب.



أقدام من رمل ١٩٩٦

أضف إلى ذلك ظهور مقالات، قد تتزايد مع مرور الزمن، في الصحف والمجلات العربية والكرّاسات الفنية بأقلام عربية أو مترجمة تتحدث عن الفن المفاهيمي وحركة فلوكسس وفن الفيديو وما شاكلها. وهذا سيساعد، بالتأكيد على خلق حالة استجابة أوسع وتذوق أعمق من قبل الجمهور، وخاصة جيل الشباب. وأظن أن عدده سيزداد، ولو ببطء، كما حصل لحركة الشّعر الحرّ في البلدان العربية.

□ يسير عالم اليوم باتجاه التوحد أو العولمة على مستوى الاقتصاد وأنماط الحياة والذوق، لكنه أيضا يطرح تناقضات حادة على المستويات الاجتماعية والثقافية. وفي الحالتين يبدو أنه لا يهتدي بنموذج تحرري إنساني كما كان متصورا، بل إنه يبدو، رغم مظاهره الإيجابية، دون مُثل شاملة. كيف ترى دورك كفنان في سياق الحداثة المتأخرة القائمة على تسطيح المعاني والقيم وانتزاع بعدها النقدي وتحويلها إلى بضاعة في سوق كبيرة؟

● إن دوري كتشكيلي في سياق الحداثة المتأخرة هو التأكيد على البعد النقدي للإفرازات السلبية للعولمة. فبقدر ما تتيحه لي التجربة الحياتية، أقوم برصد وتسجيل تناقضاتها الحادة على المستويات الاجتماعية والثقافية. هناك مهمة أخلاقية للفنان المعاصر في عدم الرضوخ لتسطيح المعاني والقيم. وهناك عدد لا بأس به من الفنانين من مختلف بلدان العالم، وبالأخص من الشباب، يعي هذه المهمة، ويلتزم بها.

إن عالم اليوم قد غيّر، ومازال يغير، الكثير من سلوكيات النّاس ومُثلهم. وهذه عملية تجري بسرعة مذهلة، لم يسبق لها مثيل، سرعة «دوختني» وجعلتني أقدم نتاجا لا يدعو إلى الحنين للماضي. أنا على يقين أن التاريخ لا يرجع إلى الوراء، وأن الأمور، شئت أم أبيت، لا تعود إلى ما كانت عليه سابقاً. لكن نتاجي لا يستشرف المستقبل لأنني كائن متشائم بعض الشيء، مع أنني أفضّل أن أصف نفسي واقعياً.

إن سؤالك هذا يدفعني إلى تذكر حكاية عن بيكاسو قرأتها مرة، وهي أن مجموعة من أصدقائه المقربين من الفنانين والشعراء زاروه في بيته بباريس أيام الاحتلال النازي لها. كان يبدو عليهم القلق الشديد من الأحداث الجارية، فسألوه: ما العمل؟ أجابهم: علينا أن ننتج. وهذا ما فعلوه، والتاريخ حفظ لنا ما أنتجوه □

الفرشاة.. الجواهري.. الأرق

[خواطر فنية](*)

فلاح الجواهري

ثُمّ هذه السلوى العجيبة، فرشاة، علبة ألوان صغيرة، وورق. بها تحمل مشاعرك وانطباعاتك، رؤاك وأحلامك وشوقك وحنينك. تحمل بها الحب والتجربة والانبهار، بل وحتى الإحباط والكآبة. تعبر من خلالها ليل النجوم واحتراق «فحمة الديجور» والضوء المنتشر الذي لا حدود له والظلال المتحركة، خضرة الوادي وزرقة البحر التي تلتمع وتكبو وتغمق وتشف بمر الثواني. ترجع بك إلى شاشة غير مرسومة الحدود تظهر عليها تفاصيل ذكرياتك براقة متفجرة الألوان حيناً، ضبابية غامضة عسيرة الوضوح حيناً آخر. تقرّب منك الأبعاد التي تلاشت والهيئات والفضاءات والجُذُر، الواحة والصحراء والنهر المتدفق، الجدول والطين والأرض المتيبسة المتشققة، سعف النخل المنتشر الهفهاف المسحور كشعور السعالى في الليل، وذو الحزن الأزلي المتوحد في لفح الظهيرة. ترتقي بها جبال الشمال الملونة المترامية السلاسل في بنفسج الغسق والغروب حتى لتخالها تمتد إلى الأبدية الغامضة. تحمل بها الوطن، تستحضره متى ما أمضك الشوق وأنهكتك الغربة، تنير بها عتمة الشمال الاسكندنافي الطويلة وتلهب جليده.

كم كانت لك البديل حتى عن أسرة الردهات الصامتة وعقاقير الاكتئاب المرة. كانت الحبل الذي تتسلقه خارجاً من عتمة الإحباط إلى نور الأمل.

وهناك وأنت تحمل متاعك وهمومك، وبين فواصل تعب التجوال والضياع، حين تُلقي بعصا ترحالك في استراحة بين المتاهات، تجد ركناً تضع فيه حاملتك الخشبية وألوانك وفرشك ولفة من قماش الكتان وصفحات وسيعة من الورق ورزماً من الكتب وبعضاً من أشرطة الموسيقى، تكتشف فجأة أنك ابتنيت وطناً صغيراً، تستعيض به ولو إلى حين عن الوطن الكبير المتنائي.

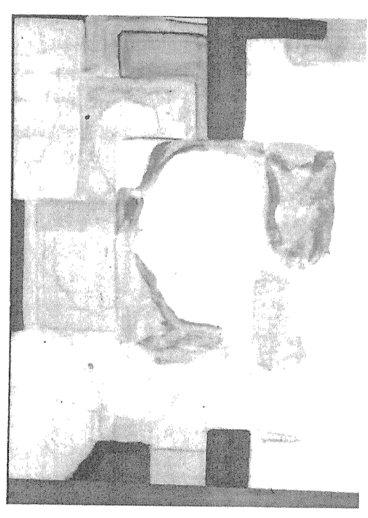
(*) كتب الفنان فلاح الجواهري هذه الخواطر على هامش معرضه الأخير في ديوان الكوفة في لندن أيار ٢٠٠٣ والذي حمل عنوان «مرحباً يا أيها الأرقُ» مستعاراً من شعر الجواهري الأب.

هاأنت قد تجاوزت منتصف عقدك السابع وما زلت عند مفترق الطرقات.

* * *

هلْ أنت الذي تتبع الضباب أم أنه هو الذي يتبعك؟ هاهي أحزمة منه تقترب منك متوجسة، شاحبة، حذرة، تنزلق فوقها أحزمة أخرى باتجاه مغاير. هاهي حواشي أوشحتها تنسحب فوق سطح التربة الندية التي تبين حينا بقعاً وأخاديد وكتلا، ثم تتوارى بعد لحظة لتظهر في مكان آخر.

ترتفع الأبخرة المتماوجة في بقعة مجاورة مذكّرة بغيمات الدخان المتصاعد من مواقد الحطب المشتعل بين أكواخ قرى الجنوب عند الفجر. أشباح عجيبة ملونة تطل متحركة من خلال كوى نصف شفافة في الأبخرة المتصاعدة، تتبدل هيئاتها وكثافتها دون انقطاع.. إنها أشباح الغابة البعيدة «حين تتحرك الغابة..» تسير لتلحق الأحزمة الشفافة وكوى الألوان المتحركة التي تعاود الظهور هنا وهناك. تهرب الأحزمة وتتلاشى الألوان والهيئات وتجد نفسك ملفوفاً في متاهة زجاجية متماوجة..



فرّ ليلي من يد الظَّلَم وتخطـاني ولم أنمِ

تواصل سيرك دون هدف مرئي. تحس أنك قد صعدت سطحاً ليناً، وهاأنت تنحدر فوق أحجار مبلولة، ثم لتميز أنك تخوّض في جدول يمتزج خريره بحفيف أشجار تتقارب.. تخال أن للضباب همساً، تغوص في الوحل بمتعة وتصرّ على متابعة مسيرتك كطفل عنود، فتتخطى سياج الأسلاك الشائكة المديد بين حدود المزارع، فتنهب مساميرها أجزاءً من ثيابك وتُدمي ذراعيك وساقيك، ولتكتشف، بعد سير في المجاهل، أنك مطوّق، لا بأحزمة الضباب وحدها، بل بجذوع السنديان العتيق الضخمة، وأن خيمات وسيعة من أغصان الصنوبر تهفّ فوق رأسك، وأن الألوان قد ازدادت كثافتها تماماً كما ازدادت روائح لحاء جذوع الأشجار العتيقة وإبر الصنوبر والعفص والأعشاب الندية.

يتصاعد الفضول من ذلك الغموض الذي يلفك ممزوجا بخوف غريزي من المجهول والظلمة.. ما الذي يختبئ وراء هذه الظلال المزدحمة وأمواج الضباب المبحر في اتجاهات ومستويات متفاوتة؟ ما زال العديد من أحزمته يتهادى أمامك بإغراء وغنج منسرباً بين الجذوع، مغرياً إياك باللحاق.. غوانٍ رقيقة شفافة مسحورة تجرك إلى المجهول فتتبع مأخوذاً. وتعبق من جديد رائحة العفص والصنوبر الندي المذاب بعطر الأرض المبقّعة بالكتل الهشة من التربة، المنتفخة بالطحالب والأشنيات وكأنها بثور آن لها أن تتفقع.

هاأنت تنحني متأملاً بثرة أرضية قد انفجرت في زمن ما، فاغرةً كوة عاتمة في التربة تمتلئ بخليط عجيب من إبر الصنوبر العتيقة المتيبسة وقطع صغيرة من لحاء متنخر وبقايا هلامية مخضرّة لفطر الثعلب الهرم.

تنحني فتغرف بكفك من مزيج هذا الدورق الترابي وتقرّبه إلى أنفك وتستنشق عبقه ملء رئتيك. تواصل رحلة السندباد في هذا البحر الشفاف.

وفجأة تخترق الأحزمة الضبابية السابحة أمامك، أصابع ساحرات مستدقة ومتشعبة يمتد بعضها تجاهك في حين ترتفع أخرى ممشطة شعوراً كثة خضراء متشابكة، بجدائل معثكلة ملفوفة بشباك من خيوط العناكب. تزيحها مبتسماً لدعابة الساحرات الطفولية الهادفة إلى استثارة خوفك الغريزي الكامن. تحني رأسك ماراً فتحس بالأصابع المستدقة تمشط شعرك بخشونة وتسمع تكسّر بعض هذه الأطراف القصية. تزيح البعض الآخر بحذر ورقة وأنت تواصل خطواتك وكأنك تخشى أن تؤذيهن مفسداً دعابتهن بكسر أنامل أخرى، رغم أنك تسمع وتحس صرير حطام أطراف أخرى تساقطت بأزمان متباعدة، متراكمة، كحصيرة إسفنجية تحت قدميك. وفجأة، وكما تنزاح ستارة مسرح بأناة وبطء وصمت، تتباعد الأبخرة وتشف وينساب ضوء متكسر بين حزم كثيفة خضراء.. تخطو بضعة أمتار تجاه منبع الضوء، وفجأة ينبلج أفق رحيب لماع الخضرة تنزلق فوقه بقع النور الصفراء البراقة التي تبدل بانسياب سريع هادئ أماكنها، تاركة أماكنها، تاركة بين مجالات مرورها، أخاديد زرقاء وبنفسجية وخضراء عاتمة.

تعود من رحلتك تلك عند حلول المساء. تفتح باب وطنك الصغير، فتقابلك بحفاوة رائحة زيت الكتان الطرية المذوّبة بمزيج محاليل المذيبات التي تذكرك برائحة علكة المستكي. تزيح من على سطح اللوح الخشبي الواسع، علب الأصباغ وأنابيب الألوان، والفرش، وسكاكين المزج المعدنية الرقيقة، وصحوناً، وقطع زجاج، وأواني فخارية تستخدمها بديلاً عن لوح خلط الألوان.. تفسح مجالاً لصفحة ورق خشنة الملمس مدغمة البياض وتضع علبة الألوان المائية الصغيرة وكوباً من الماء، وتستل فرشاة ناعمة تبلها وترطب بها حدقات الألوان، وتبدأ معها سياحة فوق سطح الورق.

تبدأ الصفحة بالاتساع وتترامى أبعاد حواشيها.. تبحر من جديد في متاهة أحزمة الضباب.. تتمايز وتتوضح معالم جذوع السنديان الضخمة وخيمة أغصان الصنوبر الهفهافة وينفغر ثغر

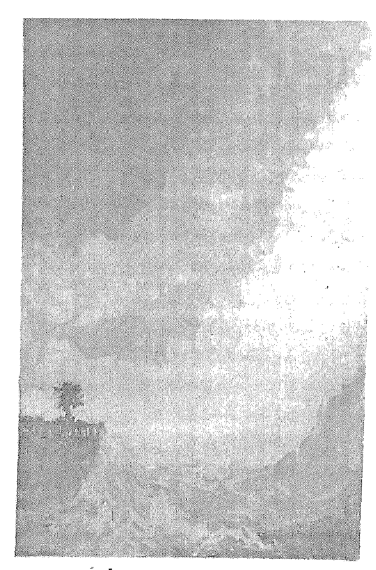
ذلك الدورق العجيب من بثور تربة الغابة والذي انفقع منذ أزمان ويتراكم ذلك الخليط المتقادم من جديد.

تفوح من الغرفة الصغيرة روائح رحم الغابة المظلم فتشم من جديد ذلك الخليط من العفص وإبر الصنوبر الندية وبثور التربة المنتفخة بالطحالب والأشنيات وقطع اللحاء العتيق المنخور وبقايا فطر الثعلب الهرم.

تغص حنجرتك بغرغرة مكبوتة، تندى عيناك، تتصاعد حسرة مسموعة إلى شفتيك. تهرع إلى باب الغرفة تفتحه على عجل، وقبل أن تضع قدمك خارجه، تدفع رأسك إلى السماء مطالباً، لا سائلاً، فسحة قصيرة أخرى من العمر.

* * *

اليوم الثالث ولا يزال نديف «الثلج الأسود» يهبط متواصلا دون انقطاع ورحمة. تقترب بوجل لتطل من النافذة، فتتراءى الشوارع المقفرة التي انمسحت واختفت خطوطها ومعالمها. وهنا وهناك تدور دوّامات بيضاء، صافرة وهي ترفع في لفائفها آخر أوراق الخريف.



وتلم في الأسحار عنقود النجوم إذا تدلّى

تنحسر، ثم تبين، ثم تغيب تماما تعرجات الأزقة الجانبية وأشباح من بقع الجدران المواجهة. تختض وتسري قشعريرة برد رغم أنك تكاد تتعرق من لفح صفائح التدفئة المشعة.. فزعٌ ورهبة.. هذا هو الجحيم!! النار ذات الشعلة الزاهية بالألوان، بحرارتها، بتراقص اللهب المرح الزاهي النور، قبس الحياة.

الثلج اللالون، البياض المقفر، البرد عنوان انطفاء الحياة.. الثلج هو الموت.. الثلج هو الجحيم.

من بعيد وبغصة ألم تطفو إلى سطح الذاكرة التماعات ذلك الضوء الدافئ المنهمر بسخاء من كل نوافذ السماء المشرعة. تحن إلى لهب شمس تموز وإلى نسمة الفيء الندية في غابات النخيل. تعود إلى مياه «نهر الكوفة» الذهبية إلى البواسق الشامخة، إلى حصيرة الظلال والنور. بين تلك الجذوع الفارهة إلى «أم الذهب» بستان الشيخ الكريم، أريحي القلب والخلق (باقر الجواهري)، إلى عبثنا صبية وصبايا على ضفافه الغرينية عند حواشي البستان. تتحرك الهوينا تجاه طاولتك الوسيعة المهملة، المفروشة بعلب الألوان التي كادت تجف من الهجران الطويل. تقف بخشية قبل أن تفتح أرجل الحاملة الخشبية وتضع عليها لوحاً عريضاً.

تفوح من جديد رائحة زيت الكتان الزكية. تتلامع كتل الألوان الطرية فوق تراكمات وبقع لونية متيبسة قديمة، تمازجت حواشيها المغبرة فوق صفيحة الخلط.

تُغمد مجموعة مختلفة السطوح من الفرش في قبضتك اليسرى.

.. شيئاً فشيئاً تبين وتتوضع وتتسامق جذوع النخيل. ينغلق الشط الذهبي المتلامع بأمواجه حول الجزيرة المفيئة بخيمة السعف المفروش.. تفوح رائحة الطلع.

تسبح في تيار من الماء والبهجة والنور يتدفق متواصلاً من حاشية كبيرة في اللوح العريض. تمتلئ حنجرتك بغصة. يتغرغر صوتك بحسرة متصاعدة. تهرع إلى باب الشرفة، تفتحها فتقتحمك الريح الباردة. تخرج فارعاً صدرك متحدياً زوبعة الجحيم الأبيض.. يغمر الدفء كلَّ أعماقك. ترفع وجهك صوب السماء المغلقة بالنديف وتصرخ مطالباً، لا سائلاً، فسحة قصيرة أخرى من العمر.

لقد أسرى بي الأجلُ وطول مسيرة ملَلُ
وطول مسيرةٍ من دون غايٍ مطمحٌ خجِلُ

هاأنت تذرع بخطاك، وعلى غير هدى، أزقة ودروب «مدينة النور».. لا ترى «النور». وتتحجب عن أبصارك القباب الذهبية، وأطواق الجسور الفارهة. وتمرّ دون أن تلحظ أو تسمع التفاف العشاق على بعضهم وهمسهم المحموم وهم ينزوون في أركان نصف مظلمة من أرصفة ضفاف «السين».

تمرّ دون اكتراث بتلك الكنيسة القوطية الشهيرة غير عابئ، لا بأبراجها وأجراسها، ولا ملائكتها اللائذين في حمى جدرانها المزخرفة، حتى ولا بشياطينها، بألسنتهم المدلوقة، وهم يجحظون من علٍ بأحداقهم الحجرية الوسيعة مادّين بأجسامهم مطلّين ومتحفزين للقفز من أعمدتهم على أفواج السواح المارين بصخب مرح تحت عرائش حدائقها الجانبية.

تظل تتسكع دون أن تنتبه إلى أن قرص الشمس الملتهب بالأرجوان، قد اختلطت ألوانه ببريق قبة ضريح «نابليون» لتخترقها بخشوع، وربما لتنام تحت رخام قبره عارية بعد أن تركت أوشحتها البنفسجية الزرقاء، تسبح في الفضاء المحيط بالقبة الذهبية.. تهبط الظلمة فتواصل ضياعك في الأزقة الملتوية. الليل طويل منهك.

تعود، متعباً، محبطاً، خائباً، إلى غرفتك الصغيرة. تستعد لليلة أرق أخرى!

«تفرش أحداقك» فتمرّ منصات الليل عبر محاجر زجاج النافذة العاتمة. تتخطاك دون أن تنطبق عيناك، تنهض عند الفجر، تنصب خيمة قماشك فوق الحاملة الخشبية. تعامل مساحاتها بانفعال وتوتر. لا تحس بمسالك الضوء الكابي الخجل، ولا بحُزم النور بعده، وهي تتسلل، ثم تخترق بعناد زجاج النافذة.

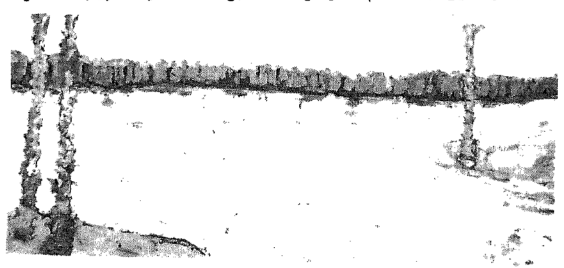
تتوقف لحظة وتنظر.. تتملى بإمعان المساحة التي كانت قماشاً. هاأنت أمام (الجواهري) في تسعينياته فارشا حدقتيه الوسيعتين عبر منصات الليل العابرة.. تسمع هديله الشجي الحزين:

«فرَّ ليلي من يدِ الظُلَمِ

وتخطـــاني ولـــم أنَمِ»

هاأنت تراه بعد سنين من النأي، تحسه كأقرب ما يكون القرب، بكبريائه ورقته وحزنه الكامن العميق.. هاهو يرغب في مسامرتك أنت، لا الليل الأبدي الموحش.. يركن إليك بعد تعب السهاد الممض عبر مسيرته الطويلة في بحار الظلمات.. أيها الحبيب! كم حطام سفينة ركبت؟! كم شراعٍ مزّقت كي تصل إليّ؟

يتدفق الشوق. يتصاعد ألم ممض مرّ. تأخذ حنجرتك غصة عنيفة. تسيل بصمت دموعك.



الفرات الذهبي

يتغرغر صوتك بالحسرة المتصاعدة. تسرع لتفتح ظلفتي الشباك. ترفع وجهك إلى السماء وأنت تنشج كرجل عزّ طويلاً عليه البكاء، متسائلاً.. □

لندن ٢٠٠٣/٥/٢٦

علوكي

سلام عبود

صيف عام ١٩٦٢

اليوم هو الخميس. كم أحب أيام الخميس! فهي تأتي قبل يوم العطلة الأسبوعية. لكن هذا الخميس أحبها إلى قلبي على الإطلاق، فهو اليوم الأخير قبل عطلة الصيف.

انحنت أمي وشدت رباط حذائي بقوة، ثم عدلت ياقة قميصي وقبلتني وهي تهمس:

ـ ناجح، بجاه الحبيب محمد، بجاه الزهرة أم الحسين!

أنا أعرف أنني ناجح. اليوم ستوزع علينا الشهادات، ولست خائفاً، فأنا واثق من أنني لن أحصل على أية درجة تحتها خط أحمر. لكنني رغم ذلك أحس بأنني لست على ما يرام. شيء ما لا أفهمه يجعلني أشعر كما لو أنني... لا أعرف بالضبط... ربما لأنها المرة الثانية في حياتي التي أحصل فيها على شهادة مدرسية. في السنة القادمة، حينما سأكون في الصف الثالث الابتدائي، لن أكون قلقاً كما هي الحال الآن. نعم أنا قلقان. أمي تعرف ذلك، لكنها ربما قلقة مثلي. أما عمي (علّوكي) فقد ظل واقفاً بباب البيت، مستنداً على الجزء المفتوح من الباب، ينظر خلسة من بين ثنايا ستارة الباب الخارجي «البردة»، ويتظاهر بعدم الاهتمام، لكنه في حقيقة الأمر كان مشغولاً وقلقاً أكثر مني، فهو لفرط اهتمامه قرر أن يرافقني إلى المدرسة، وينتظرني حتى استلامي للشهادة. نظرت إلى عمي علّوكي فأدار وجهه ناحية الزقاق.

ـ عمو علّوكي يريد أن يروح معي إلى المدرسة.

ـ ماذا؟ تخبلت! ماذا يعمل علوكي أفندي معك في المدرسة؟ ردت أمي بغضب.

ـ يمّه، الله يخليك، اليوم ما عندنا دروس، نأخذ الشهادة ونرجع للبيت، يعني ساعة، يمكن نصف ساعة.

ـ حتى إذا كانت دقيقة. وأبوك، لو عرف؟

ـ يمّه! فدوه لك! لن يعرف. والله العظيم لن نتأخر! المعلم (زهرون) قال لن نتأخر، نأخذ الشهادة ونرجع للبيت.

ــ لا.

ــ واللهِ واللهِ، المعلم (زهرون) لا يكذب، أنت تعرفين أنه صبّي، وليس مسلما، يعني ما يكذب، ساعة ونرجع.

ــ ما هذه التربية الزفرة، (ضوية)! صبّي ومسلم! صاحت عمتي (كاملة) وهي تقف قرب المطبخ، ثم أضافت: ما يخالف، خليهم يروحون يا أختي، المدرسة ليست بعيدة، وهما اعتادا أن يذهبا معاً حتى أبعد من المدرسة.

ــ ليس هذا القصد يا (كاملة)، القصد إذا دخل هذا للمدرسة ماذا يعمل ذاك ببابها؟ هذا قصدي.

رغم أن تدخل عمتي شجع عمي علوكي، وجعله يرفع رأسه لثوان وينظر إلينا بشيء من الأمل، إلا أنه ظل يتظاهر بالنظر إلى الخارج، كما لو أنه يقول لنا بأنه سيذهب في كل الأحوال. ورغم ذلك لم يكن وجهه يحمل شيئاً من التحدي. كانت تعابيره أقرب إلى التوسل والاستعطاف، لذلك قالت أمي:

ــ زين، ارجعوا بسرعة.

من مكانه البعيد، ومن دون أن يكون قد سمع ما قالته أمي، انفرجت ملامح علوكي الصخرية القاسية عن ابتسامة عجيبة، لم يكن بمقدور أحد غيري رؤيتها وهي تختفي تحت طبقات اللحم الحجري، الذي يكون تقاطيع وجهه: شفتاه الغليظتان، وحواجبه الكثيفة، وعيناه السوداوان الغائرتان. لم ينتظر عمي علوكي أمي كي تكمل كلامها، بل جرى مسرعا وقبّل يدها، فجرّت يدها وهي تبتسم وتقول لعمتي:

ــ والله ما أعرف من فيهما الطفل!

لم يسمع عمي علوكي تعليق أمي، ولم يكن معنياً بسماعه، فقد جرني من يدي بقوته الخارقة، وراح يسير إلى جواري، وهو ينظر إليّ نظرة المنتصر. نعم المنتصر. فقد فاز بالرهان. لأنني أصررت يوم أمس على القول بأن أمي لن تسمح له بالذهاب معي إلى المدرسة، أما هو فكان يقول العكس. وكان مصرّاً على المجيء، ومصراً على أنني سأفشل في الامتحان. طبعاً هو لا يتمنى لي ذلك، ربما هو خائف من أنني لنْ أنجح فيتّهم بأنه هو الذي يلهيني عن الدراسة، لذلك كان يغالب خوفه بالعناد. كان يناكدني طوال الوقت مدعياً بأنه أول من سيعرف بأمر سقوطي في شهادة نهاية العام، وأنني لن أحصل على هدية النجاح التي وعدني بها أبي، وأنه غير محتاج إلى تقاسمها معي لو نجحت، لأنه متأكد من أنني لن أنجح. سبب آخر يدعوه للإصرار على فشلي هو طمعه في الهدية. فالنقود التي وعدني بها أبي سيتقاسمها معي مناصفة، إن لم يكن سيستولي على أغلبها، وحتى لو اشترى لي أبي لعبة فإنها ستكون من نصيبه. لذلك فإن طمعه وحرصه على الفوز بأكبر حصة من هدية النجاح هو الذي يجعله يصر على

مناكدتي. كان عمي علوكي خائفاً أكثر مني من عواقب الفشل.

نظرت في وجهه وابتسمت فانطفأت فجأة ابتسامته الخفية، كما لو أنه خشي أن أفضح فرحه. طفرنا معاً ساقية المجاري المفتوحة، التي تسير بمحاذاة الشارع، واتجهنا صوب الجسر، حيث تقع المدرسة في نهاية الشارع، عند أطراف بستان «بيت السوامرة».

كان علوكي رغم جسده الثقيل يسير خفيفاً، مرحاً مثلي، لكن فرحه بمرافقتي لم ينسه واجباته المعتادة، فقد ظل يضغط على كفي الصغيرة من حين إلى آخر مداعباً، لكنه كان في الوقت نفسه ينحني، مرة تلو أخرى، ليلتقط كسرة خبز صغيرة ملقاة على الأرض، يقربها من شفتيه مقبلاً، يضعها على جبينه وهو يتمتم بشيء ما، ثم يدسها في شق حائط أو يضعها على حافة نافذة.

توقفنا أمام باب المدرسة الحديدي. انتزعت كفي من كفه ودخلت، بينما ظل هو واقفاً ينظر إلي، وحينما توقفت واستدرت لرؤيته ذهب مسرعاً، عبر الشارع، ثم جلس على الأرض، متكئاً على جدار السور المقابل للمدرسة.

في الصف طال انتظارنا. لم يكن اليوم ككل الأيام. كان المعلمون يدخلون الصفوف ثم يعودون إلى غرفة المعلمين. ولم يدق جرس الاستراحة في موعد انتهاء الحصة الأولى. كانوا كمن يتوقع حضور أحد ما، لكن أحداً لم يحضر.

دخل المعلم (زهرون) للمرة الرابعة إلى الصف وقد بدا في نظري مرتبكاً وخجلاً. ربما لأنه كذب علينا حينما قال بأننا لن نبقى هذا اليوم سوى ساعة. (زهرون) لم يكذب يوماً. هذا أمر يعرفه الطلاب جميعاً، حتى الذين تخرجوا من المدرسة قبل سنوات. الصابئة يكذبون أيضاً! فكرت ورحت أنظر إلى ارتباك المعلم (زهرون). بعد عدة دورات، قام بها المعلم في الصف، فرك يديه كعادته وقال، كما اعتاد أن يفعل في لحظات الملل، حينما يريد إنعاش نفوسنا:

ــ قصصاً، ها، تريدون قصصاً يا أقزام؟

لكننا لم نفرح لكلماته، وحتى القصاصون المعروفون في صفنا: (نعيم عباس) و(رياض العنبكي)، لم يفرحا، بل قاما وأديا دوريهما كرواة محترفين بتثاقل واضح. ولأول مرة في حياتي بدت لي القصص، التي طالما شغفت بها، شيئاً مملاً ومزهقاً. ومن دون سبب أحسست أن (نعيم عباس)، ابن عامل النفط، بوجهه الأسمر المائل إلى الحمرة، لم يكن مثيراً للدهشة وصادقاً، كما كان يبدو دائماً، حينما كان يأخذنا معه، في قصصه الخيالية، إلى عوالم الجن والأميرات والبحار والقصور والسحرة والطناطل والبلدان البعيدة. فقد بدا لي وجهه الأسمر الغامق يشبه لون النفط الأسود، وربما شابه لون الزفت، حتى أنني أخذت أشم رائحة النفط كلما ابتسم تلك الابتسامة الحاذقة، المتمكنة التي كانت تبهرني من قبل. أما (ابن العنبكي)، بوجهه الذي يشبه وجوه الأطفال الرضع، فقد بدا مضحكاً، أكثر مما هو مسل. وحتى عبارته الغريبة،

التي اعتاد أن يكررها في قصة الأرنب البري، والتي كانت تفعل فعل السحر فينا، حينما ينطقها بفمه الذي يشبه أفواه الأرانب البرية المرحة قائلاً: «هيناتي هيناتي، مدري منو طقني بإذيناتي...»، يقول الأرنب ذلك حينما تسقط قطرات المطر على أذنيه الطويلتين. حتى هذه العبارة السحرية بدت لي خالية من المعنى. فأنا لم أسمع أحداً من قبل، عدا (ابن العنبكي)، ينطق كلمة «هيناتي»، ولا أعرف ماذا تعني هذه الكلمة السخيفة!

كان كل شيء مملاً وفي غير موضعه. شيء ما كان مفقوداً ونحن ننتظر بلهفة اللحظة التي سيدخل فيها المدير معلناً بدء توزيع الشهادات. لكن ذاك طال، فكرر (نعيم) قصة «درب الصد ما رد»، التي سمعناها قبل أيام معدودات لا أكثر. وكالعادة علق الأستاذ (زهرون)، في نهاية القصة، بصوت مفخم قائلاً: «إمشي شهر ولا تطفر نهر»، فتذكرت عمي الذي ينتظرني بباب المدرسة.

أخذ عمي علوكي يقفز إلى خيالي في كل لحظة. وظلت صورته لا تكاد تفارق عيني، فأخذت أراه بين الطناطل وبين العفاريت والأمراء المسحورين وفي جزر المرجان وبين الأرانب والطيور، التي تتردد على لسان (نعيم) و(ابن العنبكي). لم أتمكن من مقاومة رغبتي في رؤيته. ترى ماذا يفعل الآن، وماذا سيقول أبي لو تأخرنا أكثر؟

تحاملت على نفسي وقلت بخجل للمعلم، وهو أمر لم أفعله قط من قبل:

ـــ أستاذ، هل تأذن لي بالذهاب إلى الخلاء؟

ـــ ماذا؟

ـــ أريد أن أذهب إلى الأدب.

ـــ إلى الأدب! ابتسم المعلم لي وهز رأسه موافقاً، لكنني عجلت فقلت له وأنا مسرع:

ـــ فقط أريد أن أبول لا أكثر، فواصل المعلم (زهرون) ابتسامته العطوفة.

ركضت بأقصى ما أستطيع ومن خلفي ابتسامة المعلم (زهرون) تلصق في ظهري، وكلمات (نعيم) المملة تتبعني، بينما أنا لا أعرف ماذا حدث لعمي علوكي. تسلقت سور المدرسة، من الجهة التي أحدث فيها الطلاب الفاسدون خرماً يهربون منه في الدروس الأخيرة. نظرت إلى حيث جلس عمي، فرأيته جالساً في الموضع نفسه. لم أتمكن من الاقتراب أكثر لأطمئن عليه، فما كان بمقدوري الذهاب إلى الباب الخارجي، خشية أن يراني فرّاش المدرسة، كما كنت أخشى أن يفتضح أمري ويعرف زملائي أنني كنت أكذب على المعلم (زهرون)، حينما ادعيت بأنني أريد الذهاب للمرحاض، بينما أنا قلق، أريد أن أكلم عمي العملاق، ذا الستة عشر عاماً، الذي كان يجلس على الأرض منتظراً حضوري، دون أن يعبأ بقلقي. كان علوكي مشغولاً عني، يحاور أصدقاءه المرئيين وغير المرئيين: يساعد (عنكبوت النبي) على بناء بيته المخرب، أو يعين نملة ضعيفة على الحركة، أو يتابع طيران

ذبابة شرهة ذاهبة إلى وليمة دسمة، أو نحلة محملة بالرحيق في طريقها إلى أولادها وأهلها الطيبين...

اطمأن قلبي، فعدت إلى الصف مسرعا، فوجدتهم قد باشروا باستلام شهاداتهم، وحينما نادوا على اسمي عرفت أنني من الناجحين. أخذت شهادتي وركضت باتجاه باب المدرسة فاستقبلني عمي علوكي بحيوية عجيبة، كما لو أنه لم ينتظر تلك الساعات المملة الطوال. اقترب مني واختطف الشهادة من يدي وراح ينظر إلى رموزها الغامضة وقال:

ـ باااا آبا.

دمعت عيناي وأنا أسمعه يتحدث بحماس عن نجاحي. فقد كان عمي علوكي عملاقاً لا صوت له، عملاقاً أخرس، لا ينطق إلا في المواقف الاستثنائية الكبيرة أو الكوارث الجسيمة.

هز رأسه مجدداً وهو يبتسم تلك الابتسامة الغزيبة التي تشبه وردة وحشية خارجة من شقوق صخرة.

جرني بيده الكبيرة وركضنا فرحين.

فمنذ هذه اللحظة بدأ الصيف بحق وحقيق ?

الكهل

عبد الجبار الحلفي

[إلى: إسماعيل فهد إسماعيل]

بدأت قوامي تتصلب، كأني أنتزعها من طريق مصعوقة، إلى الحد الذي أتوقع فيه أنها ستنكسر. بعض المارة يلقي نظرة عابرة عجلى، وآخرون يقهقهون ببلاهة، فالأمر لا يعنيهم.. سواء كان هذا الكهل ذاهباً إلى منزل راقٍ، أو سيلقى مصيره التعس في أية لحظة. بل إن أحدهم أحرق أحشائي المتيبسة عندما أطلق صيحة مصحوبة بضحكة رنانة، لافتاً نظر زميله: انظر إلى هذا..!!

ليس أمامي من سبيل، لأبقى حياً سوى أن أتغاضى عن انهيار قوائمي وهي تخبُّ وراء العربة التي يجرها حصان أعرج أعجف، وأن ألحق العربة التي شُددتُ إليها بحبل قنّب خشن غليظ، لكي لا أموت خنقاً.. أسمعُ طرقات حوافر الحصان على الطريق المكتظة بالحفر الصغيرة، وتناغم صوت سنابكه الذي يعلوه، ويختفي أحياناً، وأترقبُ أن يخفف الحصان من خببه لأسترجع بعض أنفاسي، وأتلافى السقوط على الشارع، فتسحبني العربة كحيوان نافق. أكاد أحس صفير السوط الذي يرشق جلد الحصان وهو ينخر، وربما ينفث الزبَد.

توقف رجل لفتُّ انتباهه في المنعطف، إذ تمكنت من رؤية وجهه يحدق بي في أثناء استدارة العربة، وانكشاف الرؤية للفضاء الذي صار بمستوى ارتفاع العربة عن الأرض. لابد أنه لمح كثافة شعري الرمادي الداكن وطوله المفرط بحيث غطى وجهي كله، وتتدلى أذناي العريضتان. أنا أيضاً لفتَ انتباهي هذا الرجل الذي راقبني باهتمام بالغ. هل عرفني. أم كان قد فقدَ ما يشبهني في الخلق؟

لا أدري متى غادري مكانه الذي توقف عنده عندما رآني أجاهد للحاق بالعربة. ابتاعني مالك العربة الذي يجمع ويبيع (العتيق) فقد عدّوني عتيقاً أيضاً. ربما تكون هذه هي المرة العشرين التي يبتاعونني بها. طوّق الرجل رقبتي بسلسلة فرس، أرهقتني مادام الليل والنهار. وربطني إلى عمود من حديد ينتصب جنب سياج الدار. عندما رأتني زوجه ذات الملابس السود المتسخة، عبّستْ، وأمسكت بيديها قبضتين من شعر رأسها وأسدلتهما على وجهها المتضرس، حاجبة عينيها. وقد استدارت برأسها إليَّ يغمرها الضجيج. أما هو، فقد أمسك بحزمة من شعرها، ومرّرها بين السبابة والوسطى. ثم أزاحها عن طريقه، نافضاً ذراعيه العاريتين. كانت

المرأة لا تأبه لتضوري جوعاً. فالرجل يغادر البيت قُبيل شروق الشمس، ولا يعود إلا عند أفولها.

منذ ابتاعني أول رجل من ذلك اللص الذي اختطفني قبل سنوات مضت، شعرتُ كأني أصبحت شجراً عارياً أنا والسماء، بعدما كنتُ متنعماً بالفيافي الشاسعة، في حديقة منزل عامر بالمودة والرخاء. في المرة الأولى، عندما اقتادوني إلى أحد الأحياء، أدخلوني زقاقاً ضيقاً، حيث السواقي تفصل بين البيوت القديمة المتقابلة، طافية بالمياه الآسنة.. تخوض بها الكلاب، حتى خلتُ أن هذا هو زقاق الكلاب. أحدها غافل الرجل الذي يقودني وهو منشغل بالكلام مع رجل آخر في الزقاق. في البدء.. شعشعَ بريق في عينيه الجاحظتين الحمراوين، ثم انقضّ عليّ واقتطع شريحة من فخذي، حيث التصق شعري بشدقيه. في هذه الأمكنة المستوطنة بالنفايات، لا غرابة أن يموت أي كائن، من دون أن يهتم به أحد. في المنزل الذي ترعرعتُ فيه، كانَ لي وجْرٌ آوي إليه. صُنع من الخشب المصقول. وطُليَ بلون الثيل في حديقة المنزل المرقشة بالورد.

كان صاحب المنزل يصطحبني في أثناء عطلته الأسبوعية. وفي بعض الأماسي نذهب إلى ساحل رملي يمتد طويلاً بجوار البحر، بسيارته الفارهة، مع أسرته الصغيرة. فانطلق مع ولديه وابنته، الصغار، هناك، يرشقونني برذاذ الماء الدافئ. حيث نستمتع بالأمواج تتدحرج فوّارة، متسابقة مع بعضها. على طول المسافات المرئية. وأنا دافع ذيلي الكث، أتطلع إلى الجانبين بشموخ، كتلك الأبراج العالية التي كنا نمر قريباً منها. الآن تذكرتُ، كيف كنت أستحمُ وسط حديقة المنزل في القيظ، تحت رذاذ النافورة الدوارة بالماء البارد. ثم أنفض شعري البليل. وأرقدُ منتشياً في وجري. وكنت أمزح مع كلب جارنا (الوولف) عندما يأتي لزيارتنا برفقة صاحبه، كنا نلعب معاً على الثّيل في الحديقة. نشتبك، نراوغ. وكثيراً ما كان يتعثر بجرمي الواطئ. فأنا من فصيلة (الكولي).. آه من يمحو أشرطة هذه الذاكرة التي لا تعطب..؟!

أتساءل أحياناً، إن كان هؤلاء الناس الذين يقتادونني، ينتمون إلى الجنس البشري الذي عرفته..! حتى الكلاب هنا لا تنتمي إلى جنسها. يتركونها سائبة أمام أبواب المنازل، وفي الخرائب نهاراً. وفي الليل تجوب الأزقة. وتصطرع إلى حد نزف الدماء. ونباحها يوقظ الطرشان في سدف الليل.. وكما ينبش الكثيرون في القمامة، فهي تفعل ذلك أيضاً. ولا سمة لليل هنا، إلا بالظلام فقط. فالصمت المعهود يبدو لغواً هنا، ولغطاً هناك. نهيق حمير، ونباح كلاب، وعواء مستمر. وقع أقدام تشخط وجه الأرض. وإطلاق نار يهتك ستر الليل. وعويل مغنٍ رخيص يجأر مثل بقرة أعدت للجزر. ماذا ينبتُ في هذه القمامة سوى الكوارث.. مدن لا تعرف الأزهار.

أبطأت العربة سيرها قليلاً. صعد إليها رجل لم يظهر من وجهه سوى عينيه. جلس إلى جناح العربة، مقابل صاحبها الذي رفع يده ملوّحاً بالسوط. ضارباً تلك العظام الناتئة تحت جلد الحصان. قال الرجل:

ـ أهو الكلب العجوز نفسه.. أم غيره..؟

ـ أخذته معي اليوم لأبيعه.. فلم يرغب به أحد.. لقد كانت صفقة خاسرة.. يبدو أنه لا يصلح لشيء!

سيعيدني الرجل إلى بيته.. يسجنونني في قن قديم. غرف البيت الثلاث المتلاحمة مع بعضها البعض، أقبية صغيرة، سُقِفت بعوارض حديد قديمة مع الجص والطابوق الذي بان في بعض أجزاء السقف المشبع بالرطوبة. ووسط البيت تلفحه الشمس من الصباح، حتى قُبيل عتمة المساء. ويتحول إلى موقد يحترق من غير نار. القن الذي حبسوني فيه مصنوع من الطين والقصب. وواجهته من سلك مشبك، اقتطع من سياج قديم. وتجاوره أقفاص الدجاج والأوز. في القن قضبان حديد صدئ ملتوية ومستقيمة ومدورة، وأغلفة عتاد نحاسية متنوعة، وخوذ بلاستيكية قديمة. في إحدى الليالي، متَرسْتُ نفسي بالقضبان وأغلفة العتاد، تحسباً من هجوم الكلاب عليّ في الليل الفحيم. يخزني جرح فخذي الذي صار فريسة للذباب في أثناء النهار، ومثار جذب لدواب الليل وحشراته التي تئز دون كلل. كنت أختنق برائحة تنبعث من القن، سدّت مجرى تنفسي، كأنما تفوح من جثث متفسخة. الدرب مازال يمتد، ولا أدري الآن.. إن كانت قد بقيتْ لي قوائم أنتصب عليها.. وتلتحم بجسدي.. فلم أكن أشعر حتى بالخدر. هواء ثقيل في صدري.. لا أرى سوى شبح غروب قرص الشمس الهامد في الأفق.. وراء سحابات رمادية.. أرجوانية.. متناثرة.. ؟

البصرة ١٤/٩/٢٠٠٠

كلمات عفو الخاطر

گزار حنتوش

[إلى عبد الوهاب البياتي]

يا من تكتبنا كل صباح

فوق جدائل شمس البصره

كلّ شواطئهم زلقٌ

من بغداد «العبْره»

....

ريحانٌ عبر الآن

أين أبي...!

أيقظني غداً يا رمان

وتبجّح..

في قلبي

أصحو في فجر المنفى

كي أكتب عن شعبي

أغنيتي طار بها القداح

حطّت فوق ضمير الشعب

....

البياتي عبر الآن

جاء أبي...!

* * * * *

جئت إلينا بمزاميرك

محفوفاً بعصافيرك

هيه.. هيه.. هيْ..

تدري حنطتنا لا تأكل

في المنفى الغسقيّ شعيرك

هيه.. هيه.. هيْ

وفردنا للقيا

دجلة

وفرات

جناحين

يطيران على وهج ضميرك

وحنان أعاصيرك

هيـــــــه...!

* * * * *

«شمس حياتي غابت»

* لا.. لا.. من أفتى..؟.. لا أحدُ

«لا يدري أحدٌ..» .

* الشعب سيدري

«ما من أحد يعرف في هذا المنفى أحداً»

* يعرفك الغيم الراحل

«الكلّ وحيدٌ..»

* لا... إنكما اثنان.. أنتَ.. وأنتَ

«قلب العالم من حجر..»

* حاشا للحجر..!

«في هذا المنفى: الملكوت»

* بغداد معك

أين هو المنفى

* * * * *

عين عراقك.. منك

وما الفرق...؟

قطرة ماء

تحضن قطرة ماء

وسحابهما في عينيك

عين عراقك..

في عشتار، وعائشة

وستعشى خائنة الأعين

كل عصافير المنفى

تنقر خبزاً في كفيك

عين عراقك منك

وما الفرق..؟

إن أطبقتَ الجفنين عليها

أو أطبقتِ الجفنين عليك

من بستان الشرق

تأتيك رسائل برق

عين عراقك

منك

وما الفرق..؟

إن أطبقتَ الجفنين عليها

أو أطبقتِ الجفنين عليك

....

خذني إليك.....

الديوانية ـــ كانون الأول ١٩٩٠

الساعة الواحدة

وحيد خيون

برغم احتراقي
برغم السقوط على ساحلي ....
ورغم انزلاقي
ورغم اختلافي ورغم اتفاقي
أحاولُ تأويلةً لاغترابي
فأرمي على اليأسِ يأسي
وأبحثُ عن نقطة للتلاقي
أحاولُ لكنني في انطلاقي
تغرّبْتُ عشرينَ عامًا وعامًا
وما زالَ قلبي العراقي ....
عراقي
أحاولُ ترجيعةً للتلاقي
أحاولُ منذ الولادةِ حتى تــمَــكــنْــتُ ....
لم يبقَ في العمرِ باقي
تأكدتُ بعدَ اختلافِ الليالي ....
وبعدَ انغلاقي
بأنّ اندحاري .... وأنّ انتصاري
مقابلَ بعضِ انحناءِ صغيرٍ ....
ورهنَ انسياقي
ولكنني لم أزلْ مُعــلّــنًا ....
بأنّ انسياقي محالٌ ولو بتّ بين السواقي
فهلاّ تغربتِ مثلي ؟
وهل تعرفينَ البكاءَ ؟

وهل نمتِ فوقَ الرصيفِ ؟
وهل ذقتِ بردَ الشتاءِ ؟
فرغم جميع العذابات في داخلي
فإني تحمّلتُ هذا العناءَ
لكي لا أعيشَ على هامشٍ ......
مثل صنفِ النساءْ
فهلْ أنتِ مثلي ؟
وأين وجوهُ التشابه ما بيننا ؟
وهل أنتِ تنتظرين البريدَ ؟
تنامين في الشرفة البارده ؟
وهل أنت بعدَ اندلاعِ الظلامْ ....
اذا دقــّتْ الساعةُ الواحدهْ
تعُــدّينَ مثــلي نجومَ السماءْ ؟
تعدّينَ واحدةً واحدهْ ؟
وهل أنتِ مثلي ؟
تشذّينَ دومًا عن القاعدهْ ؟
أقولُ اتــّـفــقـــنا ؟
لأني أفضــّـلُ حربَ الرصاصِ ....
على حربِ أعيُــنــكِ الباردهْ
أقولُ اختــلــفنا ؟
وأستنبطُ الآنَ منكِ اختلافْ
وأستقرئُ الآنَ ألفَ اختلافْ
فشتــّانَ بينَ البحارِ التي ضيّعَتــــني ......

وبين الضـــفافْ
أُحاولُ جمعَ التقاريرِ عنكِ .....
أُحاولُ بينَ اشتباكِ وبينَ التفافْ
لعلـــي سأحْصلُ يوماً..........
على الأعترافْ
أقولُ اتفقنا ؟
أأنسى اغترابي ؟
أأخرجُ من واقعٍ يعتريني ....
وأدخلُ في حاضرٍ من غيابي ؟
أقولُ اختلفنا ؟
وأنسى اضطرابات قلبي ودقـات بابي ؟
إذنْ ما الذي نلتـــهُ من شبابي ؟
إذنْ كيفَ أجتاحُ ستـين عاما أمامي .....
وأجتاحُ ما بي ؟
أحقــاً سأنساك في ذاتِ يومٍ .....
وفي منتهى الجُبْنِ ألقي انسحابي
لماذا أكونُ جبانا ؟
وكيف أكونُ جبانا
وأعلنُ منك انسحابي ؟ !
مفارقةٌ كلُّ ما بيننا ......
وأعلمُ أنَ التلاقي مُحالْ
وأعلمُ أنَ النهايةَ مثلُ البدايه
ففي دورةٍ نلتقي ولكنــها دورةٌ للزوالْ
نوافذُنا كلــــها مغلقةٌ .....
نوافذُنا من زجاجْ
وأحلامُنا حبةٌ من بخارْ .....
وأيامُنا من ظلالْ
أُحاولُ وحدي ..... وأشتاقُ وحدي

وفي ذاتِ يومٍ ....
رأيتُ انكساراتِ وجهي
رأيتُ المسافاتِ ضدّي
فأطرقتُ في حانةِ الوهمِ وحدي
تغرّبْتُ عشرينَ عاما وعاما ......
ولم تبقَ إلاّ الخرائطُ عندي
لماذا تكونينَ ضدّي ؟
وفي ذاتِ يومٍ إذا دقّتْ الساعةُ الواحدهْ
ستبكينَ بعدي
لأني أُحبـــكِ رغمَ اختلافِ خطوطي ...
ورغم اتجاهات بعدي
أُحبـــك ..... رغمَ المسافاتِ ضدّي
ومن كلِّ قلبي أقولُ استعدّي
لنهربَ من واقعٍ من رمادْ
لنخرج من ممكناتِ الزمنْ
فإني على مرِّ هذا الزمنْ
من الساعةِ الواحده ......
إلى الساعةِ الواحده.......
دفعتُ الثمنْ
فلا تتركيني ....
فلم يبقَ عندي سواكِ اتساعْ
وقد ضاقَ حتى البدنْ
ولا تتركيني ....
فأنتِ الصباحُ الذي جئتُ من أجلهِ ...
لهذا الوطنْ
فانْ كنتِ حقـــاً ستمضينَ عني
فإني أعيشُ ... ولكنْ لمَنْ ؟

التربة الأولى

بلقيس حميد حسن

أخذتك الريحُ مني لامطارات السفر
ورمتك الريح في دربِ مسافر
أنت مني كنت لا كاليوم أحلاماً ومُنية
تتراءى بخيالي كمراياتٍ جميلة
وكأيام الطفولة
وتنام في رؤى يوم حبيبٍ ببساتين الوطن
وأردتُ الصوت يعلو
فوق صوتِ الحب للأرض الحنين
كنتُ أشدو وأنادي فرحي حين يلاقيني قليلاً
هل تُرى عند حدود العشق يا قلب تقفْ؟
وجميلٌ أنني أعشقُ
لكنْ لي حبيبٌ لا كما يهْوَوْنَ
إني لا كما يعشق كلّ الكون
إني طائرٌ جرّدهُ الكلُّ الجناحين
غريبٌ لا رسائل
من تُرى يسأل عني
وأنا مذبوحة بين الشواطي والنخيلْ
شامخٌ دوماً بروحي؟
منْ تُرى يسأل عني؟
هل ترى قد جُمعت أحزاننا من كل حزنٍ؟
من قديم وحديث؟
منذ جلجامش حتى اليوم نبكي
عشتروت انتحرت فينا
وقاتلنا وأبكينا الزمانا،
آه قل لي ما فعلنا؟
وطقوس التربة الأولى عشقتُ العمر فيها
أتراها أصبحت شيئاً عتيقاً؟...
ثم يأتيني صدى صوتي غضوبا
أنت منْ أنت سوى ضائعةٍ عبر الحدود؟
أنت ذكرى في المقابر
لا صغارٌ عرفوكِ لا شبابْ
والشيوخ رحلوا من دون عودة
كيف تقوَيْن على قول بلادي؟
أنت اسم في سجلات قديمة
أحرقوها عندما النيران ثارت
لا تقولي يا بلادي
أنت لا أرضَ ولا حتى هوية
قد نسميك بقايا الوطن المهدور
أو حتى نسميكِ اجنبية...
آه يا صوت وما أقساك كم تتكأ جرحي كل يوم
آه رحماكَ حنيني
آه رحماكِ بلادي
جرديني من هواكِ
أو أحيليني رماداً كلُّهُ شوقٌ لأقدامِ مسافرْ
لبلادي!

لاهاي/ هولندا

صبواتٌ مؤجلة

سامي العامري

أبدا إذا تأوي الأحاديثُ الطوالُ
لصمتها أبدا
ويُصغي النهرُ لي ولهم سُدى
يهتاج ذكرُ الأقدمين ببالنا
هو مُطبقٌ
حتى استحال تميمةً فتوطدا
كفجيعة الغرباء
أو كالتاء أنّثها السَّنى
أرجُ الأحبّةِ نهرُنا
واليوم فليرحلْ
ولكن ليس من دوني!
بعيداً
في مجاهيلِ السديم،
كما هيروغليفيةٍ شرَدَتْ بقافيتي التي
أنا من شواردها
ومجدُكَ أيُها النهرُ الطفوليُّ الصفاءِ
بأنكَ الساري بهفواتي وغصّاتي
قرنفلةً بيد الذكرى
وما الشعراء.. إلا الشيبُ
ويحُ كهولة الأطفال،
مَن ذا قالْ:
أنا ما زلتُ
أو ما زال...؟
إني عائدٌ لمنابتي طفلا
وهذا ديدنُ الأشياء
باسم الماءْ
أنا المتعطِّشُ الداعي لكلِّ خطيئة مقموعة
من بينها الإسراءُ
غامرٌ بيَ
فأتبعُ بغشة غنّاء
ثوبي رحلة العصفور
من نبعٍ إلى نبعٍ...
سرابُ العالم المحفورُ نيرانا بذاكرتي
فلا بهجةْ
أثيرٌ
أيها النهرُ الخرافيُّ البكاءِ
ألا...
ألا...
أفديكَ من نهرٍ بموجَةْ!

كولونيا ٢٠٠٢

لابني الذي ليس هنا

عباس خضر (*)

أتريد يقيناً كالقصيدة؟!

لا تخفْ!

سأطلقك في الفضاء

كأي حجر لا يصيب..

فما من وصول، والمدينة هكذا

ما من وصول، والأرض هكذا

حتى الموتى،

أولئك الذين رموني يوماً من النافذة واحتسوا الكأس،

كانوا بلا سبابة تشير...

لا تخفْ

ليس كل قتلى النجمات بغرباء

فاحتمِ بي..

احتمِ بورق جرائد تالف مثلي

احتمِ بقافية لا كمشنقة

احتمِ بي، فأنا أبواب بلا جدران

ولتطمئن أكثر..

سأطلقك في الفضاء كأي حجرٍ لا يصيب

كأي حجرٍ لا يعود

كيقينٍ.

بلا يقين

عمان ٢٠٠٢

(*) عراقي مقيم في ألمانيا.

من قصيدة جسر الطين

شعوب محمود

ـ ١ ـ

انتظرتك قبل انهمار المطر

وقبل انبجاس المياه بقلب الصخر

ورحتُ أغني هواي القديم

كما رقّ عند الصباح النسيم

ورحتُ على خضر أوراقنا

أصور أحلامنا،

والحنين

تحت ظل السنين

فقلتُ لقلبي الحزين

تجذرتَ في طينه

وقمت على قاعه

كالنخيل الذي نكّسَ الرأس،

وانفجرت في الجدار المرايا

فكنتَ الشظايا

ـ ٢ ـ

تماسكتَ في كل كبوة

وأقمرتَ من كل كوّة

وأشرقتَ حيث يدور الزمان

وكنتَ المصان

تلامسُ بالدمع أضلاع كل المدائن

وأعرفُ كل الخيول

ومن كل جرح

تفيض مناهل

وفي كل ساحة

تجرد سيفاً

لتشعل جرح الرجال

فتشرق نجمة

لتشعل فوق جبين العراق

ظلام السنين.

ـ ٣ ـ

كان نخل السماوة

وصبح السماوة

شاحباً وحزين

وقطار السماوة

يطلق صفارة التعب المرّ في كل حين

كان وجه الحبيبة،

يصعد من شرفات الجدار الكبير

كان يصعد نحو السماء

لينفح فينا العبير

وينبت فينا الزغب

ناعماً كالحرير

يا زمان الهوى

وزمان الحداد

كل قلب يطير

في سماوات أحلامه

للغدير

غير أن الليالي التي اربدّ فيها الزمان

كان يُقتَلُ فينا الأمل

بين صبح الرجاء

ومستودع الريح،

والقلعة الحجرية

كانت الريح تسرق من سرّة الأرض،

في بسمة النزلاء

رملنا، والبهاء

مقعرة سرّة الأرض

لا طير يعبر بين السماوة،

والقلعة الحجرية

ولا ساق يشرق بالورد،

والنبتة البربرية

شوكها الهمجي

يتسلق جدران قلعتنا الحجرية

يا زمان الحداد

كانت الريح تسرق كل الرمال النقية

وتطبع بالذكريات

رجالاً تجاوز عنف الحياة

بين صبح السماوة،

والهوة القدرية

تحت أضلاعها الشوك،

والشوك بين الجفون

والشتاء الجليدي ينسل تحت العظام

وعشب الفطام

تجذر في قعر آبارنا

على مرّ أيامنا العشق يكبر،

والعشق يكبر

ـ ٤ ـ

من حيث الرمل، وحيث الملح، وحيث الجمر

من حيث النثر، وحيث الفكر، وحيث الشعر

من حيث الخوف، وحيث الرعب، وحيث الكفر

في قيم العصر

يا كلّ مفاتيح الغابات
يا كلّ سكون الذات
يا قفلاً كان يدور
في المعصم،
فوق فم الإنسان
في حوض الموت، وفي حوض الأحزان
نتطلع للأحلام
من فوهة بئر
من باطن قبر
يا حلماً يأتي، ولا يأتي
لقوافل تضرب في الصحراء
كي تخرج من طين الليل
نسغ الأحياء،
وترسم فوق جدار السجن: مدينة عصر النور.

— ٥ —

صفارة حارس قلعتنا
تغتال الحلم،
وتغرس في جفن الإنسان
إبر الأحزان
وعويل الريح، وليل الصمت
يعكس غيض الأرض،
ويغرس فجر الصبح

— ٦ —

في الزمن المرّ،
يجيء شتاء مرّ،
يعض البرد عظام الأخوة في البيداء
ويدق جدار الصمت،
عواءُ الذئب،
فتنتهك الصحراء
بمناقير أحدّ من السكين
وأجنحة سوداء
حيث يعرّى الليل،
تعرّى سماء
قبل عناق مدائنه الخضراء
الطير الهارب
يسقط وسط مقادير عمياء
يأكل من وجنته النسر،
ويشرب من عينيه الماء
يتلاشى النجم،
وتغرق في العتم الأسماء
ويضيع الأفق،
تضيع سماوات الأحياء
في الوحدة حيث تمازجت الأشياء.

بغداد

أنثى البعيد

مؤيد حنون

مثل جرح بالغ الرنين يضج
بك القلب
عندما أدور برأسكِ مثل خمرة تعشقينها
أتذكر دائماً الرفقة.
مثلما ينسحب الفردوس من الحلم
تتبدد رائحة الأنثى
في قلب العالم الوحيد.
مثل سيف يصهل تحت الشمس
ــ المتفردة بضوئها ــ
يفاجئ العالَم برثائه
أحييك بيومك المقدس
بأساريركَ الممزوجة بحليب الأمهات
تخرج من شقائكَ أبعد من عاشق مضرجٍ
بما يحمله قلبكَ من السنوات،
أمام رغبة تدوس مساحات فسيحةٍ من الألم.
الأحلام وحدها تفيض من السرير
أي حصار سيحتمل غيابكَ؟
إنها عزلتي كما هي عزلتك
كلانا يواصل طرقاته.
أبعد مما نترقب مجيئه
أرحل نحو الغامض فيك
ندرك صلصالنا مفتوحي الصدر
لتدرك كل قطيعة قبضتها المتاجّه
عندما أدور برأسكَ لا يغلبني نعاس
أصل دروب الماء بالماء
وأشيعك بيدين من حزن.

الاغتراب

عبد الرزاق صالح

ـ ١ ـ

سترى أحلاماً كثيرةً في اليقظةِ
لكنكَ ستُعدُّ خطاكَ للعدم
وليلة ما، حين تتأملُ المائدة
ستفقدُ أصدقاءً كثيرين
وتَعي الوحدة والانزواءَ
وفي سخريتكَ وهولِ المشهدِ
ستشهدُ مرورَ الظلام وأفق البحرِ
دعْ نبضكَ يحسُ حرارة اللقاءِ
دع شيطانكَ يتأملُ في سلام؛ رفاتِ الموتى
لو أن عالمك مقلوبٌ
لو أن الأشياء تأتي بالمقلوبِ
كشقٍ فسائل النخيلِ
فيمَ يهمُ؟
فالأشجار أشجارك
والمتاعُ في الجهلِ، اختياركَ
وبجنونكَ ندفعُ الثمنَ

ـ ٢ ـ

حمامةُ البحر تجتاز السماواتِ
أو ظلُ يمامة
أو صورتُكَ في البحرِ
هكذا يمضي الحبيبُ
ويتلاشى
كما ننسى الموتى
كلهُم أسطورةٌ
مجدُ نبوخذ نصر، وزنوبيا ــ تدمر، وحكمةُ
سليمانَ
الكوفة؛ البصرة؛ الفسطاط
لكنَّ الليلة التي تُعاقرها الآن
والعيونَ الخضرَ التي تتأملها
كلٌ إلى زوال
كلُهُم عظماءُ زمنٍ آخر
كالسراب... سقطوا

ـ ٣ ـ

الهياكلُ التي أقامها العرّافون
معابدَ وراءَ معابد

هي الآن نثارٌ
فهل تعيشون بعد الترابِ
اشربْ
تأملْ غروبك
فمثلُ الخمرة يموتُ عالمكَ
فكُنْ جديراً إذنْ بذهبِ الخمرةِ
عاقرها.. ولكنْ في رعبٍ
فإنك لا تعرف أبداً
حتى وإن طال بكَ السفرُ
ما مرَّ بك ليس المصيرُ
ولا كُلُّ الدروب الغريبة
فقد كتبتْ على قدميكَ، الآلهة
ـ الاغتراب ـ
دعْ جسدكَ يُلامسُ الترابَ
فنديمُكَ غير مأمون
والنسمةُ بينكَ وبين الخمرة
لا تجري
أينَ المستقرُ؟
والنغمةُ في الأعلى
والذكرى في القلب

ـ ٤ ـ

أيها الشاعرُ
اهربْ من كأسكَ الفارغةِ
وطفْ في مدنكَ الخياليةِ
ليس سواكَ والجسد
أنتَ لم تعرفْ ما وراءَ الزمن
ما عرفتَ قط (قافية) قصيدة مرتين
لشذى امرأة
فيم تهم حياتك؟
وورود غرستها لا تنمو!
افتح قلبك للنبيل أو للنبيذ
لنفس المرأة
واطلبْ زجاجة عطر أخرى
اشربْ حتى الهبات
وتوقف منتصفَ اللحظة
وحطمْ استشرافكَ
فنفسهُ الاحترام للمرء؛ الفكر
صلِّ للهمجية
ثم انتقلْ للموتى
حياتُك حطام
بعيونك نرى الآخرين
وحطام الكون
ومتاهة گلگامش
وبصبرك نرى خريطة السلطة
وجسداً معلقاً فوقَ الأسوار
احتفلْ بالجهل السائد
بحقارة عالمكَ
بغيومكَ الذهبية
ترنَّحْ كي ينمو الوضيع
فالقوى غامضة
والقسوة منقوشة في الجسد
كالظلِّ الرهيب
وستبقى الحقارة نصب عينين
كأنساب الآلهة
كونك فريداً
حين يهجم الحلم عليك
افتحْ باب الهجر للمتاهة
حتى تجعلنا نرى الآخرين
أطلقْ احتفاليةَ العيشِ
حتى تسقط عروشكَ الذهبية
حقارة أن يبقى القليل ـ القليل
الذي لا يُقال...
يقطعُ وئيدَ القلبِ وكأسي
املأ جسدي ثانية بالرغبات
واتركْ كحولَ الصدْقةِ

تغرق الصدقات
والبيت الذي أغرقتهُ، المحبة
هل تبقى حقارتُنا حكمةً واحتفالاً؟
كي تعيش أنتَ؟
ابن بلداً حطّمتَهُ!
واشربْ كأس الانزواء
ومع كأس النزوى
العنْ صدى كلماتك الأخيرة
واتركْ الكحول للذين يُحبون مثلي، وللنحيب!
فخارطةُ الشعر ممكنة لعلاك شرودك!
هذا لومُك أنت
فما تراهم يفعلون؟

— ٥ —

في سخريتك سيمرُ الملوكُ
وآخرُ توازن كليوباترا
يترصّدُ قمرَ الحدود
وافقَ النيل
والفرعون المنسي في (الجيزة)
لكنّ قيصرَ اغتنم فرصة اليوم
كحقارةِ عالمه
قوى غامضة
في مومياءات الجسد
كي يعيشَ عالمَهُ
وتبقى حقارتُنا

— ٦ —

أمالُكَ ممكنة
كي تعالج أفيونَ الثقافةِ
في أي بلدٍ تُريد
افحصْ قلبَ المرأةِ
واملأ كأسك ثانية
انظرْ كيف تنفذُ خيوط الازدراء
بالفساد وجهلِ العيش
اطلقها بحقد واحتفلْ بالقوى؛ كالنذير
لا تبال بافتتان البحر
ولا في سخريةِ الأشجار ورعبِ الملوك
أمامك تمثالُ (السيّاب)
ووراءك ضحكاتُ امرأة عاهرة
لا تقُل (سلاماً) على الحتوف
حياتكَ طلبتها من (مردوخ)
نبيلُ الرحابةِ
هل تنام بالثمام أو بورود السرخس؟
لا يهم، فيم يهم؟
سترى وجوه الشعراء كالشقاء
حين تتأمل السماء
في كل ليلة ذهبية.
وتُمطرُ الزمن أحياءً للموتى
اذهبْ لنفس المرأة
سترى الغرسة تنمو
مَن يُرافقك في الدرب الطويل؟
لا الألم ولا أغراس الموتى!
اشفقْ عليها إذن بعد اغترابك!

البصرة

في الأول من أيار ٢٠٠٢

قصيدة من أمريكا اللاتينية عن العراق

غطرسة

عشتار محسن سعدون

كُتبت هذه القصيدة باللغة الإسبانية وقام بترجمتها والد الشاعرة، محسن سعدون المخرج المسرحي العراقي الذي تغرّب عن بلاده عام ١٩٦٨.

ابنته صاحبة هذه القصيدة هي الأخرى تحمل روحه العراقية، وجيناته الإبداعية، وحتى اسمها كان تيمناً بإلهة الحب والجمال في بلاد الرافدين (عشتار). أما أمها (الينا غوتيرس) مصممة وأستاذة الباليه، فقد حملت هموم العراق قبل أن ترى ابنتها النور.

تخرجت عشتار في معهد السينما في موسكو. ومن بداية عملها الفني أسست فرقة مسرحية صغيرة تعتمد أساساً عليها مخرجةً وممثلةً، وأغلب أعمالها المسرحية بشخصية واحدة ونادراً باثنتين. هذا إلى جانب شركتها للإنتاج السينمائي: ASTARTE.

(عشتار محسن سعدون) إلى جانب احترافها فن السينما والمسرح، تكتب القصة والرواية ولها قصائد نابعة من القلب نقدم للقراء واحدة منها عن الأحداث الدراماتيكية الأخيرة التي جرت في العراق، فقد كانت تئنّ من الألم وهي تشاهد المأساة العراقية من خلال التلفزيون.

ليس العراق وحده يشغل بال الفنانة الموهوبة، فهي حالياً تعدّ فيلماً سينمائياً عن معاناة المهاجرين من نيكاراغوا وعذاباتهم من أجل العيش والحرية، والفيلم يُنتج بتمويل من مراكز إنتاج إسبانية

وألمانية.. فيما يأتي نص القصيدة:

كان الموت قد أعلن
وفي كل الأوطان ارتفعت الصرخات
شرفات البيوت انتظرت الإشارة
اتخذ القرار، ولا أحد يحول دونه
اللحظة سانحة والمسخ مهيأ
إنها الساعة المميتة
في ليل بغداد ذاك
يبرقع الصمت الخوف
وفرقعات القنابل رنحت الرعب بعيداً
مع أن الموت قائم
ألم واحتضار
رجل استوقفني، قال إنه صديق
أهداني سكيناً ثم قال: أنت إنسان خطر
وقتلني بعيار واحد.
قتلة الحياة
هم من يخلق مسخ المهمات
يعصرونه ثم يقتلونه دون تمهل
قال فارس سفر الرؤيا
ماذا يهم إذا ما ماتوا لاتينيين
هنوداً أو عرباً؟!
ليقتتلوا فيما بينهم
الشركات والمصممون بالانتظار
والبترول أيضاً!
سنفرض قبضتنا على البلاد
فالقوة هي التي تتحكم.

اغلق فمك وسمعك واحجب بصرك
الواقع مخيف
اضحك وترنّم بالغناء وتسوق
ولا تلتفت إلى العدالة
الشر يستشري كالسرطان
وبطريقه يدمر كل شيء
كيف لأحد أن يصوب إطلاقته نحو طفل؟
كيف له أن ينعم بالعيش مع هذه الذكرى؟
سيرى الطفل في أحلامه
بكوابيس لا نهاية لها
أجنحة صقور الموت من دخان أسود
وبغداد هي الهدف
شعب العراق سينهض من جديد من تحت الرماد
العدل في التاريخ غائب
في امبراطوريات تحتضر
ليت الآلهة تنهض بحمية وغضب
وتوقف الزمن
وتنظف الأرض من اللئام
وتحجرهم في حضيض آسن
الواحد فوق الآخر
في جهنمهم الخاصة
هكذا يستقيم العدل على الأرض
أرى عن قرب وجوه أطفال العراق
أرتعب من أجلهم

وجوه مفعمة بالبراءة والمحبة
متعبة من الانتهاكات
ولا أحد ينتبه إلى هذه الحرب الصامتة!
كل هذا جزء من الخطة
خطة الموت البطيء والأكيد!
شملنا عصر الإمبراطورية الجديدة!
سينتصرون لا محالة
فرئيسهم مسلح بالإيمان «الجديد»
يتألم بداء العظمة
بكى كطفل لسقوط البرجين
الضياع الأخير المتبقي هو «طهارة الذيل»
الآن كينونته بدون حدود!
في ليالي بغداد يتوارى المارنز
بأجنحتهم السوداء
يتخفون في الظلام الدامس
يبصرون من خلال عدسات خاصة
يتوارون خلف الأقنعة
يتحدثون عن الديمقراطية
إكسيراً للحياة والحرية
يا لها من سخرية
يظنوننا أغبياء
الحقيقة ضائعة بفعل ذاك الإعلام
حروب وجوع وإبعاد جماعي
فقراء في أرض غنية
صدام قال: أسلمكم أرضاً بدون أهلها!

المضاربون لخدمة الإمبراطورية
خيانة أن نلتزم الصمت
ونتحمل أخطاء العالم
ونحجب أبصارنا ونسد سمعنا ونغلق أفواهنا
هذا هول
هذا إعدام
دخل المارنز أم لم يدخلوا
فالطغاة ليسوا أبديين
بين دجلة والفرات
ميسوبوتاميا الأمس، عراق اليوم
كان الجسر قارات ثلاث
هناك أكثر من عشرة آلاف موقع أثري
لمائة ألف عام من الماضي
ببقايا حضارة تعود إلى العصر الحجري
منذ خمسين ألف عام كان للأقوام
حس خاص بالجمال
هم أنبتوا الزهور عند المقابر
وكانوا على معرفة عظيمة في الرياضيات
والهندسة
وكذا في علم الفلك والفن والأدب
والقانون القضائي في مسلة حمورابي البابلي
قلبي مع الشعب العراقي
دمه من دمي ودمي منه
إنه لمؤلمٌ أن نكون ضعفاءَ لا فعلَ لنا
غير تضرعات النفس المترنحة.

تجربة مسرحية

[مسرحية في فصل واحد]

شاكر خصباك

(يرتفع الستار عن خشبة المسرح وقد رُصّت فيها المقاعد على الجانبين وهي امتداد لمقاعد الصالة. تمثل خشبة المسرح ساحة حديقة عامة. وتزين جدران المسرح الثلاثة بصور الأشجار والأزهار. حينما يرتفع الستار تكون المقاعد مشغولة بالحضور وهم يتحدثون مع بعضهم بعضاً. يدخل المسرح (مسعود الهاني) ويتجه إلى منصة قائمة في عمق المسرح فيسود الصمت).

مسعود الهاني: السلام عليكم. سأقدم لكم نفسي أيها الحضور الكرام. أنا مسعود الهاني مصمم هذه المسرحية إذا جاز لي أن أسميها مسرحية. فهي في الحقيقة أقرب إلى ندوة ثقافية اجتماعية منها إلى المسرحية بقواعدها المعروفة منذ أيام أرسطو. وأحب أن أقول لكم ابتداءً بأنني من المؤمنين بأن المسرح ينبغي أن يكون في خدمة الشعب. ولكن مهما حاولنا نحن المسرحيين أن نتحدث بلسان الجمهور فلا يمكننا التعبير عن مشاكله وطموحاته وعواطفه تعبيراً دقيقاً. لذلك خطر لي أن أقدم عملاً مسرحياً يعرض فيه بعض أفراد الجمهور مشاكلهم ومعاناتهم بأنفسهم وبشكل تلقائي. فمهما يكن النصّ المسرحي بارعاً فسيظل يفتقد التلقائية. (يرفع جبار العودي يده) تفضّل يا زميل جبار.. تفضل.

جبار العودي: أريد أن أقول يا زميل مسعود إنه ليس جميعنا نحن المخرجين نفضّل أن يتحول المسرح إلى منبر للوعظ الاجتماعي أو السياسي. وإلا فأين متعة الفن الخالص إذن؟!

مسعود الهاني: (وهو يضحك ضحكة مفتعلة) على كل حال نحن مختلفان في هذه القضية كما تعلم يا زميل جبار. ولكن اسمح لي أن أقول إنه ليس هنا مجال النقاش فيها. (ملتفتاً إلى الحضور) وكما تعلمون فقد اتصلت بعدد منكم وعرضت عليهم المشاركة في هذه

المسرحية فوافقوا مشكورين. وأحب أن أقول لكم أيها الحضور الكرام إن المجال مفتوح لأي واحد منكم للاشتراك في هذه المسرحية عن طريق مداخلته، ففي إمكان أي شخص منكم المداخلة في المشكلة المطروحة شريطة أن يكون النقاش حضارياً وأن يعترف بالرأي والرأي الآخر. وأطمئنكم أن في إمكان أي شخص منكم أن يعرض رأيه بمنتهى الصراحة. (يرفع أحد المشاهدين يده) تفضل. تفضل أيها الأخ.

مشاهد: اسمح لي يا أخ مسعود أن أسأل: هل من الحكمة أن نعرض مشاكلنا بصراحة وبيننا بعض المسؤولين الكبار الذين قد لا تروق لهم صراحتنا؟

مسعود الهاني: بالعكس أيها الأخ. فقد عرضت فكرتي هذه على المسؤولين فرحّبوا بها وأذنوا لي بتنفيذها. وقد تحمّس لها سيادة مدير الأمن وطلب المشاركة في المسرحية باعتباره أحد أفراد الجمهور.

المشاهد نفسه: (في استنكار) باعتباره أحد أفراد الجمهور؟!

مدير الأمن: (يخاطب المشاهد في غلظة) بالطبع أحد أفراد الجمهور.. أم أني لست مواطناً مثلك؟!

المشاهد نفسه: (في تهيّب) أبداً يا سيادة مدير الأمن.

مدير الأمن: (في لطف وهو يبتسم) أؤكد لكم يا إخواني أنني واحد منكم. ولي مشاكلي الحياتية أيضاً. فخذوا حريتكم في الكلام وكأنني غير موجود. ونحن المسؤولين نؤمن بحرية الرأي إيماناً كاملاً.

مسعود الهاني: (وهو يضحك ضحكته المفتعلة) أرأيتم! نحن هنا جميعاً مواطنون هدفهم عرض مشاكلهم على بعضهم بعضاً. وأعتقد أن هذه التجربة ستكون ناجحة.

جبار العودي: (وهو يبتسم) أنا أشك في ذلك يا زميل مسعود.

مسعود الهاني: (وهو يضحك ضحكته المفتعلة) بل ستكون تجربة ناجحة فعلاً يا زميل جبار. (وهو يدير عينيه في وجوه المشاهدين) فمن يحب أنه يجب أن يفتتح المسرحية شخص يتحلى بالجرأة الأدبية. لذلك سأقوم أنا بذلك. (وهو يتنحنح) أعتقد أن البعض منكم شاهدوا مسرحياتي وأعجبوا بها. وقد اشتهرت مسرحياتي بأنها تعالج مشاكل المجتمع وخصوصاً مشاكل أبناء الطبقة المسحوقة. فأنا أؤمن كما قلت بأن المسرح ينبغي أن يكون في خدمة المجتمع. وقد واجهتني مشكلتان أثناء عملي. الأولى تتعلق بالمسؤولين عن الرقابة، والثانية تخص جمهور المسرح.

فأما المشكلة الأولى فهي أصعب وأعقد. فكثيراً ما يعترض الرقيب على عبارات في النص ويطلب حذفها. فأكون مضطراً إلى ذلك مما يحدث خللاً في النص المسرحي. وصدقوني أيها الإخوان.. قد لا يكون هناك أي مبرر لحذف تلك العبارات. والحقيقة أن الكثير من زملائي الكتّاب والصحفيين يشكون من هذه الظاهرة ومن تعسّف الرقيب..

مدير الأمن: (مقاطعاً) يا أستاذ مسعود. لابد أنك تعلم أنه من يتولى المسؤولية في السلطة يحمل على كاهله عبئاً عظيماً. فهو مسؤول عن المحافظة على سلامة وأمن النظام والمجتمع من أي أخطار تتهدده من ذوي الأهداف المشبوهة. فلا تلم الرقيب على إخلاصه لوظيفته.

مسعود الهاني: ولكن ليس كل من يقترح أفكارا تختلف عن أفكار السلطة يهدف إلى الإساءة إلى النظام أو العبث بأمن الدولة يا سيادة مدير الأمن.

مدير الأمن: أنت لست أدرى يا أستاذ مسعود من المسؤولين بواجباتهم.

مشاهد: فماذا إذن عن حرية الرأي التي تتبناها الدولة؟

مدير الأمن: (إلى المشاهد بغلظة) ليس معنى حرية الرأي حرية التخريب. افهموا ذلك.

مسعود الهاني: (وهو يضحك ضحكته المفتعلة) لنكتف إذن بالنقاش حول هذه القضية. واسمحوا لي أن أعرض عليكم مشكلتي الثانية وهي تخص جمهور المسرح. فهم لا يكترثون بالمسرحيات الجادة ويولعون بالمسرحيات الهابطة التي تدغدغ غرائزهم الفجة وتثير ضحكهم. وبمعنى آخر إن جمهور المسرح يعرض عن المسرحيات التي تقدم له غذاء روحيا وثقافيا ويقبل على المسرحيات التافهة التي لا هدف لها. وطبعا هذا يثبط همتنا نحن المخرجين الجادين إضافة إلى ما يكبدنا من خسائر مادية.

مشاهد: كيف تلوم المشاهدين يا أستاذ مسعود على إقبالهم على المسرحيات الخفيفة التي تسليهم وتبدد عنهم شيئا من همومهم ومعاناتهم اليومية؟ ألا تعتقد أنهم في حاجة فعلاً إلى التسرية عنهم في حياتهم الصعبة؟

مسعود الهاني: وكيف سيتوفر لهم إذن رصيد جيد من الثقافة إذا رفضوا مصادرها؟!

المشاهد نفسه: هناك مصادر أخرى للثقافة غير المسرح يا أستاذ مسعود.

جبار العودي: أنا أؤيد الأخ وأعتقد أن مهمة المسرح الأولى هي إمتاع المشاهدين لا إلقاء المحاضرات عليهم.

مسعود الهاني: (وهو يضحك ضحكته المفتعلة) على كل حال لنكتف بهذا القدر من النقاش حول هذه القضية. ولنعط الفرصة لمتحدث آخر. وأرجو من الإخوة أن يوجزوا في عرض مشاكلهم وكذلك في مداخلاتهم ليتسع المجال لمشاركة أكبر عدد ممكن من المتحدثين. والآن من يحب أن يعرض مشكلته؟! (يرفع منير السالم يده).. تفضل أيها الأخ. وأرجو أن تقدم نفسك للحضور. (يتراجع مسعود الهاني إلى مقعد بجوار المنصة).

منير السالم: (يغادر مقعده في الصالة ويصعد إلى المنصة) أنا منير السالم موظف في مصلحة البلديات. ومشكلتي هي مع رئيسي الذي يرفض الموافقة على ترقيتي التي أستحقها منذ شهور، مع أنني موظف نشيط ودؤوب وملتزم بالدوام وبأداء واجباتي، ولا أدري ماذا

أفعل للحصول على حقي.

مشاهد: إذا كنت كما تذكر يا أخ.. فلماذا يرفض رئيسك الموافقة على ترقيتك؟

منير السالم: لأن ضميري لا يسمح لي بقبول الرشوة لتمشية المعاملات غير القانونية. وعليكم أن تفهموا الباقي.

مشاهد: فإذن أنت مثال الموظف النزيه بارك الله فيك.

مشاهد: وما فائدة النزاهة في هذه الأيام يا أخ؟! إنها لا تؤكّل خبزاً وهي تجيء على حساب عائلته. (مخاطباً منير) والأفضل لك يا أخ منير أن تتساهل وتطبق المثل القائل «نفيد ونستفيد».

مشاهد: أي والله صدقت يا أخانا. وليت موظفي البلديات يرحموننا ويقدّرون ظروفنا نحن أصحاب عربات البضائع فيستفيدون ونستفيد. لكنهم يحاربوننا في رزقنا ولا يسمحون لنا بالتواجد في أماكن كثيرة قائلين بأننا نخالف التعليمات.. مع أننا نستأهل عطفهم. فظروفنا صعبة جداً. وفي الأيام التي لا نبيع فيها شيئاً نبيت بلا عشاء.

مشاهد: ما هذا الكلام العجيب يا إخوان؟ أين ذهبت المُثل إذن؟ لو سمح كل موظف لنفسه أن يرتشي بحجة حاجته للمال لخرب المجتمع.

مشاهد: اسمحوا لي يا إخوان أن أصحح ما قاله لكم السيد منير، فأنا زميله في العمل. وأؤكد لكم أن كل ما ذكره هو كلام باطل لا أساس له من الصحة. فهو مثال الإهمال في عمله وأوراق المراجعين مكدسة على مكتبه وهم يشكونه دائماً إلى الرئيس.

منير السالم: أنت تعلم أن سبب تراكم أوراق المراجعين على مكتبي هو مخالفتها للتعليمات والقوانين المرعية وأنا لا أقبل الرشاوى مثلك.

المشاهد نفسه: والله إنك لكاذب. وأنت تفتري عليّ وعلى الرئيس. والرئيس معروف لدى الجميع بالنزاهة الكاملة.

منير السالم: بل أنت الكاذب. وأسباب كذبك معروفة لجميع الزملاء. فأنت تحاول الدفاع عن الرئيس وعن سلوكه الدكتاتوري. وقد اتخذك جاسوساً علينا. وأنا في الحقيقة لم أتحدث عن مساوئه كلها وعن تعامله البيروقراطي مع موظفيه ومع المراجعين الذين يضجّون بالشكوى منه.

مدير الأمن: اسمع يا سيد منير. لا يليق بالموظف المحترم أن يتحدث عن رئيسه على هذا النحو وأن ينتقد سلوكه هكذا ولا أن يوجّه إليه مثل هذه التهم بالحق أو بالباطل.

مسعود الهاتي: لنكتف أيها الإخوان بهذا القدر من النقاش حول هذه القضية. (وهو يدير عينيه في الجمهور) من يحب أن يعرض مشكلته؟ (ترفع سليمة الهادي يدها).. تفضلي.. تفضلي أيتها الأخت.

سليمة الهادي: (تغادر مقعدها على المسرح وترتقي المنصة) أنا سليمة الهادي زوجة رؤوف الصالح. وأقول لكم إن الانسجام بيننا مفقود. وإن حياتنا معاً لم تعد تطاق. لكنني أصارحكم أيضاً أننا نكتم وضعنا هذا عن أصدقائنا ومعارفنا وهم يعتقدون أننا زوجين سعيدين.

رؤوف الصالح: وهل تريديننا إذن أن ننشر غسيلنا القذر على الناس؟

سليمة الهادي: أنا لا أقول ذلك. ولكن أنت تعلم كم يكلّفنا كتمان هذه الحقيقة من معاناة. ولو تحدثنا عن مشاكلنا لأصدقائنا لساعدونا في حلها.

رؤوف الصالح: ليس هناك بيوت خالية من المشاكل ولا تحدث فيها مشاحنات. وكل ما في الأمر أن الناس يحصرونها داخل بيوتهم ولا ينشرون غسيلهم القذر على الآخرين. ثم من قال لك إن هناك مشكلة حقيقية بيننا؟

سليمة الهادي: فلماذا إذن هذه المشاحنات المستمرة بيننا؟

رؤوف الصالح: خيالك هو الذي يصوّر لك هذه المشاكل.

سليمة الهادي: إذن فهل خيالي هو الذي يصور لي بأنك لا تسهم معي في أعمال البيت وترمي الأعباء كلها عليّ؟!

رؤوف الصالح: ومن قال لك إن الرجل مسؤول عن أعمال البيت؟ أليس المعروف في بلدان الدنيا كلها أن المرأة هي المسؤولة عن أعمال البيت؟! ثم ألا يكفيني ما ألقاه من تعب في عملي المرهق طول النهار؟

سليمة الهادي: وأنا؟! ألست أعمل مثلك خارج البيت؟ ألا أعود إلى البيت مرهقة أنا أيضاً؟ ومع ذلك فعليّ أن أهيئ لك مائدة الطعام كاملة حتى السلطة ثم أغسل الأطباق.

رؤوف الصالح: هذا واجبك.

مشاهدة: هكذا هم الرجال.. يتصورون أنهم السادة وأننا إماء عندهم وأن من واجبنا أن نخدمهم ونحن الممنونات!

مشاهد: وما العجب في ذلك يا أخت؟! أليس الرجل هو رب العائلة؟!

المشاهدة نفسها: ونحن أيضاً ربات العائلة.

سليمة الهادي: (في سخرية) على كل حال لا عجب في ذلك فعلاً فأنتم أسيادنا.

رؤوف الصالح: لا تضطريني يا سليمة إلى نشر غسيلنا القذر على الناس ولا تدفعيني إلى الحديث عن إهمالك لشؤون البيت والأطفال متحججة بانشغالك بعملك الوظيفي الذي لا ضرورة له.

سليمة الهادي: (في سخرية) وهكذا أكون تحت سيطرتك المطلقة! أفتتكر أن كل شيء في البيت ينبغي أن يتم بموافقتك وتوجيهاتك وأنني لا أستطيع التصرّف بحرية حتى براتبي؟!

رؤوف الصالح: لماذا لا تكوني صادقة وتخبري الحضور الكرام بأنك أنت التي تريد أن تستبد بشؤون البيت كلها ولا تقبل نصحا من أحد؟

مشاهدة: طبعاً.. أليست المرأة سيدة البيت؟

سليمة الهادي: ألنا التي تستبد بشؤون البيت؟ أنا التي لا تستطيع أن تنفق فلساً واحداً ما لم تحصل على موافقتك؟! (توجه حديثها للجمهور) تصوروا أنني كلما أردت شراء حاجة للبيت فلابد من حدوث مشادة بيننا.

مشاهدة: هذا هو طبع كل الأزواج يا أخت سليمة. فهم يقتّرون علينا ولا يهون عليهم أن نصرف فلساً واحداً.

رؤوف الصالح: (موجهاً حديثه إلى الجمهور) إنها تتهمني بذلك يا إخوان لأنها أشد النساء إسرافاً. وهي تبدد راتبها على شراء الملابس غير الضرورية والتي تتكدس في خزاناتها وعلى الحلي التي لا لزوم له. وهي تشتري أشياء للبيت لا ضرورة لها مطلقا، وتسرف في تقديم الهدايا للأهل والأصدقاء بدون تعقل. وإذا نصحتها بالاقتصاد في مصاريفها غير الضرورية اتهمتني بالبخل. إنها في الحقيقة مثال الإسراف.

مشاهدة: أنت تكذب فابنتي ليست مسرفة. أنت الذي تستولي على كل راتبها وتقتّر على البيت دائما. أنت أحلت حياة ابنتي إلى جحيم.

مشاهدة: دفاعك عن ابنتك مفهوم يا أم سليمة فأنت تريدينها أن تنفق نصف راتبها عليك. وابنتك هي التي أحالت حياة ابني إلى الجحيم.

مشاهد: والله إن تدخلكن في حياة أبنائكن هو الذي يحيلها إلى جحيم.

مدير الأمن: يا ست سليمة.. عليك أن تتذكري دائماً أن الرجال قوّامون على النساء، وأن الله قد أمر الزوجة بطاعة زوجها.

مسعود الهاني: أعتقد أيها السيدات والسادة أننا استنفدنا وقتا كافياً في نقاش هذه القضية. وينبغي لنا أن نعطي الفرصة لمتحدث آخر. فمن منكم يحب التحدث عن مشكلته؟ (يرفع علوان العباس يده).. تفضل يا حاج علوان.

علوان العباس: (يغادر مقعده في الصالة ويصعد إلى المنصة) أنا الحاج علوان العباس وعملي تاجر.

مشاهد: (في سخرية) وهل لدى التجار مشاكل في حياتهم أيضاً؟ إنهم يعيشون في نعيم دائم وعليهم أن يحمدوا الله.

مشاهد: ومن قال لك يا أخ إن التجار جميعا يعيشون في نعيم؟ فالكثيرون منهم قلقون دائماً مما قد يلحق بهم من خسارة.

مسعود الهاني: (وهو يضحك ضحكته المفتعلة) صحيح يا حاج علوان... ما هي مشكلتك؟

علوان العباس: مشكلتي ليس مشكلة شخصية بل مشكلة التجار جميعا. والمشكلة تتعلق بنظرة الناس إلينا.

مسعود الهاني: وما المشكلة في نظرة الناس إليكم يا حاج علوان؟

علوان العباس: إنهم يتهموننا أننا نبتزّهم وأن جشعنا لا حدود له وأننا لا نبالي بالفقراء وذوي الدخل المحدود.

مشاهد: أليس الأمر كذلك فعلاً يا حاج علوان؟ فأنتم ترفعون أسعار البضائع باستمرار. وهكذا ينكوي بنارها الفقراء وذوي الدخل المحدود. ولم نسمع بتاجر يوماً حدّ من جشعه ومن رغبته في الربح.

مشاهد: لا.. لا يا أخ. أنت تظلمنا فنحن لسنا كذلك. واعلم أننا لسنا مسؤولين عن ارتفاع الأسعار فهي مرتفعة من المنشأ أو بسبب ضرائب الدولة.

علوان العباس: هذه هي حقيقة الأمر يا إخوان كما ذكرها الحاج أحمد.

المشاهد نفسه: فهل تنكر يا حاج علوان أن التجار يحبون المال أكثر من غيرهم؟

علوان العباس: أبداً يا أخ. فنظرتنا إلى المال هي نفس نظرة بقية الناس. دلّني على إنسان لا يحب المال أو يزهد فيه. فحبّ المال والكسب ليس عيبا خاصا بنا نحن التجار. وقد قال الله في كتابه الحكيم (المال والبنون زينة الحياة الدنيا).

مشاهد: ولكن هناك أناسٌ لا يتهالكون مثلكم على المال يا حاج علوان.

علوان العباس: بالقول لا بالعمل يا أخ. فلو أُتيحت الفرصة لأمثال هؤلاء الناس لتهالكوا عليه أيضاً.

مشاهد: معنى هذا يا حاج علوان أنك لا تمانع أبدا في رفع أسعار بضائعك ما دمت بمنأى عن الحساب.

علوان العباس: أكون كاذباً لو قلت غير ذلك. فهذه هي طبيعة الإنسان. فلا تلوموننا على ذلك يا إخوان وأحسنوا الظن فينا.

مشاهد: وماذا عنا نحن الفقراء؟ ألا يفكر أحد فينا؟ ألسنا بشراً مثلكم؟ أليست لنا رغبات واحتياجات؟ فهل كتب الله علينا أن نعيش في كفاف دائم؟ ألا يحقّ لنا أن نحلم بالحياة الرضيّة؟

مدير الأمن: (في غلظة) هل هذه المسرحية فرصة لتحريض الفقراء ضد الأغنياء وإثارة البلبلة والشغب في المجتمع؟ كفى نقاشاً في هذا الموضوع. أنتم بدأتم تلوصون.

علوان العباس: (وهو يبتسم) على كل حال يا إخوان.. لكلٍّ ما قسم الله له من رزق. ولا علاقة للتجار بما يعانيه الفقراء من شظف العيش.

مشاهد: يا إخوان.. الحق مع الحاج علوان. فليس التجار هم الملومين بل قوانين الدولة هي الملومة. فهي تتيح لهم فرص الكسب بلا رقابة وحساب.

مدير الأمن: (في غلظة) ما هذا اللواص؟ ما العيب في قوانين دولتنا؟! إنها أحسن قوانين في العالم. وهي توفر للمواطنين استثمار ذكائهم وشطارتهم لكسب رزقهم الحلال.

مسعود الهاني: (وهو يضحك ضحكته المفتعلة) أعتقد أنه آن الأوان للاكتفاء بما سمعناه من نقاش حول هذه القضية يا إخوان. (وهو يدير عينيه في الحضور) فهل من رغب آخر في التحدث عن مشكلته؟ (يرفع زاهد محمد يده) تفضل.. تفضل أيها الأخ.

زاهد محمد: (يغادر مقعده على المسرح ويرتقي المنصة) أنا زاهد محمد.. طالب في السنة النهائية من المدرسة الثانوية. ومشكلتي هي مشكلة الشباب جميعاً ممن هم في سني، والمسؤول عنها هم الآباء، فهم يتدخلون في صميم حياتنا الشخصية ويحرّمون علينا ممارسة كلَ رغباتنا بحجة الانصراف إلى الدراسة.

مشاهد: وأين الخطأ في ذلك يا بني؟ أليس المفروض ألا تشغلوا بالكم بغير الدراسة لكي تضمنوا مستقبلكم؟

زاهد محمد: الخطأ في ذلك واضح يا عم. فمعنى ذلك أننا نتحول إلى آلات شأننا شأن الكومبيوتر. ونحن بشر من لحم ودم ولنا عواطفنا ورغباتنا خارج نطاق الدراسة.

مشاهد: هكذا هم الآباء جميعاً لا يحسنون سوى هذه النغمة. ومن أجل ذلك يحرّمون علينا كل شيء.

مشاهد: وما الذي نحرّمه عليكم؟

المشاهد السابق: تحرّمون علينا ممارسة كل هواياتنا وتتدخلون في اختيار الملابس التي تلائم ذوقنا بل وتمنعوننا حتى من حلق رؤوسنا بالطريقة التي تعجبنا.

مشاهد: هذا ما يفعله أبي معي بالضبط.

مشاهد: (في سخرية) الحق معكم، فنحن مقصّرون تجاهكم. ويجب أن نتيح لكم كل ما تمليه عليكم رغباتكم. علينا أن نسمح لكم بالتدخين وشرب الكحول وحتى بتناول المخدّرات. أفلا يتمتع شبان الغرب بمثل هذه الحريات.. فكيف نحجبها عنكم؟!

زاهد محمد: لا يا عم. نحن لا نطالب بذلك. نحن نطالبكم بالسماح لنا بممارسة هواياتنا المعقولة. فأبي مثلاً يرفض السماح لي بالاستماع إلى الموسيقى والأغاني الغربية مدّعياً أنها تضيّع وقتي.

مشاهد: وهل تسمي هذا هواية معقولة يا بني؟ هل تسمي الاستماع إلى صخب الموسيقى الشبيه بصخب سوق الصفافير وصراخ المغنين الشبيه بصراخ المجانين هواية معقولة؟ ما العيب في غنائنا العربي وموسيقانا العربية؟

زاهد محمد: على كل حال أنتم الآباء لا تراعون رغباتنا ومشاعرنا وهذا يجعل حياتنا مرّة كالعلقم. وأنا أصارحكم بأننا نعدّ الأيام بل الساعات للتخلص من عبوديتكم.

مدير الأمن: (بصرامة) ما هذا اللواص؟! بدلاً من أن تتفلسفوا عليكم أن تهتموا بدروسكم وتضمنوا مستقبلكم! ويجب عليكم ألا تشغلوا أنفسكم بأي أمور أخرى غير الدراسة. وابتعدوا عن السياسة على نحو الخصوص التي يزجكم فيها المخربون. فالسياسة ليست لعبة بأيدي الزعاطيط.

مسعود الهاني: أظن أن هذه المشكلة قد تمّ استيعابها. وعلينا الآن أن ننتقل إلى مشكلة أخرى. (وهو يدير عينيه في وجوه الحاضرين) من منكم يحب أن يعرض مشكلته؟ (يرفع شمخي العلي يده) تفضل أيها الأخ.. تفضل.

مدير الأمن: (ينظر إلى شمخي في غضب) ما لك وهذا اللواص يا شمخي؟ اجلس.. اجلس ولا تلوّص.

مسعود الهاني: (وهو يضحك ضحكته المفتعلة) أرجوك يا سيادة مدير الأمن أن تفسح له المجال ليعرض مشكلته.

مدير الأمن: (في غضب) ومن قال لك إن لديه مشكلة؟ أفراد القوات المسلحة ليس لديهم مشاكل أصلاً، وكل ما عليهم هو طاعة الأوامر.

مسعود الهاني: (وهو ينظر إلى شمخي) تفضل أيها الأخ شمخي.. تفضل.

شمخي العلي: (يغادر مقعده على المسرح ويرتقي المنصة) أنا شرطي الأمن شمخي العلي. طبعاً سيادة مدير الأمن محق في قوله بأننا أفراد القوات المسلحة ليس لدينا مشاكل وليس لنا إلا أن نطيع الأوامر. ولكن فليسمح لي سيادة مدير الأمن..

مدير الأمن: (مقاطعاً في خشونة) لا أسمح لك.. اجلس ولا تشترك في هذا اللواص.

مسعود الهاني: استمر.. استمر يا أخ شمخي.

شمخي العلي: على كل حال ليس لديّ مشكلة حقيقية. وكل ما هنالك أنني أردت أن أقول لكم يا إخوان إننا أفراد الشرطة أناس طيبون مثلكم ولسنا قساة كما تتصورون. وقلوبنا رحيمة مثل قلوبكم.

مشاهد: (بسخرية) فكيف إذن تسمح لكم قلوبكم الرحيمة بأن تضربوا مواطنيكم بقسوة أثناء المظاهرات، بل وأحيانا تطلقون عليهم النار؟!

مدير الأمن: (في غضب) يا أستاذ مسعود.. عليك أن تمنع هذا اللواص الذي يمسّ هيبة السلطة.

مسعود الهاني: (في حرج) لكننا وعدنا الحضور يا سيادة مدير الأمن بأن يدلي كل واحد منهم بمداخلته بحرية تامة. ثم إن هذا الكلام لا علاقة له بهيبة السلطة.

مدير الأمن: (بلهجته الغاضبة) كيف لا علاقة له بهيبة السلطة؟ (ملتفتا إلى الحضور في غضب) على كل واحد منكم أن يراقب ما يقوله ولا يلوّص. وقد أعذر من أنذر.

مسعود الهاني: استمر يا أخ شمخي.. استمر..

شمخي العلي: أنتم تظلموننا يا إخواني. ونحن أبرياء من كل ذنب. فنحن حينما نضرب المواطنين في المظاهرات أو حتى نقتلهم فلأننا نتلقى الأوامر من مسؤولينا الكبار. ونحن موظفون مأمورون. وحينما تصدر إلينا الأوامر فيجب علينا طاعتها وتنفيذها وإلا تعرّضنا لعقوبات تقصم ظهورنا. وأترجّاكم أن تعلموا أننا حينما ننفذ تلك الأوامر يعصر الألم قلوبنا لأننا ندري أنكم تدافعون عن حقوق المواطنين جميعا. وما نحن سوى مواطنين مثلكم.

مدير الأمن: (بغضب) لا تلوّص يا شمخي واضبط لسانك.

شمخي العلي: العفو يا سيادة المدير. أنا لا أقصد انتقاد الحكومة، فالحكومة على العين والرأس. وكل ما أريد قوله للإخوان الكرام أننا أفراد الشرطة مظلومون. ونحن ننفذ أوامر رؤسائنا. فلماذا يوجّه اللوم إلينا؟! ثم إننا مساكين نضحي بأرواحنا أحيانا بسبب المهام التي نكلَّف بها. وكل حياتنا خطر في خطر. ألم يقتل بعضنا أثناء المظاهرات؟ ألم يُقتل بعضنا حينما يكلَّفون بمهمة القبض على المجرمين؟ فما ذنبنا؟ ألسنا بشرا نخاف على حياتنا كسائر البشر؟! أليس لدينا عوائل مسؤولين عن إطعامها؟ ومع ذلك لا تدفع لنا الحكومة رواتب مجزية. فرواتبنا كما تعلمون يا إخوان شحيحة وهي لا تكاد تسدّ مطالب عوائلنا. وكلكم تعلمون أننا من الطبقة المسحوقة. نحن مساكين يا إخوان وحرام عليكم أن تظلمونا.

مشاهد: أنت على حق في كل ما قلت يا أخ شمخي. والذي ينبغي أن يُلام هم رؤساؤكم الكبار الذين يصدرون إليكم مثل تلك الأوامر الجائرة.

مدير الأمن: (يقف ويخاطب مسعود بغضب) لا.. لا.. الأمور خرجت عما هو مرسوم لها يا أستاذ مسعود. ويظهر أن بعض الناس لا يعرفون حدودهم ولا يضبطون ألسنتهم. ولديّ أمر رسمي بفضّ هذا الاجتماع إذا تجاوزت الأمور حدودها المرسومة وأخذ الناس يلوّصون. انتهت هذه المسرحية البائخة يا أستاذ مسعود. (يوجه كلامه إلى الحضور وهو يؤشّر بيديه) انصرفوا.. انصرفوا. انتهت هذه المسرحية السخيفة. (يهتف) عباس.. خريبط.. محيسن.. أخرجوا الحضور من هذا المكان.

(ينهض من بين الجمهور أشخاص يرتدون الزيّ المدني ويبدؤون بدفع الناس بغلظة وهم يهتفون «هيا.. هيا». يتدافع الحاضرون وهم يخرجون في عجلة من الصالة والمسرح) □

— ستار الختام —

جنان الطفولة

[قراءة في (بيت في أقصى النسيان) للقاص العراقي أحمد محمد أمين]

محمود سعيد

لعنة النقد

رن جرس التلفون عند المرحوم الدكتور علي جواد الطاهر، رفع السماعة، ثم سمعته يقول: لا، لا أكتب عن روايتك، كررها بضع مرات، ثم قال مؤكداً، مسرحياتك جيدة، لكن روايتك ضعيفة، ولا تستحق أي نقد، ولو كنت مكانك لتفرغت للمسرحية، إنس الرواية، لا تنشرها، ثم صمت برهة ليستمع إلى محدثه، ثم أكد من جديد: لا لن أكتب قط، وبعد انتهاء المكالمة، التفت إلي وقد تكدرت أساريره:

ـ هذا د. فلان، أخبرته غير مرة بأني لن أكتب عن روايته، وهو يلح، لماذا لم يفهم أن النقد ليس مجاملة صديق!

النقد رحمة لا لعنة، ميزان عادل، يبين النقص والزيادة، الشذوذ والاعتدال، لذا فإنه أحد أهم عوامل البناء الأدبي، والناقد الحي هو الباني المشيد، ومن يطاله النقد إن كان متفتحاً للحياة، محباً للتطور يتقبل النقد مادام صادراً وفقاً لمبادئ عادلة.

رحل الدكتور الطاهر، وربما كان آخر من بقي من جيله في العراق، أقصد جيل النقاد الموضوعيين، وقبل مدة رحل الدكتور القط، وقبله مندور، أما من تبقى ممن يطلقون على أنفسهم نقاداً، فليس فيهم من يتمتع إلا بنسبة قليلة مما كان يتمتع به أولئك الرواد صراحة ونزاهة وتمرساً، وأخال أن الزمن سينساهم، أو قد نسيهم بالفعل، وما كتاباتهم سوى فقاعات لا تلبث أن تزول من فوق سطح المياه، الزمن كفيل بتثبيت اللقب على من يستحق، ذلك أن معظم «النقاد» المتواجدين في أرجاء الوطن العربي من خليجه إلى محيطه، يفتقرون إلى أدوات عمل ضرورية، بمقدار

يتوازى مع افتقارهم إلى ضمير مهني، فهم لا يتورعون عن إطلاق صفات التبجيل على من يتوجسون منه المنفعة، ويهملون المبدعين الحقيقيين، ومهما بلغ الإنسان من الذكاء والفراسة اللامعة فلا يستطيع أن يتكهن بطرقهم في النقد، أو باعتدالهم، وعدالتهم، أو بإحاطتهم بأدوات عملهم، فهم إن كتبوا عن هذا القاص أو الشاعر فلا ينظرون إلا إلى الدوافع المادية، من محسوبية على هذا المسؤول، ومنسوبية إلى تلك المدينة، أو أنهم يميلون إلى من يعتنق مذهبهم، أو من يؤيد نحلتهم، أو يشاركهم في الانتساب إلى طائفتهم، أو من يتوخون لديه الفائدة، وعندما يمعن الناظر إلى منهجهم، لن يجد عندهم اهتماما لإلقاء ضوء على إبداع، أو جدة، أو تجديد، هناك تغليب الهوى، والحكم المسبق، لذا أصبح النقد لعنة، معول هدم لا واسطة بناء، وأخال أن أفضل ما يستحق أن يطلق على بعضهم هو نقاد «اللنگة»[*].

أقامت بعض المجلات والصحف أسوارا في هذا الزمن الأعوج، يتخندق فيها نقادها، وكتابها ومبدعوها، لا سبيل لاقتحامه، والوصول إلى ساحاتها إلا بإراقة ماء الوجه، أو بلتطيخ الضمير، ولولا قلة من هذه الدوريات مازالت على العهد السليم الصافي لبلغ اليأس منتهاه.

أقول هذا وأمامي مجموعة (بيت في أقصى النسيان) للقاص أحمد محمد أمين، الذي ما فتئ ينشر منذ أربعة عقود وحتى الآن، والذي أعتبره ضحية لنقاد تعمدوا إهماله، تعمدوا الصمت عن إبداعه، أو الكتابة عنه، اهتموا بمن هو أقل منه موهبة لاعتبارات طائفية، أو عنصرية، أو إقليمية، فعلى كثرة ما عندنا في العراق من «نقاد»، إلا أن أحداً ما لم يسلط أي ضوء مغنٍ على كتاباته، ثم جاء خبر فوز مجموعته «طائر الليل» بجائزة «أبو القاسم الشابي» في تونس، ليكون صفعة مريعة لوجه وقفا نقاد اللنگة، الذين يطربون لأي مغنية شرط أن لا تكون مغنية الحي، لكن هل ثابوا إلى رشدهم؟ لا أظن.

تنقسم قصص المجموعة الخمس عشرة إلى ثلاثة أقسام: ثلاث عشرة قصة تشدها خيوط موضوعات متشابهة موحدة، تكاد تكون كل قصة فيه فصلاً مكملاً للقصص الأخرى، بينما يتكون القسم الثاني من القصة الرابعة عشرة: «العرس الأخير» وهو يختلف اختلافاً كاملاً عن القصص المتقدمة لأنه صورة موفقة مؤثرة لطفولة بائسة، أشبه بالسيرة الذاتية، أما القسم الثالث فيتكون من قصة واحدة متألقة قلما وجد مثيل لها في الأدب العربي: (لعبة الدمى).

الخراب

ماذا يتبقى من بلد تحكمه الديكتاتورية نحو أربعة عقود كاملة؟ تحيله إلى أنقاض وخراب، تغرقه في الحروب، تقضي على مجمل إنجازاته التي ورثها على مر القرون، ولعل أكثر فئات الشعب التي وقع عبء الديكتاتورية والاضطهاد عليها فقراء هذا الشعب المضطهد، أصبحت السلطة كابوساً يبتلع كل شيء، فتبدو البلاد وكأنها خالية من النظام، فلا قانون ولا سلطة تستطيع منع القوي من سحق الضعيف، القوة هي التي تبطش، وتغتصب، وتقتل، وتنهي حيوات لم تكد تخطو خطوات فوق هذه المساحة التي يمكن أن تكون ساحة للبراءة والجمال، ص ٩٩، وإن بحثنا

عمن ناله أكبر قدر من العذاب سنجد أهل البصرة، فبالإضافة إلى ما وقع على سكان البصرة من عبء الدكتاتورية كباقي أراضي الوطن، نراها تحملت العبء الأكبر في الحرب العبثية بين العراق وإيران، إذ ظلت طيلة ثماني سنوات تستقبل قنابل وقذائف وصواريخ إيران بشكل يومي ومن دون انقطاع، حتى إذا انتهت تلك الحرب العابثة بالتنازل عن أهم بقعة من بقاع الوطن، وتنفس الناس الصعداء فوجئوا باحتلال الكويت، وما أعقب الاحتلال من تدمير وقصف وتصفية جسدية ليدمر ما تبقى صامداً من معالم تلك المدينة الجميلة.

ولعل الصور المنبثة في قصص (بيت في أقصى النسيان) تصور ما عرض لأهل البصرة من مآس: طفل ينـــتظر والده عبثاً لأن قذيفة غادرة صعقت الوالد وهو عائد إلى البيت عصراً فتشظى جسده إلى أشلاء دقيقة محترقة، انتشرت حواليه، لم يبق منه إلا كومة متفحمة، ألقى عليها عابر سبيل عباءته وانصرف، ثم جاء أهله من بعد فجمعوا بقاياه، ورموها في حفرة كيفما اتفق، غير أن شظايا دقيقة منه ما زالت ملتصقة بالجدران.ص ١٢٠، والقصة معاناة ذلك الطفل وأمه، وطفلة تلجأ إليهما لأنها فقدت أمها في القصف أيضاً.

ولعل من مات في الحرب ارتاح، لكن الناجين هم الضحية الحقيقية، حاول (أحمد محمد أمين) تصوير تجذر الخوف والرعب ببراعة نادرة في داخل أفراد الشعب طيلة تحكم الديكتاتورية الهمجي، الناجون يسيرون، ويعملون، ويأكلون، ويمارسون حياتهم اليومية، لكن الخوف والرهبة، والضياع يشظيهم، ظاهرهم بشر اعتياديون، لكنهم في الواقع صخور، حتى حواسهم أضاعوها! «ما الذي بقي لي إذا ضاع سمعي الذي يربطني بالآخرين؟ أيمكن أن يكون لهذا العمى الذي يغشى أذنيك نهاية؟ ستستحيل إلى دودة تتحرك وحسب، لا سمع ولا رؤية!» ص١١٨.

أبطال القصص جميعاً فقراء مضطهدون، فيهم المشردون، وفيهم المدقعون، فهذا بطل الصدى..والصدأ، طالب محاط بحاجات ومتطلبات حياتية لا يستطيع تحقيق أبسطها، يبحث عن مكان يسكنه، في مدينة فاغرة «فاها العملاق تبتلع الفقراء وأحلامهم» ولكي يسكن في قسم داخلي يضطر للكذب والاحتيال، أخيراً يجد نفسه مع «مجهول بلا ملامح ولا اسم» يشاركه غرفة بائسة، مقابل حراسة القسم الداخلي وتنظيفه، لكن العثور على سكن لم يحل المشكلة، فالغرفة في الصيف مشتمل من جهنم الحمراء، أشبه بالفرن، خالية من أبسط مرافق التكييف، حتى المروحة غير موجودة.

تصور إحدى القصص حياة قاسية: أستاذ رياضيات جامعي يفتح محلاً للحلاقة، ومشردون يملؤون الشوارع، يبحثون عن طعام في القمامة!، ولا أحد يستطيع الكلام، في مجتمع يستقطب الناس تدريجياً إلى فئتين صغيرة متنفذة متسلطة غنية، تأمر، تسلب، تنهب، تقتل، تطارد، وفئة كبيرة مضطهدة فقيرة محتقرة، مأمورة، مستلبة من كل شيء حتى الكرامة، مطاردة، لا مستقبل لها!

لا يشعر العراقي بالأمان، بالراحة، هناك من يطارده حتى بالأحلام، الصديق يختفي، الجار يسجن، السياسي يعدم، الهارب من الجيش يقتل ويعلق على باب بيته، الآذان تقطع، الألسنة تجتث،

ال، ال، إلى ما لا نهاية، أفلا يقضّ ذلك من مضجع الإنسان العادي؟ في النهار خائف، وفي الليل خائف، ولعل خوف الليل أشد، فنومه سلسلة من الكوابيس، فارس يحمل رمحا، يرتدي درعا، وخوذة من الصلب، يجوس خلال الصالة، ويبحث عن أحدهم، يقلب النائمين، يحركهم بقدمه، ولم أك أعرف أنه يبحث عني إلا في وقت متأخر. ص٥٧.

أسأل نفسي: كيف دخلت إلى هذه الفسحة المغلقة على نفسها، تسورّها جدران عالية، لا باب ولا منفذ أو مخرج لها، أشعر باليأس، وأقول: حتام تنطوي عليّ هذه الحيطان اللعينة؟ وأكاد أجهش. ص٦٣.

ثم فجأة امتدت يدان وخيطتا فمي، صرت لا أستطيع الكلام..وكان صمتي جزءا من حريتي التي سأتمتع بها.

خذوهما إلى السجن لمدة أسبوع ثم يقدمان إلى مجلس الانضباط،... بعد قليل تقاطرت الأيدي علينا، وسحبنا إلى غرفة صغيرة ضيقة في زاوية نائية ورمونا داخلها، داخل الظلام والعفونة والصمت.

كنت أتحايل أنتقل من دكان إلى دكان، معطياً ظهري إلى العيون خوفاً ورهبة وقبل أن أنتقل إلى مقاطعة أخرى إذا باثنين من العيون يطبقان على ذراعي وكانا يرصدان حركاتي، و..لم أستطع مقاومتهما، كنت ضعيفاً شاحباً هدني الجوع.. ص١٠٠

لا مخرج للناس في واقع سجن كبير هو كل المجتمع سوى بالأحلام، فهذا بطل القصة الأولى، رجل سريع العطب، لا يجد مهرباً من وطأة الاضطهاد سوى الموت أو الهرب إلى الماضي، كسر واجهة زمان يمتد إلى خمسين سنة، ليقابل هدية وسلطانة، ووهاب وخديجة، ووجه أمه، وبقية فتيات المحلة، ويتمتع بالحديث، باللعب، بالمرح معهن: ذا هو الصباح ثانية لكنني في البيت، بيتنا القديم، مأوى الطفولة والذكريات واللحظات التي لا تتكرر ثانية، حول صينية كبيرة تكتظ بما لذ وطاب من الطعام..

لكن هل ينتهي الحلم إلى خير؟

لا، فأمامه جسد مسجىً يحسده الأحياء:

تخلص في الأقل من مضايقات أذناب السلطة، من ممارساتها، لن يقف بعد اليوم في الطوابير، ولا ترى عيناه اللصوص والمرابين وصانعي الحصار من الداخل..

كيف يجوع بلد كان يطعم قبل ١٥٠٠ سنة ٣٠ مليوناً؟

يحلم بطل وجع الانتظار بالشبع! يعود إلى ما قبل عصور الديكتاتورية، إلى ما قبل سلطة الأزمات، حيث جانب النهر مكتظ: بباعة الخضار والفواكه والحاجات الاستهلاكية وكل ما يخطر بالبال، إلا أن البيع والشراء متوقفان فما من أحد يشتري وعيون الباعة تبحلق في عدد قليل من السابلة، وعندما يريد أبوه أن يشتري شيئاً يرفض البائع نقوده، لأنها نقود قديمة تغيرت منذ مدة طويلة..

استطاع أحمد محمد أمين، أن يصور كوابيس حياة شعب كان بمقدوره أن يذوق الرفاهية، والنعم، والبهجة، وأن يعيش حياة رغدة لولا تسلط فئة عبثت بمقدراته، وضيعته، وقضت على أي أمل في مستقبل أفضل، فلم يبق عند الواعين من أبناء الشعب سوى الأحلام، ولذلك فعند قراءة المجموعة تجد نفسك أمام أبطال اختيروا لا على التعيين من الأكثرية الصامتة، الأكثرية المستلبة، الأكثرية المضطهدة، أناس بلا حقوق، مهانون، مذلون، أينما يتجهون لا يجدون سوى أبواب موصدة، والمستقبل نفق لا نهاية له، غارق في الظلام، أما السعادة فلا تتحقق إلا بالذكريات، ذكريات الطفولة بالذات.

العرس الفقير

قليلة هي القصص التي تنبع بعفوية لتترك انطباعا حزيناً يدمي القلب كالعرس الفقير: طفلان، صغير لا يتجاوز بضع سنوات، وصبية في نحو العاشرة، تموت أمهما، تتركهما برعاية أب فقير، يقضي نهاره كله خارج البيت بحثا عن لقمة العيش، لم يجد أحدهما ملجأ إلا في أحضان الآخر، اليتم مرارة، والفقر عذاب، والمحيط جهنم، لكن حنان الصبية على الصغير جلب الربيع إلى صحراء الواقع المجدبة، فأحال جهنم إلى فردوس.

وعندما كبر الصغير، وتجاوز الستين، لم يجد في كل حياته أجمل من ذكرى حياته مع أخته، «فمن يغوص في ذكريات قلبي يجد صورتها معلقة هناك، تقف بقامتها الباسقة، وثيابها البيض، لصق الدرج تحملني» «عيناها بلون زهرة الشمس ووجهها ملائكي مدور ناصع» «أنهض كل صباح أمد أناملي، ألمس وجهها..» ص١٣٥.

ترفعين جسدي الضامر بكلتا يديك، أهبط معك من السطح إلى الفناء.

أين هي البسمة التي كانت تتبرعم فوق شفتيها كل صباح؟ أين هي الأغنيات الصغيرة تهمسها في أذني؟

من ينسى أول وجه ينحني عليه ويرسم بشفتيه قبلات دافئات فوق جبينه؟ تغسل وجهه، تخرج به ليرى الصباح داخل الزقاق، الحركة، الباعة، يغفو ثانية في حضنها.

لكن السعادة انتهت، ففي صبيحة يوم صيفي، وضعوا الصبية في حافلة خشبية مع بعض الأفرشة، وصندوق خشبي رديء، وصرة كانت تضم ملابسها، برفقة رجل قميء، جهم، «وقبل أن تصعد إلى العربة، طبعت قبلة طويلة، أطول من دهر فوق جبيني، أطول قبلة تلقيتها في حياتي، لكنهم كانوا على عجل، دفعوها داخل الحافلة، رمقتني بنظرات لن أنساها أبداً، وستظل ندية طرية ألقة.

كان ذلك عرسها، عرس اليتيمة، (لا دفوف، ولا أغانٍ، ولا موسيقى،) دفنوها وحيدة في الحافلة الخشبية.

وحين غادرت العربة اللعينة، ظللت أعدو وراءك بلا جدوى، ذهبت إلى غير رجعة، أنت

ومتاعك الفقير، وعرسك الصامت، وأسرارك الصغيرة وأمنياتك.

فمن يعيد إلي جنتي الضائعة؟

لكنه يرى أخته بعد بضع سنوات، أخذته عمته في رحلة على الدواب طيلة الليل، للعزاء، ومن بين عشرات النساء لمح وجهها، تجلس صامتة، فقد وجهها نضارته، سألته عن العائلة فرداً فرداً، طوقته بذراعيها، أخذته إلى كوخها، أصبح لها طفلان، أشقران جميلان، لكنه استشف أن التعاسة تحتل الكوخ الصغير، فلقد كان الولدان خائفين مرعوبين، يتشبثان بها دائماً، وبالرغم من محاولاته المتكررة للمرح معهما إلا أنهما ظلا بعيدين، وجلين، لم تستطع الابتسامة شق طريقها إلى وجهيهما، لكنه لحسن الحظ لم يرَ زوجها القميء الدميم، كان في رحلة، وتمنى أن يبقى معها، لكنه عندما فكر برجوع زوجها الجهم أبعد الفكرة، عاد مع عمته، وكان ذلك آخر لقاء له بأخته الحنون زينب، إذ سمع بعدئذ أنها انتحرت بإلقاء نفسها بالتنور، وأن أحد ولديها مات، بينما لم يسمع أي خبر عن الولد الثاني.

لعبة الدمى

عندما كتب (جورج أورويل) روايته (مزرعة الحيوانات) ضمنها رؤىً سياسية، فبات كل حيوان معروفاً سلفاً بتصرفه، وهدفه، لكن (أحمد محمد أمين) ترك الحيوانات تتصرف على هواها من دون دوافع سياسية، أو أفكار أو أغراض مفتعلة، فجاءت حركاتها عفوية، طريفة، في غاية الإثارة والتشويق، وكنت أتمنى لو أطال فيها، فمن يقرأ القصة لا يمكن أن ينساها، وبرأيي إن (لعبة الدمى) واحدة من بضع قصص عربية لا تتجاوز حفنة اليد بلغت القمة، وربما كانت أفضلها على الإطلاق، وأعتقد أنها في حالة ترجمتها إلى اللغات الأخرى فسيرتفع شأنها، وستصبح من القصص الخالدة على مر العصور، كمعطف جوجول، ورسالة إلى جدي لتشيكوف.

الفكرة بسيطة كأي عمل أدبي جبار، يترك أهل الدار البيت فتدب الحياة في الدمى والتماثيل الصغيرة الموجودة، يتصرفون حسب هواهم، لكنهم لا يتجاوزن حقوقهم، وبذلك يثبتون أنهم أفضل من كثير من البشر، ولا أريد أن ألخص القصة لأترك المجال للقراء الكرام ليتمتعوا بها.

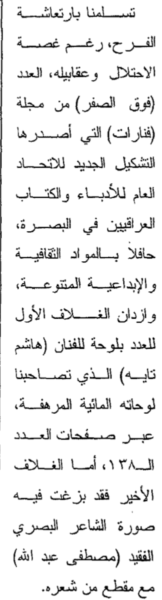
بيت في أقصى النسيان، مجموعة قصص، للكاتب ثلاث مجموعات أُخَر: ممرات في دفاتر الطفولة، وأحلام مستحيلة، وطائر الليل، الفائزة بجائزة (أبو القاسم الشابي) التونسية □

(*) اللنگة: الملابس المستعملة، أي البالة.

فنارات (ما فوق الصفر)

ونـــــداء





تســـلمنا بارتعاشـــة الفـــرح، رغـــم غصـــة الاحتلال وعقابيله، العدد (فوق الصفر) من مجلة (فنارات) التي أصـــدرها التشكيل الجديد للاتحـــاد العام للأدبـــاء والكتـــاب العراقيين في البصـــرة، حافلاً بـــالمواد الثقافيـــة والإبداعيـــة المتنوعـــة، وازدان الغـــلاف الأول للعدد بلوحة للفنان (هاشم تايـــه) الـــذي تصـــاحبنا لوحاته المائية المرهفـــة، عبـــر صـــفحات العـــدد الـــ١٣٨، أمـــا الغـــلاف الأخير فقد بزغت فيـــه صورة الشاعر البصري الفقيد (مصطفى عبد الله) مع مقطع من شعره.

ساهم في العدد حشد طيب من الكتاب والشعراء والنقاد والمتابعين يبدأ باسم شاعرنا الكبير سعدي يوسف وقاصنا المبدع محمد خضير.. تتبعهما أسماء طيبة ومبدعة تنتهي ولا تنتهي!

يرافق العدد (على ورقة منفصلة) نداء موجه من اتحاد الأدباء والكتاب في البصرة إلى (كافة الأحزاب والتجمعات والاتحادات والشخصيات الدينية والوطنية والديمقراطية والمهنية) تشير ديباجته إلى الخراب الكبير الذي أصاب البنية الثقافية والأدبية العراقية في ظل النظام السابق.. بعد ذلك يشير النداء إلى ما أصاب هذه البنية بعد سقوط النظام وحصول الاحتلال، إذ يقول النداء «لقد استولت بعض العوائل العراقية على مقرنا الدائم الذي نملك مستندات أصولية في عائديته لنا، كما تمت سرقة أثاثنا وكافة لوازمنا الإدارية، وسرقت مكتبتنا ودمر أرشيفنا.. وهاهم أدباء وكتاب البصرة (.. كذا) يعيشون مرارة تهميش النظام الفاشي السابق لهم، ومرارة هذه اللحظة العراقية الحرجة!»

ويتابع النداء: «إن إصدارنا العدد (فوق الصفر) من مجلة (فنارات) وسط هذه الظروف القاسية يؤكد تسامينا ونزوعنا تجاه الإبداع والحرية والجمال من اجل خلق ثقافة عراقية جديدة».

ثم يدعو النداء إلى المساهمة في إنقاذ المبدعين البصريين واتحادهم من هذا الضياع.. ويطلبون المساعدة على المستويين المادي والمعنوي، توكيداً للتوجه الوطني الديمقراطي والإنساني المشترك في بناء عراق جديد وموحد.

وقع النداء الأديب (حاتم العقيلي) رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين في البصرة، رئيس تحرير (فنارات) ـــ من المقر المؤقت للاتحاد في نقابة المعلمين في العشار.

[المحرر]

إصدار:

عريان السيد خلف: الأعمال الشعرية، مكتبة بغداد ستوكهولم، ٢٠٠٣.

في عدد قادم

نأمل في إصدار ملف بعنوان (الثقافة العراقية والمتغيرات الاجتماعية) يساهم فيه كل من (مؤيد البصام، محمد خضير سلطان، أحمد سعداوي، داود سالم، قاسم السومري، نصيف فلك).. وآخرين، ننتظر وصول مساهماتهم.

[أدب وفن]

